مناضلون يساريون

(الجزء الثانى)

د. رفعت السعيد

شركة الأمل للطباعة والنشر

١٩ محمد رياض

أرض شريف - عابدين

الإدارة :

(+202) 23904096

فاكس:

(+202) 23952496

e-mail

al_amal@alamalprintshop.com

الطبعة الأولى: 2012

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للمؤلف.

• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من المؤلف.

مناضلون يساريون

(الجزء الثانى)

تأليف :

د. رفعت السعيد

رقم الإيداع: ٩٥٨٠/ ٢٠١٢

الترقيم الدولى: 978-977-5047-07-6

السعيد، رفعت
مناضلون يساريون
تأليف: د. رفعت السعيد
القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر ٢٠١٢.
مج٢ ٣١٢ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٦ ٠٧ ٥٠٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٥٨٠/ ٢٠١٢
978-977-5047-07-6
ديوى٩٢٣,٣٣٥٤٢٢

مناضلون يساريون

إلى هـؤلاء الآتـين من سـحب المسـتقـبل
حـامـلين رسـالـة الـيـسـار . . لـيـعـرفـوا
كم هو جـميل وجـليل هـذا اليسار المصرى

.. والمعلوم عن معدن البلاتين انه يبقى محتفظا بلونه مهما حميته فى النار إلى درجة الالتهاب. ولهذا كان الرومان القدامى يقيمون ما يسمونه مسابقة اختبار الفرسان. يتقدم القائد إلى صف الفرسان الجدد حاملا قضيبا من البلاتين قد يكون ملتهبا وقد لا يكون فمن تردد فى الإمساك به لا يصلح. ومن قبض عليه بلا تردد يصلح فارساً.

ولم يكن أيا من هؤلاء الذين سأتحدث عنهم بحاجة إلى اختبار البلاتين. فكل منهم يندفع نحو التضحية واحتمال الصعاب واحتمال ما لا يمكن لبشر احتماله.. دون تردد، بل دون أن يطلب منه أحد.

مرة أخرى

وأعود.. محاولا أن أتجول فى حديقة النضال اليسارى المليئة بالورود. ورود عديدة تخطف بصرى، تأمرنى أن أتوقف .. أتأمل .. أبحث .. أفتش عن المعلومات، ثم أكتب.

فاليسار.. ذلك الكيان الفكرى الممتد الجذور، فى نطاق التربة المصرية، هذا الكيان المصرى المذاق، العلمى التوجه، العنيد، العتيد القادر دوما على الدوس على الأشواك الصلبة، وعلى أن ينزف من أجل الوطن والشعب والفكرة عرقا ودما وتضحيات بغير حدود. يتخيل أعداءه الذين يوجهون له كل اسلحة الخصومة الشرسة ابتداء من الادعاءات والاكاذيب إلى السجن والتعذيب، ثم إلى القتل دون جدوى أن بإمكانهم إسكات صوته ذلك أن هذا اليسار لم يكن أبدتً نبتا يطفو على سطح مصر، ولا مجرد لون يحاول أن يصبغ الوجه المصرى. ثم لا يلبث أن يزول، بل هو وشم أبدى الخلود على الجسد المصرى. يتألق أو يخبو وقد يخيل للبعض أنه ينطفئ، لكنه لا يلبث أن يستمد من عزيمته صلابة وقدرة على التوهج من جديد.

وفى كثير من الأحزاب أوالتيارات السياسية والفكرية يمتلك زعيم أو اثنين ساحة العرض. ويتمحور حوله كل قول. بحيث يتبدى وكأنه القائل الوحيد والفاعل الأول. وإذ يذكر إسمه يكون ذكراً للحزب. وإذ يذكر الحزب يكون سبيلا لتتويج الزعيم. إلا اليسار المصرى. فالبناء اليسارى فى ساحة الوطن قام على أكتاف مئات بل آلاف من المناضلين.. مفكرين- مثقفين- عمال- فلاحين- نساء أسهموا قولا وفعلا ودفعوا ثمن انتمائهم للعقيدة اليسارية تضحيات بلا حدود، عذاب وتعذيب وسجن واعتقال، وإنكار واستنكار. لكنهم مضوا فى طريق نضال لا ولم يتوقف.

وإذا كان تاريخ النضال الحزبى يمكن تسطيره عبر الإمساك بخيط وحيد هو القائد أو المفكر أو الشهيد فإن تاريخنا هو حديقة متسعة الألوان متعددة النسمات والبسمات.

يختلط فيها الجميع مع الجميع. ولا يمكنك امتلاك معرفتها بغير الانغماس فى ساحتها مستمتعا بتتبع ما كان. معانيا من شوك شديد القسوة أحاط بكل وردة من وروده.

ولعلى عندما جازفت بالتوجه نحو كتابة تاريخ اليسار المصرى لم أكن أدرك أو أتخيل صعوبة المرتقى. أثنان وعشرون عاما عشتها فى رحاب تاريخ مفعم بالمحبة للوطن والشعب. والقدرة على استنبات المذاق المصرى الأصيل فى ثمار الفكر اليسارى، والاستعداد الدائم لتقديم تضحيات بلا حصر، تشريد ومطاردة وسجن واعتقال وتعذيب وقتل. لكن هؤلاء الرجال يواصلون ويصممون ربما دون أن يتعرفوا على مقولة تولستوى «أنهم يتجاهلونك ثم يسخرون منك ثم يطاردونك ثم يسجنوك وقد يقتلونك ثم تنتصر». لكنهم سيدات ورجال من نبت التربة المصرية. تلك التربة التى اخصبت ومنذ قرون عديدة عبقرية العشق للمكان والناس ومعها عبقرية الخلود الأبدى.

أنهم ذلك النبت الذى امتزج عرقه ودمه وجهده وعذابه مع ذلك الجرانيت الذى صاغ منه آباؤنا خلودهم وهم ينقشون باتقان يفوق الخيال قصص الخلود الابدى للصراع المصرى من أجل الحق والعدل. ولعل الكثيرين من هؤلاء الرجال الذين صاغوا ارادتهم وصمودهم من جرانيت الفراعنة لم يقرأوا نصوص الأهرام، لكنهم فعلوها ممتثين لإرادة الصمود..

إنهم يقولون عنك يا أوزوريس
ولو أنك ترحل إلا أنك تعود ثانية
ولو أنك تنام إلا انك تستيقظ ثانية
ولو أنك تموت إلا انك تبعث مرة أخرى
قف
حتى يمكنك أن تسمع ما فعله حوريس لأجلك
أن حوريس يجمع لك اضلاعك
لكى يلم شمل اجزائك دون نقص فيك
يا أوزوريس
إنهض
أن حوريس يحبك.

أنها اسطورة الصراع الابدى بين الخير والشر، واسطورة الانتصار الحتمى للخير.

ولست اعتقد أن بالإمكان فهم أسرار هذا الصمود الدائم والمستمر لليساريين المصريين، وطلاسم اصرارهم على تحمل أى شىء وكل شىء فى سبيل دفاعهم عن المبدأ الذى يشحن ارادتهم بموجات من الإرادة التى لا تلين، دون أن تتأمل النقوش الجرانيتية التى تمثل وشما غير مرئى على ضمائرهم وقلوبهم.

فهكذا خلقوا. وهكذا بدأوا. وهكذا استمروا . جيلا بعد جيل استمروا دون ملل ولا خوف ولا تردد ولا تراجع. ولا سعى نحو أى كسب شخصى. ونتأمل هذه الاسطورة شعرا

يحكيك من شهد الوقيعة أننى

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومدجج يخشى الكماة نزاله

لا ممعن هربا ومستسلم

نعم. هم هكذا دوما..

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وأيضا..

لا ممعن هربا ولا مستسلم

* * *

ولقد كان بإمكانى، وربما كانت هذه خطتى الأولى، أن اكتفى بالبحث فى تاريخ الحركة بموجاتها المتتالية فإذا بها تجتاحنى وتستدرجنى إلى هديرها فى تدافع لا يهدأ ولا يتوقف، موجات لا تعرف التردد. بل تمضى لترهق الباحث وتفرض عليه أن يمضى معها، يلهث مع أحداثها وتدافعاتها، ليسجل إنجازاتها، وانتصاراتها أو انكساراتها. وأيضا وهذا هو الأخطر .. انقساماتها.

.. ولعلى أنحنى بالكتابة لأسجل هنا أن خطر الانقسامية كان وباء ولم يزل، ولعل التقسيم لم يكن بذاته كفعل، خطيرا، وإنما الأخطر هو اللجاجة فى الخصومة، ونسيان العدو نظاما وحكما وأمنا ، والتركيز فى الخصومة والهجوم من بعض اليساريين ضد يساريين آخرين لتلتهب مشاعر من المفترض أن توجه التهابها إلى العدو، ولينشغل البعض بالبعض بدلا من الانشغال بالآخر ويتجلى فى الأفق قول شاعر ربما عانى من ذات المأساة.

إحذر عدوك مرة

واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق

فكان أعلم بالمضره

.. لكننى لا أدعو إلى الحذر من الصديق حتى ذلك الذى انقلب إلى مناكف أو مكايد أو مهاجم فلا مخرج أمام اليساريين سوى توحدهم رغم اختلافاتهم ورغم تناقضاتهم . إذ يتعين عليهم أن يدربوا أنفسهم على تقبل الآخر اليسارى، وتقبل التعامل معه والتعاون والعمل المشترك معا، دون نسيان أسباب الخلاف فأنا ازعم أن أسباب الاختلاف مهما تراكمت سوف تزول أو تتناقص مع العمل المشترك وعبره. إذ نتواجه معا ضد الذى يناهضنا أو يعادينا، أى يناهض ويعادى افكارنا المشتركة.

أما الخصوم وهم كثيرون ويتغيرون بتغير الزمان فهم دوما موجودون. وأكثرهم بغاة ظالمون يتصيدون أى خطأ وأى قول من صديق مفترض نسى الصداقة والالتزام الفكرى وتطاول بما لا يليق. لكن الخصوم يبقون خصوما حتى دون إيعاز من أحد، فدعاة الظلم الاجتماعى تتولد فيهم بذرة العداء لنا فى لحظة مولد الانتماء إلى معسكر اعد ء الشعب وناهبى ثرواته واستنزاف دماء فقرائه. وكذلك دعاة الظلامية يولدون وهم فى عداء لما نقول به من استنارة وعقلانية. فهم يعرفون تماما خطر ما ندعو إليه على ما يدعون هم إليه ونحن نتقبل ذلك مدركين أن هذه طبائع الأمور، فلو لم يهاجموننا أو ينكروننا أو يقومون بالتعتيم على ما نفعل أو ما نقول، لكان ثمة خلل فى أدائنا إستمتع به خصومنا. نعرف ذلك ونتقبله ونصبر عليه.

اصبر على غيظ الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تاكل بعضها أن لم تجد ما تاكله

نصبر عليه مدركين أنهم بمناصبتنا العداء إنما يؤكدون لنا صحة ما نخوضه من صراع وصدق ما نتجه اليه من خطى.

ولقد يتقلب البعض معنا ثم ضدنا حسب إتجاهات الريح، وحسب الحاجة إلى مزيد من تملق الخصوم حكاما كانوا أوخصوما سياسيين فإذ نعتاد على بعض ابتسامات باهتة من البعض وخاصة الإعلاميين منهم، فإنها لا تلبث مع أول إتجاه نحو تقلب الموج أن تنقلب

ضدنا بضراوة تحاول أن تمحو آثار ابتسامة سابقة، فالبعض من مثقفى زماننا يمتلكون حاسة شديدة الحساسية فيسبقون هجوم السادة بهجوم منهم. ونحن نعرف ذلك ونتوقعه حتى وهم فى أوج محاولة التقرب منا. وندرك أن شيمة البعض أن ينقلب ويتقلب وفق الهوى والمصلحة.

لا تأسفن على غدر اللئام فطالما

رقصت على جثث الأسود كلاب

* * *

ولم يكن فى خطتى الأولى أن أتوقف أمام سيرة اشخاص بذاتهم. فقط أردت أن أصوغ رؤيتى للحدث التاريخى ، وأن أنقذ مفرداته من الضياع بفعل الزمن أو بفعل التعتيم المتعمد. لكننى صادفت وأنا منغمس فى بحث مضن ومصادر كانت خافية أو مخفاة عن عمد متعمد.

فعلى سبيل المثال كانت تعليمات قديمة إلى حد الصدأ لدى موظفى دار الكتب تقضى بمنع مجموعات الصحف اليسارية العلنية من الخروج من مخابئها وتطلب الأمر تحايلات وتآمرات ورشاوى كى أتمكن وبشكل سرى من مطالعة مجموعات صحف مثل الحساب- الجماهير- الملايين- الواجب- الكاتب- الغد وعديد غيرها ظلت مخفاة فى مخازن دار الكتب وممنوعة من التداول. وكذلك الأمر بالنسبة لمجموعات ملفات قضايا الحركة الشيوعية وأهمها موجودة بالمتحف القضائى فى دار القضاء العالى لكن الإطلاع عليها ظل ممنوعا، وربما جرى انكار وجودها أصلا، ولم يكن ممكنا الاطلاع عليها إلا بالاستعانة بعدد من طلابى فى جامعات أجنبية استعانوا بخطابات رسمية من جامعاتهم ومن ثم من سفاراتهم. وهكذا امكن اختراق حاجز ظل عصيا على الاختراق.

وعبر كل ذلك اكتشفت رموزا ذكرتنى براوية بيرانديللو «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» والتى تتحدث عن شخصيات ظلت تطارده لتفرض عليه أن يكتب عنها، أو مسرحية أورين شو «ثورة الموتى» حين نهض ضحايا أحد الحروب عبر سطور المسرحية رافضين أن يدفنوا وأن تدفن معهم حكاياتهم ورأيهم فى هذه الحرب، ومطالبين بحقهم فى التعبير، ولعل من حقى على القارئ أن أقول له بصدق أن كثيرا من رموز اليسار المصرى ظلوا يطاردوننى فى أحلامى وحتى فى صحوى فمحمد دويدار مثلا ظلت رحلته سائرا على

قدميه مقيدا بالحبال مربوطا فى حصان لجندى تركى يقتاده من اسطنبول حتى الحدود السورية، لأن القاضى امر بابعاده بعد أن اكتشفوا جواز سفره المزور، وقال فى حكمه بتغريمه أجر سفره هو وجنديين مع أجر عودة الجنديين فلما لم يجدوا معه مالا . كانت هذه الرحلة التى استغرقت أشهرا من السير على الاقدام يتغير خلالها الجندى والحصان وهو سائر على قدميه. هذا المناضل اليسارى المصرى عطشجى السكة الحديد الذى عاد رغم ذلك إلى مصر ليواصل نضالا مستمرا بلا تردد، ظل يطاردنى هو وعشرات غيره فى صحوى ومنامى ولم أجد سبيلا سوى الرضوخ لإرادتهم. والحقيقة أن قصة بيرانديللو لم تكن وحدها وإنما كان هناك ضميرى فهؤلاء الرجال والنساء هم المكون الأساسى للصورة العامة لليسار المصرى. انهم قطع السيراميك الرائعة الألوان والاشكال التى تكونت منها جدارية اليسار المصرى، ولم أستطع أن أتجاهلهم، ولم يكن بالإمكان الاستطراد فى ذكر نضالاتهم وحشوها فى متن الكتابة عن تاريخ الحركة ونضالاتها وعثراتها. ومن هنا كانت الحتمية فى كتابة مستقلة عن تاريخ هؤلاء المناضلين كل منهم على حدة ليس لأنهم يستحقون، ولا لأنهم يقدمون نماذج فريدة من التضحية والاصرار فى سبيل الوطن والمبدأ، وإنما لأنه بدون الحديث عنهم ستظل الجدارية الاسطورية لليسار المصرى ناقصة.

وهكذا صدر المجلد الأول من «مناضلون يساريون» (٦٤ مناضلا- ٤٦٢ صفحة) ثم يأتى هذا المجلد وحتى معه لا أكون قد أتممت الوفاء بما عاهدت نفسى عليه، بأن أظل طالما ظللت قادرا، ساعيا نحو استكمال سيرة ومسيرة هؤلاء الرجال، ليس فقط لنزهو بها وليتباهى بها أبناء الاجيال القادمة من اليسار المصرى وإنما لتكون درسا لنا ولهم ولكل المصريين.

ولا أملك بعد ذلك إلا أن اتطلع إلى أمد يمكننى من كتابة المجلد الثالث.. هذا آن كان هناك أمد.

رفعت السعيد

القاهرة مارس ٢٠١٢

يوسف صديق (١)

إنا وهبنا للجهاد نفوسنا
لا نبتغى رتبا ولا أطماعا
والمؤمنون المخلصون يزيدهم
ظلم الحوادث شدة وصراعا
يوسف صديق

ثمة أحداث جسام ترتبط بأشخاص عظام. بحيث لا يمكن الحديث عن الحدث إلا بالحديث عن الشخص فثورة يوليو مثلا لا يمكن الحديث عنها دون الحديث عن خالد محيى الدين ويوسف صديق وغيرهما من الصناع الحقيقيين للثورة.

ويوسف صديق فلاح ابن فلاح، ضابط ابن ضابط. فى ١٩١٠، ولد يوسف لأسرة عريقة فى قرية زاوية المصلوب مركز الواسطى بنى سويف. الأب ضابط فى الجيش يفيض حماساً مصرياً ضد تحكم الإنجليز فى الجيش المصرى، ويصطدم بالقادة الإنجليز الذين كانوا يتحكمون فى فرقته العاملة فى السودان، ويتوفى الأب ويوسف لم يزل فى عامه الأول، ويكفله خاله اليوزباشى محمد توفيق على وهو أيضا ضابط ثائر على الإنجليز وانتهى به الأمر إلى أن ألقى باستقالته فى وجه الجميع ليبقى مزارعا فى زاوية المصلوب. ولم ينس يوسف أبداً الحكايات والحوارات التى ظل خاله يرددها على مسامعه طوال فترة طفولته وشبابه عن الإنجليز واضطهادهم لضباط الجيش المصريين، ورغبتهم فى الاستمرار فى التحكم فى الجيش وقياداته واضطهاد أى ضابط وطنى.

ونواصل رحلتنا مع يوسف.

١٩٤٤ يتم دراسته الإبتدائية ثم يرحل إلى القاهرة ليصبح طالبا فى الخديوية الثانوية فى زمن تفجرت فيه مظاهرات عنيفة ضد الاحتلال وعملاء الاحتلال. ويوسف ينغمس فى ذلك كله.

١٩٣٠ ينهى يوسف دراسته الثانوية، يتذكر الثأر الكامن فى أعماقه ثأر أبيه وخاله، وثأر مصر، وينضم إلى المدرسة الحربية.

١٩٣٣ يوسف ضابطا فى الجيش.

ويتميز الضابط الشاب بحماسه وجديته وأيضا بأنه شاعر القوة التى يخدم فيها. وعندما يصدر قرار ظالم بإحالة الأميرالاى سليمان عبد الواحد شبل إلى الاستيداع يقيم يوسف وزملائه حفل وداع ويدهش الجميع عندما يشدو الضابط يوسف صديق بشعر ثورى شجاع فيخاطب المحتفى به قائلاً

يا صاحب القلب الكبير تحية
فلقد بدأت ولا أقول وداعا
حررت من قيد الوظيفة فإنطلق
حرا، وأطلق للكفاح شراعا
عار الوظيفة أن تضام بها إذا
كنا الرجال ولم تكن أتباعا
ونفوس أهل الحق تأبى حره
وكريمة أن تشترى وتباعا

ويتحدث يوسف صديق عن مسيرته قائلاً «بدأت بالاتصال بالإخوان لكننى تركتهم لجمودهم العقائدى الذى لا يرضى ما أخذت به نفسى من ثورة ولم يدم إتصالى بهم أكثر من شهور. ثم اتصلت بالشيوعيين وكنت مقدراً لدور الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت علاقتى الحزبية مع الضابط أحمد حمروش أحد ضباط المدفعية فى «حدتو» وقد أعجبنى فى الشيوعية أنها تغرس حب العدل فى النفوس وتعمل لتحقيق السلام على الأرض، وإقامة المحبة والتعاون بين الناس فهى لا تفرق بين الناس لأنسابهم ولا أحسابهم وإنما تعمل على إلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، ولم أشعر ولو للحظة أن تطبيق هذه المبادئ يتعارض مع عقيدتى الدينية. فقد داس الإسلام تيجان الأباطرة والاكاسرة بأقدام الشعوب (أحمد حمروش - شهود وثورة يوليو - صـ ٤٣٣) . وفى حوار له معى حكى لى «بعد اعتقال عديد من قيادات حدتو فى نهاية الأربعينيات كلفت بطباعة المنشورات فى بيتى بثكنات الضباط فى العباسية باعتبار أن هذا مكان آمن من هجمات البوليس.

وكنت أكتب البيانات بخطى على البالوظة ثم أطبعها أنا وعليه (زوجته المناضلة علية توفيق) ، وكنت أتأفف وأسأل عليه «هى الثورة حتتعمل كده؟، تبتسم عليه وأبتسم ونواصل العمل» (محضر نقاش أجريته فى ١٩٦٨/٨/٣).

لكن يوسف يعبر عن رأيه فى مدى إمكانية تحرير الوطن بالبيانات قائلاً:

ضعوا الأقلام وامتشقوا الحساما .. فرب السيف قد حمل الوساما

وقولوا للذى يرجو خلاصا .. بتنميق الكلام كفى كلاما

ومن نادى بغير الجيش يهذى .. وعن نور الحقيقة قد تعامى

ولعلها المحاولة الأولى لإدارة صراع فكرى داخل تنظيم شيوعى .. شعراً

ويمضى يوسف صديق فى أحاديثه الثائرة فى ميسات الضباط بما لفت أنظار عبد الناصر إليه وبدأ الأتصال به، فأرسل إليه الضابط وحيد رمضان وكان تلميذا له فى الكلية الحربية ليحذره من أن «الحرس الحديدى» يرصد اجتماعات يعقدها فى منزله. وبعدها عرض عليه وحيد رمضان الانضمام للضباط الأحرار وتأخر رد يوسف صديق حتى يستأذن التنظيم وتلقى الموافقة بشرط ألا يكشف عن عضويته بحدتو. والمثير للدهشة أن عبد الناصر لم يعرف أن يوسف صديق شيوعى إلا بعد الثورة. وبعد أن أصبح يوسف عضوا فى مجلس قيادة الثورة.

ونواصل مع الفارس الذى اسماه زملاؤه رب السيف والقلم. وهو ذات الأسم الذى أطلق على البطل محمود سامى البارودى أحد قادة ثورة عرابى.

يوسف صديق (٢)

.. «وبعد الثورة بأيام أقام القاضى أحمد فؤاد وكان مسئول قسم الجيش فى حدتو حفل عشاء محدود فى بيته ودعا إليه عددا من قيادة الثورة.. وكمال عبدالطيم. دخل كمال عبدالطيم واحتضننى وقبلنى وقال إزيك يا أبوحجاج، والتقطت العينان اليقظتان لعبدالناصر هذه المصافحة، ويومها فقط أدرك جمال أننى شيوعى»
يوسف صديق «فى حواره معى»

٢٣ يوليو.. كان يوسف صديق قد أصبح قائمقاما وكان أعلى الضباط الأحرار رتبة باستثناء محمد نجيب الذى لم يكن له علاقة مباشرة معهم، كان قائدا للكتيبة الأولى مدافع ماكينة، وصدر الأمر بنقلها من العريش إلى القاهرة، فكانت الفرصة الذهبية للضباط الأحرار. لكن يوسف ما لبث أن سقط مريضا فور وصوله مع طلائع الكتيبة، كان مريضا بصدره وآلام لا تطاق والدم ينزف من فمه، زاره عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فى بيته يوم ٢٠ يوليو فزعا من حالته وقال جمال: «يا خسارة لن تستطيع أن تشارك معنا» لكنه أصر على المشاركة فكل أحلامه وأحلام أبيه وخاله وأحلام تنظيمه توشك أن تتحقق، وفى ليلة ٢٣ يوليو حقنه الطبيب ليوقف النزيف وتحرك بقواته ليحقق الحلم، وفيما هم يتحركون قابلهم قائد الفرقة اللواء عبدالرحمن مكى، وهنا أصبح الخطر يهدد كل شىء، فالقائد الأعلى رتبة أمره مطا ع، وفجأة أخرج يوسف صديق مسدسه وأشهره فى وجه اللواء وقال ببساطة واحترام «سيادة اللواء أنت مقبوض عليك».

وقبض عليه، فى حوارى معه سألته: كيف فعلتها؟ فأجاب لو ترددت دقيقة واحدة كان اللواء سيصدر أمرا وسيطيعه الضباط الصغار أو سيترددون وتفشل الثورة، وفى الطريق ألقت قواته القبض على جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر بملابسهما المدنية وأخلى هو سبيلهما ليعودا إلى البيت لارتداء الملابس العسكرية، وفى ذات الحوار سألته: ألم تفكر فى أن تستمر فى القبض

عليهما وتتولى أنت قيادة الثورة؟ فنظر إلى غاضبا وقال «يا رفيق نحن شيوعيون ولسنا أوغادا» ويمضى يوسف صديق فى حواره «وعلمت من جمال وعامر أن قادة أركان الجيش مجتمعون فى مبنى القيادة العامة المجاور وأن أمر الثورة قد كشف وقلت لهما: العجلة دارت خلاص ولا تراجع وإذا كانوا فى مبنى القيادة فأنا ذاهب إليهم» وذهب وأوقعهم جميعا فى المصيدة وقبض عليهم جميعا، وعلى مكتب القائد العام للقوات المسلحة جلس يوسف صديق ليدير عملية الاستيلاء على السلطة، وبعدها حضر جمال عبدالناصر وببساطة وقف يوسف صديق وأجلسه مكانه.

وأتأمل المفارقة، يوسف أنجز جزءا مهما من المهمة، وهو أعلى رتبة من جمال ولكنه وقف وأسلمه زمام القيادة وأسأله كيف فقال: «تعلمت فى حدتو أن أحترم المسئول حتى لو كان أصغر سنا أو مكانة وتعلمت أن أحترم العهد وأن أتصرف بأخلاق وأنا لم أكن أسعى إلى سلطة أو منصب فقط كنت أسعى لتحرير شعبى ووطنى».

لكن التصادم يأتى سريعا فقد طالب يوسف بحكومة ائتلافية مدنية وانتخابات حرة وديمقراطية كاملة، ودستور جديد يكفل للمواطنين حقوقهم.. وبعدها يعود الجيش إلى الثكنات، وتهكم عليه واحد من أعضاء مجلس الثورة «وكان جمال قد أبلغهم أن يوسف صديق شيوعى» فقال له: أنت عاملى فيها يوسف ستالين، ولم يجد يوسف أمامه سوى دواية الحبر فقذفها فى وجهه.. وبدأ الصدام الحاد.

ونحى يوسف صديق من مجلس قيادة الثورة فى إطار حملة ضارية قادها الحكم ضد الشيوعيين، وفى أواخر ١٩٥٣ بدأت الضربات تتوالى، قضايا يقبض فيها على أعداد كبيرة وغير مسبوقة، واختفى الناجون من أعضاء القيادة، ووجدنا نحن أعضاء رابطة الطلبة الشيوعيين – حدتو – أنفسنا وحدنا وبلا قيادة، لكننا واصلنا عملا نشطا، وذات يوم اتصل بى زميل كان فى خلية بحقوق عين شمس ليقول: إنه على علاقة بشخص قريب يوسف صديق وأنه طلب منه أن يرتب لقاء مع المسئول، وأصابتنى حيرة، فنحن لم نجد أى سبيل للاتصال بمسئولين فالجميع مختفون إذ كنا أعضاء فى تنظيم مستقل تقريبا هو رابطة الطلبة الشيوعيين، والمسئول عن هذه المجموعة من الطلاب هو أنا، وقلت الحقيقة للزميل فنقلها، ليعود ويقول هو يريد مقابلة مسئول المجموعة الطلابية، وقابلت أنا الطالب فى السنة الثانية حقوق، هذا القائد المهيب، وكان مهيبا فى الأداء والسمعة والخبرة وأيضا فى الشكل، تمشى البطل فى الحجرة ذهابا وإيابا، وبدأ الحديث..

«عبدالناصر يستعد لتوقيع اتفاقية الجلاء ويود أن يضمن تأييدا من حدتو التى كانت تسعى بنشاط لتكوين الجبهة الوطنية الديمقراطية، أو حتى تهدئة فى معارضتها للاتفاقية وكبداية للمصالحة عرض على يوسف صديق أن يكون سفيرا فى الهند ليدرس ما يدعو إليه نهرو من سياسة غامضة اسمها «الحياد الإيجابى» وفيما يغادر يوسف لم ينس عبدالناصر أن يلوح بالعصا الغليظة فقال ليوسف وهو يبتسم وكأنه فى حالة هزار «قول لعلية تبطل نشاط وإلا سأعتقلها».

استمعت للرواية وزدت حيرة وخوفا أما الإجابة التى قلتها فكأنها كانت رسالة استفزاز، قلت أنا لا أملك رأيا فى أمور معقدة كهذه ولكن اعتقد أن الحل هو أن تقول لعبدالناصر قادتنا فى السجون أفرج عنهم وتشاور معهم، وبالطبع غضب عبد الناصر. ودارت ماكينة الإرهاب أكثر فأكثر وحددت إقامة يوسف وسجنت زوجته علية، ورد عليهم يوسف بقصيدة يذكرهم فيها بأنهم كانوا فى قبضته يوم الثورة وأنه بأخلاقياته أفرج عنهم، أما هم فقد خانوا كل العهود وحتى زوجته سجنوها. وعندما كان عدوان ١٩٥٦ ترك منزله رغم الإقامة الجبرية ودون إذن من أحد، فالوطن يناديه، وذهب إلى غرفة العمليات بثيابه العسكرية واضعا نفسه تحت إمرة من قيدوا حريته.

وفى ٣١ مارس ١٩٧٥ آن للفارس المهيب والقائد الشجاع أن يرحل، ولكن هل يرحل حقا أمثال يوسف صديق؟

محمد يوسف الجندى (١)

كان هذا الفتى نموذجا غريبا، باع كل ما ورثه عن أبيه وسلم ثمنه للتنظيم من أجل شراء مطبعة سرية، إنه نموذج لا يتكرر إلا عند الرهبان إذ يهبون كل ثروتهم للكنيسة وبعدها يبدأون مسيرة الرهبنة.

جيل بيرو فى كتابه «رجل من طراز فريد» متحدثا عن محمد الجندى

كما يعرف الجميع هو ابن هذا الرجل الذى اشتهر فى تاريخ مصر الحديثة بأنه «إمبراطور زفتى». ففى خضم ثورة ١٩١٩ نشأت موجة ثورية ترفض الخضوع لسلطة الحكم العميلة للاحتلال، أو الخضوع للاحتلال نفسه، ومن ثم أعلنت استقلالها، ولم يكن هذا نزوعا نحو تقسيم الوطن وإنما كان إشهاراً لرفض الخضوع للاحتلال وعملائه، ففى المنيا والمطرية وزفتى أعلنت جمهوريات تحت قيادات محلية، وكان يوسف الجندى هو مفجر الثورة فى «زفتى» ورئيس مجلسها الثورى ويصبح الثورى الشاب فيما بعد نجما وفدياً لامعا ووكيلا لمجلس الشيوخ ووزيرا. ومع رحيله ترك ثروة متواضعة نال محمد منها ١٦ فدانا وعددا من السندات، لكنه ترك له ما هو أهم، ذخيرة لا تفنى من عشق الوطن والشعب.

وفى مدرسة الإبراهيمية الثانوية تقابل محمد مع تيار يسارى تواجد فى هذا المناخ الذى تشكل على طلقات مدافع ستالينجراد ضد غزو النازى وبدأ فى دراسة الأفكار الاشتراكية. عثر على نسخة من دستور الاتحاد السوفيتى وانبهر بعبارات مثل «حكم العمال والفلاحين» «الاشتراكية» «حرية الشعوب» وأمسك قلما وكتب مقالا فى مجلة وفدية اسمها «الشعلة» تحدث فيه عن الاتحاد السوفيتى ودستوره وأكد ويا للغرابة أن نهاية النازى ستكون على يدى دولة العمال والفلاحين وتكونت شلة من الأصدقاء تحكى، وتحكى عن الاشتراكية وعن العدل وعن الاستعمار لكن الأمور ظلت بالنسبة له غامضة، أما الشلة وهى مكونة من محمد وأخاه أحمد وجمال العطيفى وعبدالقادر العايدى، وبعد حديث طويل

عن العمال قرر الأربعة أن يشتغلوا فى الإجازة الصيفية كعمال وسافروا جميعا إلى زفتى ليعملوا هناك، لكنه لم يكتف بالعمل اليدوى الشاق بل كون جمعية للنهوض بزفتى، وفى النادى نظم سلسلة من المحاضرات ثم ألقى عدة محاضرات فى مقر شعبة الإخوان ومع بدء العام الدراسى عادوا إلى القاهرة لكن محمد واصل هواية إلقاء المحاضرات فى أى مكان متاح، وفى شعبة الإخوان بحى السيدة زينب تألق فى سلسلة محاضرات عن «العدل الاجتماعى فى الإسلام» والعين اليقظة تلتقطه وتحدد له موعدا مع حسن البنا الذى حاول ضمه للإخوان لكنه أفلت من بين يديه متحصنا بالملامح اليسارية التى سمعها من أبيه وبالمناقشات السياسية فى المدرسة، وعندما وصل إلى التوجيهية (العام الأخير فى المرحلة الثانوية) أسس جمعية البعث الاجتماعى ويكون أول بند فى برنامجها «إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج» ويلاحقه الإخوان فيقنعونه بإضافة بند عن «تطبيق الشريعة» لكن يعود فيفلت منهم ويصل عدد أعضاء جمعيته إلى ثلاثين عضوا منهم فؤاد محيى الدين، طبعوا البرنامج بقروش المصروف اليومى ووزعوه فى الجامعة والمدارس، وذات يوم دعاه صديق قديم هو محمد زكى هاشم ليستمع إلى محاضرة له عن «الملكية الزراعية فى مصر». ذهب محمد وجماعته وللمرة الأولى يستمعون إلى منطق اشتراكى متسق ومتكامل، وكان محمد زكى هاشم عضوا فى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح. م) ودعاهم إلى محاضرة أخرى فى «لجنة نشر الثقافة الحديثة» فذهب هو وأخوه أحمد وجمال العطيفى وهناك التقوا بسعيد خيال ونعمان عاشور ومصطفى كامل منيب وأنور عبدالملك، ثم دعوه إلى محاضرة أخرى فى ناد آخر هو «دار الأبحاث العلمية» وهناك التقى بشهدى عطية وعبدالمعبود الجبيلى، ومضى محمد الجندى كالمسحور، اجتذبه وهج الشمس الجديدة التى أشرقت فى وجدانه، فثمة كتب ماركسية باللغة الإنجليزية يجرى تداولها بحذر شديد، وحلقات حوارية تناقش قضايا جديدة عليه تماما: الفلسفة المادية التاريخية والمادية الجدلية، الاقتصاد السياسى، وهج الفكر الجديد اجتذبه تماما، نسى كل شئ إلا هذا الوهج فاندفع معه وبه إلى أقصى مدى وبعد أربعة أشهر دعاه شهدى عطية إلى لقاء خاص وعرض عليه أن ينضم إلى منظمة إيسكرا «شرارة» قاطعه محمد قبل أن يكمل الجملة مؤكدا موافقته ومتسائلا لماذا انتظرتم كل هذه المدة، واستقر الحلم فى قلبه وعاش من أجله حتى آخر نسمات الحياة.

كان ذلك فى عام ١٩٤٥، وكانت الحركة الوطنية تلتهب وتتصاعد معها إرهاصات العمل الوطنى ضد الاحتلال وضد القصر الملكى، كان محمد ينشط بحماس ولكن بحذر أما أخوه أحمد فكان حماسه أقل وبلا حذر فتعلقت أنظار الأمن بأحمد، وكان بيتهما فى شارع معمل البارود بقصر العينى مكانا لعشرات من الاجتماعات، وكان المقر الذى تأسست فيه النواة القيادية «للجنة الوطنية للطلبة والعمال» بينما كانت الاجتماعات الموسعة تعقد فى ملاعب ومدرجات كلية الطب، وذات يوم فوجئ محمد بحوالى مائتين من العمال يحتشدون فى مدخل البيت ليعقدوا اجتماعهم عنده، كانوا يعتزمون عقد اجتماع للهيئة التأسيسية لاتحاد العمال لكن الأمن طاردهم فتواعدوا والتقوا ثانية حيث قادهم أحد الرفاق إلى بيته.

وكان الأمن قد ضاق ذرعا بهذا النشاط وبتحويل منزل يوسف بك الجندى إلى محل لمقابلات تنظيمية وتجمعات عمالية لكن ذلك كله كان منسوبا إلى أحمد وليس إلى محمد، وفى حملة ١١ يوليو ١٩٤٧ التى شنها الطاغية صدقى ضد كل قوى التقدم واليسار صدر أمر بالقبض على أحمد فاختفى ومن قبيل الاحتياط اختفى معه محمد وعاشا هاربين فى بيت صديقهما القديم جمال العطيفى.

ونواصل المسيرة مع محمد الجندى.

محمد الجندى (٢)

عندما هربت من قصر العينى، طلب البوليس من أسرتى صورة لينشرها فى الصحف ليطلب إلى المواطنين الإبلاغ عنى لكن أخى أحمد أعطاهم صورتى وأنا فى الثالثة من عمرى.

محمد الجندى فى حوارى معه

.. وعندما تتم الوحدة بين ايسكرا وح. م وتتأسس منظمة حدتو عام ١٩٤٧ أصبح محمد مسئولا عن قسم المثقفين، وعندما تم تأسيس قسم جديد للأقاليم ضمت قيادته كلا من محمد الجندى وفؤاد عبدالحليم وحمدى عبدالجواد وبهاء فهمى وإبراهيم المناسترلى.. وكلف محمد الجندى بالعمل فى منطقة بحرى، ترك الأسرة والبيت وتبرع بميراثه كاملا للتنظيم وترك الكلية (وكان طالبا فى الليسانس) وأصبح محترفا وقضى أيامه هاربا متنقلا بين خلايا التنظيم فى قرى بحرى، تنقل بين قرى عديدة ومساكن عديدة فى الزقازيق وطنطا وزفتى، وجند وهو هارب عديدا من زملائه القدامى فى الدراسة مصطفى درويش «الناقد السينمائى الشهير» وإبراهيم خلاف وبهى الدين الرشيدى «أصبح سفيرا فيما بعد» وفيما هو يتردد على القاهرة بحثا عن زملاء جدد قبض عليه وما أن أفرج عنه حتى هرب مرة أخرى فى هذه الأثناء اتصل النقراشى باشا (كان آنذاك رئيسا للوزراء) بأسرته طالبا مقابلته لعله يقنع ابن زميله القديم يوسف بك الجندى، لكن أسرته لم تكن تعرف له عنوانا، وأخيرا قبض عليه، النقراشى قتل، والأحكام العرفية معلنة وأوامر الحبس مطلقة، تنقلوا به بين سجون عدة وأخيرا قدموه للمحاكمة أمام أكثر المستشارين قسوة «المستشار حسين طنطاوى» وأخيرا أيضا اتصل بأسرته، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الشغل، الأسرة تدخلت مستعينة بتاريخ الأب فنقل إلى قصر العينى، ثورة يوليو تأتى ولم تقبل الإفراج عنه وعن زملائه، نظمت حدتو هروبه هو وشريف حتاتة. شريف

سافر مباشرة إلى بورسعيد ومنها هرب إلى الخارج، هو بقى فى القاهرة ليقيم فى بيت صلاح حافظ ثم يوسف إدريس ثم الضابط أحمد حمروش، ثم إلى بيت الضابط عثمان فوزى الذى اصطحبه إلى بورسعيد ومستعينا برتبته الرفيعة فى سلاح الفرسان أمكنه أن يهربه إلى إحدى السفن، خبأه البحار المنوط بتهريبه فى قاع المركب لمدة ١٤ يوما حتى وصل إلى مارسيليا، وهناك جرده البحار من كل شئ النقود وحتى الساعة والجوانتى ثم أركبه القطار إلى باريس ليجد الرفيق يوسف حزان فى انتظاره وأقام فى منزل أحد رفاق المجموعة المصرية التى كانت تتخذ لها اسما حركيا هو مجموعة روما. هو فى باريس هارب، بلا أوراق، انتسب إلى مدرسة أليانس فرانسيز ليحصل منها على كارنيه طالب وليحصل أيضا على وجبات طعام رخيصة فى مطعم الطلبة وتفرغ بقرار من المجموعة لدراسة اللغة الفرنسية والترجمة، فترجم كتاب الديمقراطية الجديدة لماوتس تونج وعديدا من الكتب الماركسية، ومضت الأيام هو يترجم ويوسف حزان يكتب على الاستنسل ثم يطبع مئات النسخ لتقوم المجموعة بتهريبها إلى مصر، وأخيرا قبض عليه «هارب بلا أوراق» كان رفاقه قد لقنوه فى البداية لا تتكلم إلا أمام قاضى التحقيق، وأمام القاضى حكى حكايته وأمر القاضى بإيداعه فى السجن وكان واحدا من أسوأ السجون الفرنسية لا تختلف مرارته عن مرارة السجون المصرية، وأخيرا نجح رفاقه فى أن يحصلوا له على حق اللجوء السياسى فى المجر وهناك أصبح عضوا فى السكرتارية الدولية فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى، لكن الحركة الشيوعية العالمية كانت تصمم على اعتبار ثورة يوليو انقلابا أمريكيا وهو يصمم على موقف حدتو التى تعتبرها حركة وطنية معادية للاستعمار، هو اختلف مع المسار العام، فهل يمكن الاختلاف مع المسار العام؟ طرد من السكرتارية الدولية، فانضم للجامعة ليدرس اللغة الروسية واكتفى بمرتب الطالب، وأخيرا تلقى قرارا بالعودة إلى مصر، فسافر إلى ألمانيا الديمقراطية وهناك التقى بيوسف حلمى وزوده يوسف بجواز سفر مزور سافر به إلى برلين الغربية ومنها إلى جنيف حيث أقام لوقت فى منزل خالد محيى الدين الذى كان منفيا هناك واصطحبه خالد إلى باريس بسيارته ومن هناك اصطحبه يوسف حزان إلى روما ومنها إلى الخرطوم حيث دبر له الرفاق السودانين جواز سفر سودانيا مزورا، وبالقطار إلى القاهرة حيث أقام فى بيت فاروق ثابت، وإذ تلتهب مصر حماسا ضد العدوان الثلاثى تدرب على حرب العصابات،

وانتقل إلى منطقة القنال، وإذ ينتهى العدوان يرسله التنظيم إلى الدقهلية التى كانت أهم المناطق الحزبية، وقرر أن يتزوج، ولكن كيف لهارب بلا أوراق أن يتزوج؟، الزوجة وافقت.. فقط لا تقولوا لأبى أنه هارب، تقدم للأسرة باسم محمد يوسف أحمد وأنه خريج حقوق (تخرج من الكلية عام ١٩٦٥ متأخرا ١٧ عاما) وأنه مدير بشركة أفلام النور وهى شركة حزبية للأفلام السينمائية، زاره الأب هناك أخلوا له المكتب ومثل دور المدير تم الزواج بعد أن التف صلاح جاهين وسيد مكاوى حول الأب والمأذون معا ليمررا زواجا بلا بطاقة شخصية لكن الأب المتشكك سأل فى كلية الحقوق ولم يجد خريجا باسم محمد يوسف أحمد، وهدد بإبلاغ البوليس فحكوا له الحكاية كاملة ورضى الأب، ثم تأتى عاصفة يناير ١٩٥٩ حيث قبض على مئات الرفاق، هو أفلت وأخفاه فاروق ثابت فى منزل المخرج توفيق صالح ليواصل العمل لتجميع الرفاق ويقبض عليه فى مايو ١٩٥٩، ويقدم للمحاكمة أمام المجلس العسكرى العالى برئاسة الفريق هلال عبدالله هلال قائد سلاح المدفعية، ويترافع عنه صديق الطفولة د. جمال العطيفى وينتزع له حكما بالبراءة ومن سجن الإسكندرية يرحل مع المتهمين بعد انتهاء المحاكمة إلى أبى زعبل حيث حفل الاستقبال الوحشى الذى استشهد أثناءه شهدى عطية، ومن هناك إلى سجن الواحات حيث بقى معتقلا ليفرج عنه مع الجميع فى ١٩٦٤.

قضى الفترة من ١٩٤٨ و١٩٦٤ إما هاربا أو سجينا، وأخيرا عاد إلى حياة الإنسان العادى ويعيش مع الزوجة والابن يوسف الذى ولد وهو فى السجن، وبمائة جنيه أسس مكتب يوليو للترجمة والنشر، ثم تغير اسمه إلى دار الثقافة الجديدة ليسعى جاهدا من أجل نشر الثقافة الماركسية والتقدمية، توظف فى وكالة أنباء الشرق الأوسط وفى ١٩٦٩ سافر إلى موسكو ليعمل مترجما فى دار التقدم حيث ترجم عشرات الكتب الماركسية، ومن هناك عمل مراسلا لجريدة الأخبار ومن موسكو إلى هلسنكى ليعمل سكرتيرا فى مجلس السلام العالمى ثم إلى براغ ممثلا للحزب فى مجلة السلم والاشتراكية، ثم يعود إلى القاهرة عام ١٩٧٧ لينشط وبحماس فى حزب التجمع.

كان قد أرسل طلب انضمام منذ اليوم الأول لتأسيس منبر اليسار.. ويبقى مناضلا حتى آخر نسمات الحياة.

جابر المعايرجى

تعلمت الماركسية على يدى لاعب سيرك.
جابر المعايرجى «فى حوارى معه»

القصة غريبة ولابد أن تحكى، ففى بدايات القرن الماضى، كانت مصر تمتلك سيركا شهيرا ورائعا اسمه «سيرك عمار» وكان السيرك يتجول برجاله وبناته وحيواناته والأخشاب التى تتكون منها مبانيه بين مختلف مدن مصر، وأيضا البلدان المحيطة، وفى جولة عالمية سافر السيرك إلى فلسطين فالشام فتركيا ثم إلى روسيا القيصرية، وبينما هم هناك اشتعلت الحرب العالمية الأولى فحوصروا هناك، وتجولوا فى أنحاءروسيا ليزرعوا هناك فنون وتقاليد السيرك التى ترسخت فأنجبت الإبداع الروسى فى فنون السيرك، ومع لاعبى السيرك كان هناك فتى خفيف الحركة وخفيف الظل لماح فى التقاط الحركات اسمه «عمر» وأثناء فترة طويلة قضاها السيرك فى الأقاليم الإسلامية فى روسيا أطلقوا عليهم عمروف، وعندما اندلعت ثورة أكتوبر ١٩١٧ شارك فيها بحماس شديد حتى أصبح كادرا سياسيا فى الحزب البلشفى وتزوج من راقصة باليه شهيرة وبقى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كبر السن انتزعه من السيرك، وأخيرا عاد إلى مدينة الإسكندرية، وافتتح محل مكوجى، الرجل الثرثار والذى لا يكف عن الحكايات كان يجلس على عتبة محله ليحكى للأصدقاء والزبائن قصصا تشبه الخرافات عن الاتحاد السوفيتى وكيف أقام صروح الصناعة وكيف هزم النازى وبطولات ستالينجراد، يكوى طول النهار ويتحدث وهو يكوى والناس تلتف حوله مليئة بالإعجاب، وتحولت المجموعة إلى ما يشبه التنظيم، والتقت بشكل هامشى مع الموجة الماركسية الجديدة فى الإسكندرية ومع بداية توزيع المنشورات الشيوعية فى الإسكندرية تصور الأمن أنه «عمروف» فقبضوا عليه، وظل يروى حكاياته للنزلاء فى سجن الحدرة.

وكان هناك فتى اسكندرانى يتفجر ثورية وفى عام ١٩٤٦ شارك فى المظاهرات وقبض عليه وفى سجن الحدرة لقنه عمروف مفردات الحلم الماركسى هو جابر المعايرجى، لكننا يتعين أن نعود إلى البداية ففى عام ١٩٤٢ كان فى الخامسة عشرة من عمره وكانت الإسكندرية تموج غضبا بسبب الوجود الإنجليزى المكثف هناك وفيما كان روميل فى العلمين مستعدا لدخول الإسكندرية تحركت المجموعة السرية المسماة «الفدائيون» والتى أسسها أحمد مصطفى وجابر وغيرهما لمحاربة الإنجليز، وزعوا منشورات كثيرة، ثم بدأوا فى اصطياد الجنود الإنجليز وضربهم حتى الموت ثم قنابل ومسدسات وتفجرت قنابلهم فى كلية فيكتوريا التى تحولت إلى معسكر للقوات الإنجليزية ثم فى المعهد البريطانى ثم النادى البريطانى فى محطة الرمل، وانضموا إلى مصر الفتاة لكنهم ظلوا محتفظين بتنظيمهم السرى، وفى ٤ مارس ١٩٤٦ وفى معركة محطة الرمل أصيب برصاصتين واحدة فى رأسه وأخرى فى رجله وعندما شفى سيق إلى سجن الحدرة حيث التقى بعمروف، وعندما أفرج عنه التقى بطالب طب هو عثمان طلبة الذى سلمه لطالب طب آخر هو حمزة البسيونى، وفى ٥ أبريل كان إضراب ضباط البوليس ونظمت «حدتو» مسيرات كبيرة دعما لهم، الجماهير تحمل ضباط بوليس وضباط البوليس يحملون شيوعيين والجميع يهتفون «الخبز والحرية للشعب» و«يسقط الملك»، النار أطلقت عليهم بكثافة سقط ١٤ شهيدا وقبض عليه، واستمر «جابر» مناضلا لا يهدأ وفى عام ١٩٥٤ كلف بإعادة بناء قسم الرمل، أعطوه عنوانا فى شارع إدفو، هو منزل الشيوعى العجوز د. حسونة وكان فى السجن. الموعد بعد منتصف الليل، دق الباب استقبله حسين الابن الصغير والابنة زهيرة، والأم، وبعد قليل دق الباب ودخل الأمن همست زهيرة فى أذنه قول إنك خطيبى «بعدها قالت له إنها قرأت هذه الحيلة فى رواية فرنسية عن إحدى بطلات المقاومة المسلحة للنازى»، وانتهى التفتيش بالقبض عليهم جميعا ولفترة تالية كان الأب والأم والابنة والخطيب الوهمى والابن جميعا فى السجن، وبعد الإفراج سألها هل يمكن أن نجعل هذه الكذبة حقيقة؟ وتزوجا، هى كانت مسئولة العمل النسائى فى حدتو، وهى وأمها تنظمان زوجات وبنات المعتقلين فى مظاهرات صاخبة. لكننا بهذا نقفز على واحدة من أهم مراحل نضاله، ففى عام ١٩٥١ أرسلته حدتو إلى الإسماعيلية ليشارك فى معارك الفدائيين معتمدا على خبرته فى قتال الانجليز فى شوارع الإسكندرية، ثم تحترق القاهرة وتكون ثورة يوليو.. ويقبض عليه من جديد ليفرج عنه عام ١٩٥٤.

ورغم الضربات البوليسية المريرة استمر النشاط، وتشكلت لجنة منطقة من جابر وعلى نجيب ومحمد بسيونى ومحمد عويضة وزهيرة، وكان المسئول المركزى صلاح حافظ وتولى جابر مسئولية قسم كفر الدوار، وفى هذه الأثناء جند موظفا بإحدى القنصليات كانت مهمته الطباعة على الرونيو فطبع كل نشرات ومنشورات حدتو بأمان تام، ونشط العمل الجبهوى بالإسكندرية رغم كل هجمات الأمن، ورتبت الجبهة ذهاب النحاس لصلاة الجمعة فى مسجد أبوالعباس حيث اشتعلت مظاهرة ضخمة انتهت بتحديد إقامة النحاس والقبض على كثيرين ومنهم المسجون الدائم جابر، وإذ يفرج عنه يساومه الأمن أين يخبئ الرونيو والأرشيف الخاص بحدتو، ويرفض الإجابة فيرسل إلى معتقل المنيا، وأسأله كيف حافظت على هذا المخبأ طوال سنوات عديدة دون أن يصل إليه الأمن؟ فيقول كان معنا رفيق نوبى اسمه عبده عمران ومنعته من أى اتصالات حزبية وكان يعمل سفرجيا فى قصر المليونير سلفاجو «الابن» وفى قبو القصر كان المخزن، ويتم كل شىء أثناء السهرات الصاخبة التى لا تنقطع، والقبو هو المملكة الخاصة لعم عبده السفرجى، ومن المفارقات الغريبة أن هذا القصر أصبح فيما بعد مقرا لمباحث أمن الدولة بالإسكندرية، ويمضى جابر من سجن إلى سجن ويفرج عنه ١٩٥٦ ليقبض عليه من جديد فى ١٩٥٩ ليخرج مع الدفعات الأخيرة من المعتقلين.. وعندما يتأسس التجمع يكون فى الإسكندرية مع أوائل المؤسسين، ويظل كما كان صلبا ولا يهدأ حتى يرحل.

أحمد مصطفى

عندما قامت ثورة يوليو كنت فى السجن بتهمه العيب فى الذات الملكية، والشاهد على فى القضية كان ضابطا طرده ضباط يوليو من الخدمة بتهمة العمالة للقصر الملكى وللاحتلال، ومع ذلك أتوا به شاهدا وأخذت المحكمة بشهادته وحكمت على بالحبس عامين.
أحمد مصطفى (فى حواره معى)

الأب كان نجار باب وشباك، ولكن الفقر كان يلاحقه بحيث يصبح الخبز شحيحا، وقد يمضى عليهم اليوم بلا طعام فتأخذهم الأم إلى أختها بحجة زيارتها، والهدف الحقيقى هو أن يجد الأطفال بعضا من طعام. ومع ذلك يحاول الأب أن يدفع الابن إلى الدراسة لعله يفلت بجلده ويفلتهم معه من الجوع.

ومن كتاب الشيخ ياقوت إلى مدرسة الجمعية المصرية الخيرية الأولية ثم مدرسة مبروك الابتدائية، يمضى الفتى سريعا ومتفوقا حتى امتحان الشهادة الابتدائية والمطلوب خمسون قرشا رسوم الامتحان، الأب استسلم فالخمسون قرشا صعبة المنال، لكن أحمد صمم وعاند وذهب إلى خالته وأتى بالخمسين قرشا وامتحن ونجح وقفز إلى مدرسة المرقسية الثانوية حيث نجح فى الحصول على نصف مجانية، ثم تأتى الحرب العالمية الثانية وتحت وطأة الغارات الجوية التى تكثفت على الإسكندرية تقرر تهجير عديد من سكان الإسكندرية، فتكون كارثة إضافية على الأسرة وكارثة شخصية عليه فمواصلة الدراسة شبه مستحيلة، لكنه واصل مصمما على النجاح، ونجح والتحق بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية، ووجد عملا فى مصلحة الجمارك وواصل دراسته فى المعهد.

وأحمد منذ أيام دراسته فى المدرسة المرقسية عشق القراءة. ولكن القراءة رفاهية فإتفق مع بائع كتب ومجلات قديمة أن يقرأ بعضا من المجلات القديمة مقابل قرش تعريفة، بما يعنى أن يمضى على قدميه ماشيا إلى المدرسة عدة أيام ليدبر هذا المبلغ الذى يبدو باهظا

بالنسبة له. قرأ أعداداً كثيرة من مجلتى الأزهر ومصر الفتاة، توجه إلى الإخوان ثم إلى مصر الفتاة ولكنه لم يجد لا هنا ولا هناك ما يغريه. فقد كان يفيض حماسا ضد الانجليز. وبعد تفكير طويل حول كيفية محاربة الانجليز قرر تشكيل تنظيم سرى وبدأ بأصدقائه فى الحى وفى المدرسة: سعد عبد المتعال، عبد القادر عامر، عبد الحميد غالى وجابر المعايرجى وآخرين وفى ١٩٤٥ كانت الحرب تنتهى وامتلأت جدران الاسكندرية بشعارات تقول: «يا شباب ١٩٤٥ كن كشباب ١٩١٩» هم بدأوا فى الكتابة على الجدران «يوم النصر هو يوم خروج الانجليز من مصر»، و«استعدوا للثورة» و«الجلاء بالدماء». وكانوا يصطحبون اصدقاءهم فى جولات فى الحى حيث توجد كتاباتهم على الجدران ويتعرفون على موقفهم من هذه الكتابات بهدف ضم من يجدون عندهم حماساً. والكتابة على الجدران لا تكفى كتبوا منشورات وطبعوها على البالوظة والتوقيع «المجاهدون». أحدهم وهو جابر المعايرجى نجح فى توفير آلة طباعة عن طريق صديق له يعمل فى إحدى القنصليات وطبعو عليها منشوراتهم، لكنها لا تكفى فقرروا أن يوزعوا أنفسهم على المساجد يوم الجمعة ويلقى كل منهم خطبة بعد الصلاة مطالبا الجماهير بالجهاد ضد الانجليز. لكن الجماهير حتى وان اقتنعت لا تعرف كيف تتصل بهم، ومن مصروفهم الشحيح استأجروا غرفة فى إحدى المدارس الأولية بحجة أنها فصل لمحو الأمية. لكن البوليس السياسى الذى تابع خطبهم فى المساجد استدعاهم وحذرهم، وفى نفس اليوم طردهم صاحب المدرسة. لكن أحمد ورفاقه يتقدون حماسا ضد الانجليز فذهبوا إلى الإخوان واستمعوا إلى مواعظ وخطب طويلة لكنهم اكتشفوا أنه مجرد كلام وهم يريدون عملا فوريا. ولم يبق أمامهم سوى مصر الفتاة فقد استبعدوا الوفد بسبب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢. وفى مصر الفتاة التقوا قائدا وطنيا حقا هو الاستاذ ابراهيم طلعت المحامى كان يتقد حماسا هو أيضا ولعله اكتشف انهم نموذج لما كان يحلم به من شباب فاحتضنهم وافتتح لهم مقراً لمصر الفتاة فى حيهم (حى الجمرك) وساعدهم على طباعة منشوراتهم وتدفقت عليهم عضوية عديدة فقرروا عقد جمعية عمومية للشعبة لانتخاب قيادة لها ولكن قيادة مصر الفتاة كان حذرة منهم وحتى من ابراهيم طلعت، وارسلت من أفسد الاجتماع فانسحبوا من مصر الفتاة، لكن أحمد عنيد ولقن زملاؤه العناد فقرروا افتتاح مشروع اقتصادى يدبرون منه مالا ويتخذونه مقرا، استدان سعد عبد المتعال ثلاثون جنيها من خالته واقنعها بربح وفير، تقدم لهم شاب اسمه

ابو المكارم تقرب منهم. هو من المحلة ويعرف مهنة النسيج واشترى نولى نسيج يدوى وقبل أن يبدأ مشروعهم فى العمل اختفى ابو المكارم وجاء البوليس السياسى بزعم التفتيش عن قنابل ودمر كل شىء فى الدكان وضاع المشروع. وفى عام ١٩٤٦ بدأ الصراع الجماهيرى المفتوح ضد الانجليز، مظاهرات صاخبة شاركوا فيها. ضربهم البوليس وضربوه وفى اجتماع لهم سألوا أنفسهم مصريون يضربون مصريين فهل نترك الانجليز آمنين، وكان البوليس السياسى قد لفت نظرهم إلى القنابل، بحثوا طويلا حتى عثروا على من يبيع لهم بقروشهم القليلة قنابل. لكن مشكلتهم هى أن تفجيرات عديدة قام بها آخرون لكنها أوقعت أيضا مصريين، والدم المصرى لا يهدر المطلوب فقط هو قتل الجنود الانجليز. وفى ٤ مارس حيث المظاهرة المجيدة فى الاسكندرية تدافعوا إلى ميدان محطة الرمل وتقدم أحدهم حاملا قنبلة التعليمات لديه أن يبتعد عن المصريين. وابتعد أكثر مما يجب فاقترب أكثر مما يجب من الانجليز واطلقوا عليه الرصاص. وفقدت المجموعة أول شهيد لها هو العامل سليمان أبو المجد. ورغم ذلك حاذروا تماما من اصابة أى مصرى بما أكسبهم تعاطف المصريين وحتى القاضى الذى حاكمهم فيما بعد تعاطف معهم وهو بالمناسبة المستشار أحمد الخازندار الذى قتله الاخوان. واتقنت المجموعة شعار «ضد الانجليز وحدهم» وفى ثمانية أيام دوت الاسكندرية بأربعة تفجيرات ضد جنود الاحتلال. غضب الانجليز واعلنوا الانسحاب من المفاوضات ورصدت الحكومة جائزة قدرها خمسة آلاف جنيه لمن يرشد عنهم. وأرشد عنهم محسن كامل شقيق زميلهم فاروق كامل. وقف فى المحكمة يشهد على أخيه، لكن القاضى الخازندار أذله وهو يسأله هل شهدت على أخيك؟ وفى خزى قال نعم، ولكن المجموعة استمرت والباقين منها ألقوا قنبلة على منزله. و«الأهرام» نشرت عنوانا «أخ يشهد على أخيه». وعندما افرج عنه اشتعلت حرب فلسطين كان يعمل فى جمرك رفح فكان يدبر للمقاومين الفلسطينيين تهريب السلاح بل يشترى لهم سلاحا من الاسكندرية. وكان له رفاق فى المجموعة هربوا من السجن هم عبد القادر عامر ومصطفى الدفراوى وعبد الرحمن مرسى وسافروا للقتال مع الفلسطينيين فى كتائب فوزى القاوقجى أرسل لهم أنه سيلحق بهم فأرسلوا لا تأتى ، فالأمر ليس جديا. وأخيرا تذكر رفاق السجن من الشيوعيين عبد المنعم خربوش، حمزة البسيونى، عبد المنعم ابراهيم وغيرهم كان معجبا بصلابتهم وبرؤيتهم وأفكارهم وانضم إليهم..

وهنا تذكر البوليس حتى بعد ثورة يوليو قضية العيب فى الذات الملكية وبعد أن امضى العقوبة بعدة أشهر أعيد القبض عليه بتهمة معاكسة هى العداء لثورة يوليو، وأمام مجلس عسكرى عال يرأسه الفريق الدجوى جرت محاكمته مع عديد من رفاقه محاميه سأل الشاهد الضابط سمير درويش: هل صحيح أن الانجليز منحوك وسام نظير خدماتك للتاج البريطانى؟ فأجاب نعم. فسأله ما هى الخدمات التى قدمتها. هنا انتفض الدجوى ومنع الاجابة، وحكم على أحمد بالسجن ثمان سنوات أشغال، ثم أضيف إليها ثلاث سنوات اعتقال.

وعندما خرج التحق بعمل فى شركة الورق الأهلية، وانتخب عضوا فى مجلس الإدارة. ثم سافر إلى عدن ليعمل خبيرا فى وزارة العدل والضمان الاجتماعى، ثم خبيرا فى البرنامج الإنمائى. وعندما أقام الحزب الشيوعى المصرى محطة اذاعة تنطلق من عدن ارتفع صوته عبرها متحدثا مع معشوقته مصر. وهزه الشوق فأتى إلى مصر ويعود ليقبض عليه عام ١٩٧٥ ثم يكون واحداً من مؤسسى حزب التجمع ويقبض عليه عقب انتفاضة يناير ١٩٧٧. ويبقى ولم يزل يناضل رغم السن المتقدم فى صفوفه .

أنه معدن لا يتكرر من الرجال.

حسين عبدربه

فشلت فى السفر لفلسطين للمشاركة فى الحرب ضد الصهاينة، فوجدت نفسى واحدا من دراويش السيدة زينب.
حسين عبدربه «فى حواره معى»

الفتى عنيد عنادا شديدا، يذكرنى بقول الشاعر..

أرى العنقاء تكبر أن تصادا

فعاند ما استطعت له عنادا

والعناد متوارث، جده القومندان مصطفى بدوى عبدربه، كان جنديا فى حرس الخديوى إسماعيل، واشتهر بقدرته الفائقة على دقة التصويب فى إطلاق الرصاص «وحتى بعد أن أصبح كهلا وضعف بصره كثيرا كان يصوب على الصوت ويصيب المصدر بإتقان» لفت نظر الخديو لأنه اكتشف مؤامرة لقتل الخديو بالسم فأمر الخديو بترقيته واقطعه ١٩٠ فدانا من أجود أراضى قريتى ميت سلسيل والرياض، وعندما نفى إسماعيل كان واحدا ممن اختاره الخديو ضمن مجموعة الحرس التى سافرت معه إلى الأستانة، وبعد فترة عاد القومندان، وأثناء الثورة العرابية صدرت له التعليمات بإغراق كل المراكب التى تبحر فى النيل إلى القاهرة حاملة الإمدادات والمؤن التى يتبرع بها المواطنون لدعم العرابيين، لعب القومندان لعبة العناد مع الخديوى توفيق كان يترك عشرات المراكب تمر ثم يحتجز واحدة واكتشفت عيون الخديوى اللعبة، فأحيل على المعاش بعد هزيمة الثورة وعاد إلى ميت سلسيل ليبنى قصرا شبيها بقصر إسماعيل فى الآستانة سماه الفلاحون «السراى» أما هو فقد نادوه «مصطفى بك».

ويرحل الجد عام ١٩٣٧ عن سبعة وتسعين عاما تاركا ١٧ ابنا وابنة، توزعت الثروة بين الأبناء، الأب عمل صرافا ثم استقال ليتفرغ لزراعة الأرض، وحسين واحد من أبناء

عديدين لأب عنيد أشد العناد، كان يتأرجح بالأسرة بين الإقامة فى المنصورة والإقامة فى ميت سلسيل.

حسين يذهب إلى حضانة الفرنسسكان فى حى الحسينية فى المنصورة ثم فجأة إلى ميت سلسيل حيث يجلس القرفصاء فى كتاب الشيخ محمد أما البنات فلا تعليم على الإطلاق، ويرسو قارب الولد حسين إلى المدرسة الإلزامية فى ميت سلسيل ثم الابتدائية فى المنزل ثم، وفجأة وعندما يقترب الولد من سن الحادية عشرة قرر الأب بأن يترك المدرسة ليعاونه فى زراعة ما تبقى من أرض (٢٦ فدانا) الأم بكت وكذلك الولد. وبعد وساطات قبل الأب أن يعود حسين إلى المدرسة بشرط أن يبدأ من جديد من السنة الأولى.. لأنه لا يريد للولد أن يكمل الدراسة، الآن الأسرة فى المنصورة والولد فى طلخا الابتدائية لكن قلبه ظل فى ميت سلسيل، كان قد أصبح زعيما لجيش من أطفال القرية، ولديه مساعد يعلق صفيحة فى رقبته يدق بها دقات معلومة إذا ما أراد حسين أن يجمع جيشه فيترك الأطفال أى شىء ويجرون نحو نقطة التجمع حيث يحركهم حسين كما يشاء، مباراة كرة قدم أو رحلة صيد فى المنزلة.

وفجأة سكت حسين خلال حواره معى وسرح ببصره بعيدا فلما دفعته بيدى قال «لنبدأ من جديد كان هناك شخصان فى ميت سلسيل لا يمكن نسيانهما، حمادة المصرى وهو مجذوب سمى نفسه المهدى المنتظر، كان درويشا من نوع خاص جدا يرتدى شورتا وقميصا من كاكى ويرصع صدره بقطع زجاج ملون معلنا أنه المهدى المنتظر. يهتف هايل هتلر، حياة هذا المجذوب رسخت فى ذاكرتى فهو طليق وبلا حدود ولا يحتاج لشئ، أما الشخص الثانى فهو أسطورة مصرية عم محمود بكر كان واحدا ممن اختطفوا بواسطة السلطة وأرسل إلى فلسطين وهرب إلى سوريا وانضم إلى حركة إبراهيم هنانو الكبير. الفرنسيون قبضوا عليه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة فى جزيرة الشيطان فى جزر الكاريبى لكنه يهرب مرة أخرى إلى جزر المارتينيك محتميا بالجالية العربية هناك حتى تفجرت حرب فلسطين (١٩٤٨) فقرر العودة ليحارب هناك، لكنه استقر فى رحاب بلدته وأنا التصقت بهذه الأسطورة وطويلا جلست إليه فى انبهار وهو يتحدث عن الاستعمار والحرية وقصص الهروب ومنه تلقنت ضرورة المشاركة فى حرب فلسطين، هو الآن عجوز وأنا شاب» فلأجل محله. وكان حسين قد شكل فرقة من طلبة المنصورة سماها «الهبوب»

تخصصت فى ضرب الجنود الإنجليز الذين كانوا يتجولون سكارى فى شوارع المنصورة، وفى الإجازة الصيفية التصق أكثر بعم محمود بكر وتلقن منه درس الحرب ضد الصهيونية، كان قد ادخر ثمانية جنيهات ونصف ولف جلابية وفوطة فى ورقة جرنال وسافر هاربا ليحارب الصهاينة سافر إلى الزقازيق، لكن قائد معسكر التدريب رفض قبول فتى عمره ١٥ سنة أو أقل، ثم سافر إلى الإسماعيلية ومنها إلى السويس لم يقبله أحد واستمر معاندا ورفض العودة فسافر إلى القاهرة لكن أحدا لم يهتم بهذا الطفل، الجنيهات الثمانية تبخرت فى المشاوير باع آخر ما يمتلك «الجاكت» وجلس على رصيف السيدة زينب ليعيش على أرغفة الفول النابت ثم يتجول بحثا عن سبيل للوصول إلى فلسطين، أصيب بالحمى استلقى على الرصيف، لكن أحد بلدياته شاهده فأبلغ أباه الذى قلب الدنيا بحثا عنه، فذهب ليعود به.

ويلح عليه نداء النضال مرة أخرى فى ١٩٥٢ فجمع ثلاثة من زملائه وهربوا إلى القاهرة وفى مبنى الشبان المسلمين استقبلهم محمد الليثى مدير الدار وجدهم متحمسين فقال لهم الأفضل أن تقتلوا الملك لكن حسين صمم على قتال الإنجليز، ويجده أباه مرة أخرى.

حصل على الثانوية العامة وإلى حقوق عين شمس عمه. يوسف «من الطليعة الوفدية» قابله مع أحمد الرفاعى وأصبح حسين شيوعيا فى منظمة حدتو وصعد ليصبح أحد قادة النشاط الطلابى فى حدتو وفى يناير ١٩٥٩ تكون الحملة الكبرى ضد الشيوعيين ويقبض عليه بعدها بفترة وإلى مسلخ أبوزعبل ويكون الصمود الأسطورى أمام التعذيب الوحشى وإلى سجن الواحات حتى ١٩٦٤ ليعود إلى المنصورة ويقود مع عبدالله الزغبى معركة الفلاحين ضد واحد من أكبر الإقطاعيين الذى قام بتهريب الأرض بأسماء فلاحين بسطاء.

أيقظوا الفلاحين فطالبوا بالأرض، الأمن وقف مع الإقطاعى، فأضربوا عن الطعام وحسين يحركهم ويساندهم عبر تحقيقات ملتهبة فى جريدة «المنصورة» لكن التجربة أثبتت أن الإقطاعى «أبوسويلم» كان أقوى من الجميع، محمد حجى رسام الجريدة وحسين عبدربه أحد محرريها فصلا من الاتحاد الاشتراكى بتهمة أن كلا منهما «شيوعى وإقطاعى» والفلاحين قبض عليهم والجريدة أغلقت، وخلال العدوان الثلاثى سافر إلى الإسماعيلية ليشارك فى معسكرات التدريب ولكن تقريرا أمنيا أكد أنه ذهب ليقيم تنظيما

شيوعيا فتقرر طرده من المعسكر، ومن المنصورة إلى الإسكندرية ليعمل مديرا للمركز الثقافى السوفييتى فجعل منه مركزا لكل فنانى الإسكندرية رساميها وموسيقييها وممثليها، ويستيقظ الفنان فى داخله فيكتب مسرحيته الرائعة «حكاية مقتل حسن العباسى». ومنذ اليوم الأول للدعوة لتأسيس منبر اليسار كان حسين واحدا من المؤسسين وأهم المنظمين فى الإسكندرية ويحتضن فى التجمع حلم اليسار ويحتضنه حلم اليسار فيمضى واهبا كل وقته وكل نضاله فى واحد من أهم مواقع العمل الحزبى «أمين التنظيم المركزى».. ولكن..

إذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

ويرحل حسين عبدربه دون أن يغادرنا.. فرحيقه لم يزل يغلفنا.

عيد صالح مبروك (١)

عندما بدأت عملى فى شركة كفر الدوار اكتشفت أشد أنواع الإذلال فكل أسبوع ويوم الخميس تحديدا يعين ٥٠٠ عامل جديد ويفصل ٥٠٠ والهدف هو أن يعيش العمال فى رعب من الفصل على الدوام، وأمام بوابة المصنع كان يتجمع مئات عديدة من الباحثين عن العمل، يضربون بقسوة، ويجرى إذلالهم بوحشية ولابد أن يختم العامل بختم الشركة قبل عبور البوابة مثل البهائم، لكن الختم لابد أن يكون على القفا وذلك بعد صفعه عشرات المرات، فكرهت الرأسمالية كرها شديدا.

عيد صالح مبروك

«فى تسجيل له على شرائط كاسيت»

عندما تركنا الرفيق (سيد) «عيد صالح مبروك» حزنت حزنا شديدا لأننى لم أستطع أن أقنعه بالجلوس معى لإجراء حوار، ولكنى فوجئت بالزميل عبدالفتاح أبوعيسى يحضر لزيارتى ومعه تسعة شرائط سجلها عيد وأودعها لديه طالبا أن يسلمها لى فقط بعد رحيله، لأنه كان يخجل من الحديث المباشر عن نفسه، تأملت الموقف وتأملت ما يفعله البعض الآن من افتعال بطولات وهمية ويمنح نفسه ما لا يستحق، وقضيت أياما عشتها مع مناضل حقيقى، متواضع إلى أقصى درجات التواضع، هادئ إلى أقصى درجات الهدوء، شجاع إلى أقصى درجات الشجاعة.

الأسرة بدوية استقرت فى حى الحدرة بالإسكندرية واشتغلت بالزراعة على أطراف الإسكندرية، لكن الأولاد تكاثروا ولم تعد الأرض تكفى جميع الأخوة، فانفلت بعضهم ليجد لنفسه عملا آخر، فعمل والده فى مهنة غريبة عليه هى تدريب أعضاء نادى اسبورتنج «تنس - اسكواش - جولف» وتخصص الأعمام فى هذه المهنة أما الأب فقد أضاف إليها الإشراف على كافتيريا النادى، وعاشوا عيشة ميسورة إلى درجة أن الأب يدفع للمدرسة

أكثر مما تطلبه من مصروفات لابنه عيد، فكان يدفع خمسة قروش كاملة كل شهر بما جعل الابن مدللا حتى فقد الأب عمله بالنادى، واشتغل فى إدارة النقل العام بثلاثة جنيهات شهريا فتعين على عيد أن يترك المدرسة وأن يجد عملا، لكن ماذا يمكن أن يعمل طفل فى السابعة من عمره؟ اشتغل صبى بائع خضار يحمل الخضار للزبائن ويوصله إلى بيوتهم، ويقضى يومه فى هذه المشاوير وصعود عشرات السلالم، لكن عيد ظل يحلم بالمدرسة والتعليم فبكى لأحد أعمامه فتكفل بمصروفاته وأعاده للمدرسة، لكن المشكلة لم تكن فى مصروفات المدرسة وإنما كانت فى الحاجة إلى أى قروش يكسبها الطفل ليأكل بها هو وأخوته، وبعد عدة أشهر فقط دخل العم إلى الفصل وانتزع عيد واقتاده إلى نادى سبورتنج ليعمل صبى مدرب تنس، وتأتى الحرب العالمية الثانية وتنهال قذائف الطائرات على الإسكندرية ويهرب سكانها إلى خارجها. حاولت الأسرة أن تفعل ذلك وعلى عربة كارو تجمعوا هم وبعض الكراكيب.. لكن الأب والولد يتعين ذهابهما إلى العمل، ولا مصدر للرزق فى القرية فعادوا من جديد ليعيشوا تحت القصف، وفى عام ١٩٤٢ كان عيد قد بلغ الثانية عشرة من العمر، فكان يهرب من ملعب التنس ليلعب هو مع أطفال الأرستقراطيين أعضاء النادى، الآباء يرفضون أن يلعب هذا الولد الفقير مع أبنائهم، وكان عيد يحسد هؤلاء الأرستقراطيين وأغلبهم من الأجانب والمتمصرين على استمتاعهم بالرياضة، فقرر أن يفعل مثلهم فجمع عديدا من أطفال الحى الفقير واحتلوا إحدى الخرابات وأسموه النادى المصرى وجعلوها مرتعا لفرق الكرة الشراب فى الأحياء المجاورة. وظلت هناك أمنية تداعبهم وهى بضعة قروش لشراء عدة عروق من الخشب لتكون قوائم للأجوان، ظل الحلم يداعبهم دون جدوى، حتى أضرب ضباط البوليس فى الإسكندرية، فأصبحت الإسكندرية تحت رحمة الناس، أما عيد وزملاؤه فقد اقتحموا أحد مخازن الأخشاب وأخذوا فقط ستة عروق بالعدد، وأخذت الأرض الفضاء سمة ملعب كرة حقيقى فأسموه نادى الشعلة، لكن ضمير عيد لا يلبث أن يؤنبه فخاض معركة ضارية مع زملائه حتى أقنعهم بإعادة الأخشاب وفيما هم يعيدونها أوشك أصحاب المخزن أن يقبضوا عليهم فتركوا الأخشاب وأطلقوا سيقانهم للريح.

وينضج الفتى فيقرر الاشتغال بالسياسة وينضم لمصر الفتاة، وهناك سمع لأول مرة كلمة شيوعى، فهناك عضوان أحدهما اسمه عم حافظ وآخر اسمه على الجوهرى ظل

أعضاء مصر الفتاة يهاجمونهما لأنهما شيوعيان، وتجرى محاولات لطردهما من مصر الفتاة ولكن عيد تعاطف معهما ووقف معهما هو وأعضاء نادى الشعلة وهددوا بترك الحزب إذا طردا.

والغريب أنه دافع عنهما دون أن يحاول الاقتراب منهما أو التعرف على أفكارهما، وكان عيد لم يزل يعمل مدربا للتنس فى نادى سبورتنج فخاض وهو فى الثامنة عشر معركة تأسيس نقابة للعاملين فى النادى، ورفعوا قضية يطالبون فيها بزيادة الأجور، وحكم لهم بزيادة الأجر وبالحصول على الفارق بأثر رجعى، خضعت إدارة النادى وسلمتهم مستحقاتهم ومعها قرار فصل من العمل، وفى هذه الأثناء كانت شركة الغزل بكفر الدوار تبحث عن لاعبى تنس ليشكلوا فريقا لنادى الشركة وكان ذلك هو جواز مروره إلى كفر الدوار، منذ اليوم الأول أدرك المهانة التى يتعرض لها العمال، وشعر بضرورة أن يفعل شيئا، كان العمال فى حالة خوف شديد لكن حقدهم كان شديدا أيضا وسمع أن هناك تنظيما سريا فى المصنع يسعى لقتل المديرين وهناك أيضا تعرف على عدد من الشيوعيين الذين كانوا يسعون إلى ترشيد السخط العمالى ومحاولة تنظيم إضراب للمطالبة بحقوق العمال، وكان إضراب عمال كفر الدوار الشهير فى بداية أيام الثورة، وكان عيد شاهد عيان على أحداث كفر الدوار لكنه رآها بعينى شخص يقترب من أن يكون شيوعيا.

وإلى لقاء نكمل فيه سيرة عطرة لمسيرة شجاعة..

عيد صالح مبروك (٢)

ما أن جاءت ثورة يوليو حتى اضرب عمال شركة صباغى البيضا بكفر الدوار..وحضر محمود باشا شكرى ، وبدأ مفاوضات مضنية معهم، لكن أهم ما تمسك إنه قال للعمال وبعنف: الألقاب ألغيت فى القاهرة لكنها لم تلغ هنا ولهذا كان من الضرورى أن تقدم طلباتكم باسم حضرة صاحب العزة المدير»
(عيد صالح مبروك فى تسجيل على شرائط كاسيت)

ونعود إلى عيد صالح مبروك ليروى شهادته الأخطر عن اضراب كفر الدوار واعدام خميس والبقرى.. فقد كان شاهد عيان حضر الأحداث من بدايتها إلى نهايتها. ونبدأ الشهادة:

«نجح اضراب عمال صباغى البيضا وحققوا قسما كبيرا من مطالبهم (نقابة مستقلة- زيادة الأجور- مكافأة سنوية - علاوة سنوية - اجازة سنوية). وتساءل جيرانهم فى شركة الغزل الرفيع بكفر الدوار.. وماذا عنا نحن؟ وبدأت القيادات السرية الموجودة منذ زمن فى التحرك بشكل شبه علنى وعقدت عدة اجتماعات على المقاهى، وأيضا فى النادى الرياضى وتشكلت قيادة للعمال من محمد متولى الشعراوى- أحمد اليابانى- حلمى الجوهرى- محمود عطا الله وأنا. وأتفقنا على الاضراب ورتبنا الأمر بحيث تبقى وردية مكانها وتدخل إلى المصنع الوردية التالية فيكون داخل المصنع ورديتان. لكن بعض جواسيس الإدارة نقلوا المعلومات للإدارة فاستعدت بأن نقلت أوراقها المهمة بعيدا عن الشركة، ودبرت كمينا للعمال فما أن بدأ المضربون فى إعلان إضرابهم حتى قام بعض الخفراء من عملاء الإدارة بإشعال حرائق فى مكاتب من الشركة. لكن العمال تجمعوا لحماية العنابر وحاولوا إطفاء الحريق المشتعل فى المكاتب، لكن رجال أمن الشركة اطلقوا عليهم النار، ولم تتحرك سيارات مطافئ الشركة وازدادت النار اشتعالا وبسرعة تشكلت لجان عمالية لحماية الآلات. وبالفعل ظلت الآلات وعنابر الإنتاج سليمة، وفى الصباح أتى الجيش، وحاصرت

المدرعات المصنع وسدت البوابات ورسموا بالجير خطوطا على الأرض وحذروا أن من يتخطى هذه الخطوط سيطلق عليه الرصاص. ثم اطلقت شائعة أن محمد نجيب سيحضر ليستمع إلى العمال، فتحركت مظاهرة من العمال المحاصرين داخل المصنع كى يستقبلوا محمد نجيب ويعرضوا عليهم مطالبهم. وتناوب على الهتاف مصطفى خميس وأنا. كانت هتافاتنا عادية، نرحب بنجيب ونطالب الثورة بحماية العمال. وصلت المظاهرة قرب الخط الأبيض، فتردد المتظاهرون، كان الدور على مصطفى خميس كى يقود الهتاف الذى أعطى ظهره للجنود وبدأ يدعو العمال لتجاوز الخط الأبيض، ومع أول خطوة منه تجتاز الخط الأبيض اختطفه الجنود وبدأوا فى ضربه ضربا مبرحا وقبض عليه ، وبدأ إطلاق الرصاص على العمال فى المليان، فزع العمال من المفاجأة وتفرقوا فى شوارع المصنع لكن السيارات المدرعة وسيارات الجيب أخذت تطاردهم لتقتل العديد منهم. واستطيع أن أقرر أن أكثر من خمسمائة عامل قد قتلوا فى هذه المذبحة، وصدرت الأوامر بعد ذلك باعدام وثائق مستشفى كفر الدوار العام حتى لا يستطيع أحد التعرف على عدد القتلى أو اسمائهم. وفى الدعايات الصحفية بررت قيادة الثورة اطلاق الرصاص الحى بكثافة على العمال بأن رصاصا اطلق من المتظاهرين وقتل جنديين لكننى أؤكد أن التحقيق اثبت أن الرصاص الذى قتل الجنديين أتى من خارج المصنع ومن مساكن الخفراء من عملاء الشركة.

والمهم أن قرارا صدر – بحظر التجول ثلاثة أيام ومنع الدخول من أبواب الشركة. كان العمال قد قفز أغلبهم عبر السور هاربين من الرصاص، ولكن بقى عدة مئات من العمال الأكثر وعيا كانوا يحمون آلات المصنع فجمعوهم وأمروهم أن ينبطحوا أرضا على بطونهم لمدة ٤٨ ساعة وأعلن الضابط للجنود كل من يرفع رأسه اطلقوا عليه الرصاص.

ويمضى عيد فى تسجيلاته «كانت المحاكمة مهرجانا لارهاب عمال مصر جميعا جمعوا آلافا من عمال الإسكندرية وكفر الدوار رغم أنوفهم ليحضروا المحاكمة ثم أمروهم وهم جلوس على الأرض على الاستماع إلى الحكم الذى تلاه ضابط من فوق ظهر دبابة فى دلالة لا تخفى على أحد والحكم: خميس والبقرى اعدام وثمانية وعشرون عاملا بالسجن. ويحكى عيد اثر الاعدام على العمال وكيف أنهم كانوا يتهامسون بأن اقطاعيا هاجم قسم شرطة فى الصعيد واطلق الرصاص وقتل سيدة وحوكم فى الوقت ذاته بالسجن ثم ما لبث ان افرج

عنه. والمثير للدهشة أن العمال لم يتراجعوا رغم هذه الوحشية فقدموا مذكرة بطلباتهم فحصلوا على مكافأة شهرين كل سنة وعلى زيادة العلاوة السنوية وعلى حقهم فى اقامة نقابة مستقلة. ومنذ الانتخابات الأولى للنقابة سيطرنا على مجلس الإدارة ونظمنا بعدها ٤٤ اضرابا وزادت الأجور بنسبة ١٥٠٪. وفى أحد الاضرابات حضر حسين الشافعى وطلب رئيس النقابة وكان محمود عطا الله (عضو حدتو) وسأله الشافعى انتم كام عامل؟ فرد ١٢٫٠٠٠ عامل فقال الشافعى سأجعل منكم ١٢٫٠٠٠ خميس والبقرى ورد عطا الله بعفوية «ماشى» وتركه ومضى. وفى ١٩٥٤ وكانت أزمة الحكم تلتهب استدعى الطحاوى وطعيمة القائد العمالى متولى الشعراوى وطلبا منه تنظيم اضراب لمساندة عبد الناصر فقال لهما سأعرض الأمر على مجلس النقابة واتخذ مجلس النقابة قرارا غريبا هو إبلاغ النيابة ضد طعيمة والطحاوى لأنهما يحرضان على الإضراب، والإضراب ممنوع قانونا.

كل هذا وعيد لم يقدم حكايته كيف أصبح شيوعيا. «كنت أجلس كثيرا أمام محل عبد الفتاح أبو عيسى (اشهر صانع احذية فى الاسكندرية) والحلوانى المجاور لا يكف عن الحديث عن الشيوعية هو وصديق له يونانى. ويبدو أن أحدهما كان على علاقة ما بحدتو فإذا بأحد أعضاء حدتو يتصل بعيد وعبد الفتاح ويضمهما إلى حدتو وكرس عيد جهده فى بناء منظمة حزبية فى المصنع فضم عديدا من العمال ومنهم اثنان اصبحا قادة النقابة محمد عطا الله وأحمد اليابانى. واسهم عيد فى تأسيس إتحاد عمال الغزل والنسيج وأصبح اليابانى وكيلا للاتحاد. وإذ يأتى العدوان الثلاثى يرفع عمال كفر الدوار شعار«نصف العمال للمعركة والنصف للإنتاج» وسافر عديد من العمال إلى الجبهة وزاد الإنتاج بنسبة ١٠٠٪ وفى يناير ١٩٥٩ يقبض عليه وفورا يصدر قرار بفصله من العمل بحجة انه شيوعى. ويعانى عيد من التعذيب الوحشى ويروى فى التسجيلات قصصا تشبه الخرافات عن وحشية التعذيب. أحد الجنود يظل يضربه بعنف ثم صاح «الله يخرب بيتك حاموت من كتر ضربى فيك». والمجلس العسكرى العالى يحكم عليه بثمانى سنوات اشغال شاقة. ويفرج عنه ليواجه بعدها بقليل بقرار حل الحزب الذى افنى حياته فى بنائه. لكنه تلاقى مع عدد من الرفاق القدامى فى محاولة لإعادة تأسيس الحزب، ثم يكتشف أن رفاقا اعادوا التأسيس فانضم إليهم وواصل نضاله معهم حتى اصبح عضوا فى المكتب السياسى. ويبقى مناضلا بثبات هادئ ومتواضع ومتفان حتى يرحل.

أحمد الرفاعى
مذكرات

فى المجلد الأول مناضلون يساريون أورد صفحات من مذكرات تحت الإعداد كتبها أحمد الرفاعى فى صورة لقطات متفرقة استعداداً لكتابتها فى صورتها النهائية.

لكنها بقيت كذلك.

وبعد صدور المجلد الأول اكتشفت مجموعة أخرى من المدونات تقدم لنا معلومات بالغة الأهمية وصورة شديدة الوضوح عن حقائق وموضوعات كانت خافية أو غير مدركة، ومن ثم كان من الضرورى العودة إلى أحمد الرفاعى لنستكمل عبر مدوناته رؤية لأحداث كان إيضاحها أمرا بالغ الأهمية.

فى سجن بنى سويف

الإضراب ثم الترحيل

فى سجن بنى سويف لم يكن المعتقلون جميعا يمثلون اتجاها واحدا، وإنما كانوا يمثلون اتجاهات مختلفة من طليعة العمال والحزب الشيوعى (الراية).. وبعض افراد ديمقراطيين ونقابيين، وكان العدد الأكبر من أعضاء حدتو.

لم يشترك فى الإضراب سوى مجموعة (حدتو) وبعض العناصر الديمقراطية.. وفشلت كل المحاولات لاقناع الآخرين بالاشتراك فى الإضراب، فلم يكن الجو صالحا لعزل نقطة مطالب الإضراب عن باقى الخلافات.. فمن حين لآخر كانت تنهمر علينا الاتهامات من كل جانب.. فاعضاء تنظيم (الراية) يصرون على أن حكومة ثورة ١٩٥٢ فاشية، وانها إنقلاب أمريكى وتمثل أعلى قمم الرأسمالية، وفى أى مناقشة تستهدف عزل مطالبنا كمعتقلين عن الخلافات ترتفع اصواتهم بالأناشيد الحماسية الاستفزازية، بسقوط الفاشية وعملاء السلطة.. ويقصدون بذلك اعضاء حدتو.. لقد كانوا فى معظمهم يمثلون عناصر صغيرة

السن من الطلبة لم تعركها السياسة بعد، أو من العناصر التى لم تعرف السياسة إلا عن طريق الكتب فقط.

وكان أعضاء طليعة العمال يخفون صفاتهم كشيوعيين، ويصرون على أنهم مجرد عناصر تقدمية ونقابية، ولم يكن عندهم وضوح سياسى فى تحليل السلطة، سوى أنهم يريدون اسقاطها، وكانوا يعلقون آمالا كبيرة على حزب الوفد فى هذه الفترة.

لقد كان الموقف دقيقا، إذ أننا كنا نلمح أن هجوم السلطة على الشيوعيين يشتد يوما بعد يوم، وأن هذا المعتقل انما يستهدف فى النهاية تحطيم معنوياتنا، ولم نكن نملك إلا أن نقاوم بسرعة، فإن توالى الهجوم مع الاستسلام يجعل المواجهة فى المستقبل شائنة أن لم تكن مستحيلة، وكنا نشعر أن زملائنا فى القاعدة من الممكن أن ينحرفوا إلى اقصى اليسار فى ظل هذه الظروف.

كانت مطالبنا تنحصر فيما يلى..

- السماح بقراءة الصحف.
- السماح بالزيارة.
- السماح بالمراسلة.
- نقل وجهة نظرنا إلى السلطة فى عودة الديمقراطية.
- رفض المفاوضات مع الانجليز كأسلوب، واستمرار الكفاح المسلح الذى أوقفه حريق القاهرة.

ولكن باقى التنظيمات رفضت بالكامل الإضراب ومطالبه، واستمرت فى حملتها علينا مرددة.. اننا شاركنا فى جريمة الإنقلاب (يقصدون ثورة ٢٣ يوليو) ومدعية أن عبد الناصر كان عضوا فى تنظيم حدتو تحت اسم «موريس».. وبلغت المأساة ذروتها باتهامنا بأننا شاركنا فى اعدام «خميس» و«البقرى» مع أننا كنا التنظيم الوحيد الذى اثبت أن حريق كفر الدوار كان وراءه «حافظ عفيفى» وأنها مؤامرة رأسمالية تستهدف ضرب الحركة العمالية، ووزعنا العديد من المنشورات فى هذا الاتجاه.. ورتبنا اللقاء بين اللجنة المسئولة عن تكوين اتحاد العمال ومجلس قيادة الثورة فى هذا الوقت لتوضيح هذه المؤامرة.

لم ننجح فى اقناع الآخرين بالإضراب عن الطعام من أجل المطالبة بتحسين أوضاعنا، واقصى ما وصلنا إليه هو أن يقفوا على الحياد، دون محاولة اضعاف معنويات الزملاء.

كان عددنا فى ذلك المعتقل حوالى ١٥٠ من اعضاء حدتو وهم يمثلون الأغلبية، فأخذنا نعمل على إعداد الزملاء معنويا لخوض المعركة، وتوضيح مطالبنا وأسلوب التعامل مع الإدارة فى هذه الفترة، وارسلنا إلى خارج المعتقل العائلات والرفاق فى السجون الأخرى، وقسمنا الزملاء إلى دفعات، تدخل كل دفعة الإضراب فى تاريخ محدد لها.

وتولى الزملاء الفنانون اصدار مجلة فكاهية كاريكاتورية تصور حالة المعتقلين المضربين، وتنشر أخبارهم بطريقة فيها نوع من الفكاهة، هذا إلى جانب قصص قصيرة من مختلف أنحاء العالم عن معارك الشيوعيين فى المعتقلات.

وبعد أن تأكدنا من وصول أخبار استعدادنا للاضراب إلى الخارج، بدأنا نتعمد أن تكون مناقشتنا لهذا الموضوع بصورة علنية، وتقدمنا بمطالبنا بشكل واضح إلى الإدارة وإلى الجهات المختلفة، ولكن الإدارة أصمت آذانها عن كل شىء.. وكان كل ما يقوله مدير الليمان أن هذه المطالب ليست من سلطاته.

ودخلت الدفعة الأولى للإضراب واخلى لهم عنبر خاص. واستمروا فى الاضراب أربعة أيام، وفى اليوم الخامس دخلت دفعة ثانية، وبعد ثلاثة ايام دخلت دفعة ثالثة. ووصل عدد المضربين حوالى ستين وإلى اليوم العاشر لم تتحرك ادارة السجن أو يأتى مندوب الحكومة.. ولكن إدارة السجن كانت من حين إلى آخر تبلغنا نتائج اتصالها بالمباحث، وكانت تتلخص فى كلمة واحدة.. فليموتوا.. وفى اليوم السادس عشر كانت المفاجأة... اعداد ضخمة من قوات الأمن تتولى حراسة السجن تتقدم صارخة وهى تحمل الشوم وواضح من حركاتها أنها أعدت إعدادا كاملا لهذه المعركة.. فهى ترقص وفى ايديها الشوم، وتركض بسرعة جنونية فى اتجاه عنبر واحد الذى كان يضم حوالى ثلاثين من المضربين وتبدأ معركة رهيبة بين المضربين وقوات الأمن.. المعتقلون يحاولون أن يغلقوا الباب من الداخل والقوة المجنونة تدفع وتحطم وكأنها تتسابق إلى الداخل، تضرب يمينا وشمالا دون وعى أو تحديد لاتجاه الضربات.. صراع غير متكافئ سواء من الناحية العددية أو من الناحية الجسمانية.

ويقف «سعد الساعى» بطل مصر فى الملاكمة وأول ليسانس الاداب وقفة الملاكم الذى يتصور أنه قادر على الصراع.. ولكن شومة غاشمة تصرعه، ويعاود الوقوف فى تحدى الملاكم، ولكن الشوم يلقى به أرضا وتصل المأساة إلى حد مضحك.. ففى هذا الصراع يعز

على سعد بأن ينهزم .. ولا تكتمل لكماته حتى يتحول إلى قطعة من اللحم تتقاذفها الاقدام وتنوشها العصى بصورة محمومة. ويقود هذه المعركة مدير الليمان، ويصرخ كما لو كان جنرالا فى معركة حربية، ومن الغريب أنه كان يصطحب ابنه فى هذه المعركة كما لو كان يشهد على بطولة ابيه.

ووسط هذا الجو المحموم تنطلق صرخة مدوية. ونفاجأ بطفل يجرى بين الجنود متقدما ليحتضن احد المعتقلين، ويصرخ وهو يدفع بالجنود بعيدا عنه.. استاذ استاذ لا تضربوه.. ويتوقف الضرب للحظات. ويعم سكون بارد.. ويكتشف مدير السجن ابنه وهو يحتضن احد المعتقلين، فيرتجف الرجل وينظر إلى ابنه نظرة استنكار واستفسار. ثم ينقل بصره إلى المعتقل والدماء تنزف من رأسه وهو شبه عارى.. أنه استاذى «جميل عبد الشفيع».

ويرتبك المدير ويدفع بالمدرس والتلميذ بعيدا لتستمر المعركة.... يا للمهانة الإنسانية.. عندما يصفع الأب أمام ابنه. أو يضرب المدرس أمام تلميذه.. ويا لنذالة الأب الذى تتحجر عواطفه وهو يعرض نفسه على ابنه فى صورة السفاح.. لا أدرى لماذا تركزت عواطفى كلها فى هذه اللحظة فى جميل عبد الشفيع المدرس الرقيق المهذب الذى يشبه العصفورة، وفى هذا التلميذ الذى أثار فى نفسى أشياء كثيرة.

لقد أحسست فى هذه اللحظة أن الذى ضرب هم كل مدرسى مصر، تراثها، حضارتها وتاريخها، وأن صراخ هذا الطفل لم يكن إلا عويل مصر.. التى تعيش بلا حرية، بلا ديمقراطية، بلا كلمة شريفة وانطلقت الكلاب المسعورة تضرب فى كل مكان. لم تترك نظارة إلا وحطمتها، زجاجات الدواء دهستها، الكتب مزقتها.. إلى اين المسير يا بلدى؟ المريض يحرم من دواء، ضعيف النظر تحطم نظارته والكتب تثير الرعب والكراهية، انهم يريدوننا قطيعا أعمى ومجموعة من المرضى وجماعة من ذوى العقول الفارغة. فالديكتاتورية لا تستطيع أن تعيش إلا إذا جردت الشعب من كل مقوماته الفكرية والثقافية. وهكذا عاشت مصر فى تلك الفترة، مصر التى صارعت الاستعمار طويلا، مصر التى ما انخفض صوتها فى أشد الفترات ظلاما، مصر التى اعتادت إلا تعطى ثقتها لزعيم إلا بعد سنوات وسنوات من النضال.. مصر الآن عليها أن تصمت وتعطى ثقتها لضباط لم تعرفهم إلا من شهور.. عليها أن تصمت فالزعيم يتفاوض مع «هالكى» فى السفارة البريطانية. وكانت هذه المفاوضات محل انتقاد دائم من الشيوعيين. ويسرع «صلاح سالم» إلى الاذاعة ليؤكد أن

المفاوضات كانت ستنجح لولا هؤلاء الشيوعيين الملاعين. ومن هنا كانت عمليات التعذيب والاعتقال.

وينتهى يوم التعذيب الطويل، وتتراجع القوات التى قامت به، ويقف مأمور السجن متغطرسا صارخا.. من يريد الاستمرار فى الإضراب عن الطعام يتقدم خطوة إلى الإمام.. ويفاجأ الرجل بأن جميع المعتقلين المضربين عن الطعام لمدة ستة عشر يوما والمعرضين للتعذيب طوال يوم كامل.. يتحاملون على أنفسهم، ويتساندون على بعضهم البعض حاملين جرحاهم ويتقدمون إلى الإمام.. خطوة واحدة، ويصعق الرجل وتتراجع الإدارة والمباحث.. وتبدأ المساومات، وتتحقق بعض المطالب وينتهى الإضراب.

* * *

وإذ يأتى المساء، ويبدأ المعتقلون يعودون إلى زنازينهم الانفرادية. بعد فسحة العصر المسموح بها وقدرها نصف ساعة، يملأون فيها الجرادل التى سيشربون منها طوال الليل، وينظفون الجرادل الاخرى المعدة لتلبية نداء الطبيعة، ويستلمون فيها عشائهم، ولكنها لم تكن تخلو من دردشات وعلاقات انسانية وتبادل الذكريات الحلوة. والحقيقة ان ما كان يهمنى فى هذه الفسحة ان اتناول العشاء بمنتهى السرعة رغم انه كان يأتى فى الساعة الخامسة اى بعد موعد الغداء بساعتين فقط، ولكن الذى كان يعنينى فى هذا كله ان اجد من يشاركنى العشاء.. وكان دائما عشائى مع "فتحى خليل" ابن السويس وعاشقها.

لقد كان انسانا بكل معنى الكلمة، رغم السخرية القاتلة التى يمارسها حيال كل الزملاء حتى حيال نفسه، لقد كان يسرع بعشائه إلى حجرتى لنأكل سويا، فهو يعلم جيدا اننى لا استطيع الاكل بمفردى ولو أدى ذلك إلى أن أنام بدون عشاء أو أصبح بدون إفطار.. لا أستطيع ان آكل الا مع الاخرين. وليس كل الاخرين فلابد وان تكون لى معهم علاقات انسانية حسنة، وطالما عذبتنى هذه الازمة.

وما أن اغلقت الزنازين وتم التمام حتى عاد الشاويش "عبد الرازق"، ذلك السجان العجوز الماكر الداهية، لينادى على اسماء ثلاثة من المعتقلين...

أحمد الرفاعى... كمال عبد الحليم... عبد المنعم الغزالى.

ولم يكن متوقعا من الشاويش أن يعطى معلومات اكثر مما يبلغ إليه، ولو انه يعلم اشياء كثيرة، لخبرته الطويلة وثقة الادارة به.

وعبد الرازق شاويش فى مصلحة السجون منذ ثلاثين عاما. نحيل الجسم، بارز عظام الوجه، ذو سحنة تميل إلى الخضرة المشربة بالصفرة، متوسط القامة، لا يثور ولا يرتفع صوته، ولكنه ذو عين نافذة، قاسى الوجه، ينظر إلى الناس كما لو كان واحد منهم قد ظلمه فى رزقه أو حظه، فالجميع مجرمون مخطئون ما دام قادرا على أن يستذلهم، ومن لم يستطع ان يستذله لسبب أو لآخر فهو سيد مميز ودائما على حق.

لقد كانت حياة الشاويش عبد الرازق صورة معبرة عن معاناة الفلاح المصرى فى ظل الاستعمار والاقطاع.

ومن الغريب ان هذا الظلم لم يولد عنده اى رغبة فى الاحتجاج عليه أو العطف على المظلومين.. ولكنه خلق منه كائنا يعتقد أن الاصل فى الحياة أن تظلم أو تظلم. فاذا لم تكن قادرا على أن تظلم فليس أمامك إلا أن تعيش مظلوما... قانون وضعه لنفسه استباح به أن يكون قاسيا وفظا مع الجميع.

وقفنا نحن الثلاثة داخل العنبر، والزنازين مغلقة، والرفاق ينظرون من العيون السحرية إلينا، وبعضهم قفز إلى الشبابيك ليلقى علينا نظرة الوداع.. إذ أن مجلس قيادة الثورة قد أعلن عن تشكيل (محكمة الثورة) لمحاكمة السياسيين.. وهى محاكم خاصة بلا قانون، وكان قد سبق لها أن اصدرت حكما باعدام بعض الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز، وكذلك حكما بالاعدام على أحد رؤساء الوزارات السابقين. وهو "ابراهيم باشا عبد الهادى"، رئيس الحزب السعدى حزب كبار الرأسماليين المتعاون مع السراى، كذلك حكما بالسجن المؤبد على "فؤاد باشا سراج الدين" وزير الداخلية. وكان صلاح سالم قد اعلن ان الشيوعيين سيحاكمون امام محكمة الثورة. اذن فنحن ذاهبون إلى محكمة الثورة.

النتيجة معروفة مقدما... الاعدام.

وارتفع من الداخل صوت الرفاق يرددون الاناشيد، فها هم رفاق لهم عاشوا معهم الحياة حلوها ومراها، هزائمها وانتصاراتها، عاشوا معهم معارك مصر... يرسلون إلى الاعدام.

واقبل السجانة لنقلنا من داخل العنبر لنرحل إلى القاهرة، وكلما ابتعدت خطوة عن العنبر، كانت كلمات الاناشيد تلاحقنا..

بين صخر وحديد وأعاصير وسل

وقيود وسدود قتلوا منا بطل

نشيد حزين، فيه قوة وإصرار، فى كل كلمة منه أحس رائحة الدم، ومعنى التطابق بين الموقف السياسى ومواجهة الموقف، ان الانسان الكامل هو الذى تتطابق عواطفه وآرائه مع موقفه السياسى. كلمة صاغها الرفيق " كمال عبد الحليم" عندما مات أحد المناضلين السودانيين فى السجون المصرية، وهو طالب الهندسة "صلاح بشرى".

ومع النشيد الحزين والليل الذى يزحف فى عتمة داكنة على سجن بنى سويف، وجدنا مئات العساكر مصطفين على جوانب الطريق ابتداء من السجن حتى محطة بنى سويف. وفى داخل المحطة كانت هناك قوات ضخمة من رجال الامن موزعة على ارصفة المحطة شاهرة السلاح تحت قيادة مدير المديرية.

ان النتيجة واضحة، وواضح أن الحكم اعد سلفا. والا لماذا المظاهرة الضخمة المكونة من أكثر من الف جندى لحراسة ثلاثة من المعتقلين المكبلين بالاغلال.

ولا أقول صعدنا إلى القطار، وانما حملونا حملا إلى احدى عربات الدرجة الاولى. ومعنا عدد ضخم من الضباط والجنود للحراسة، وبدت فى نظرات الضابط المكلف بحراستى صورة من صور الرثاء، فهو يحاول أن ينظر إلىّ، ولكن نظراته تهرب كلما ابصر الحديد على معصمى. وكأنه هو المسئول عن ذلك، أو انه يتأفف من مشاركتهم فى عملية قذرة. ومن حين إلى آخر كان يسألنى.. هل يؤلمك الحديد.. ولكن لا أدرى لماذا لم أكن ارد عليه، فلقد كانت افكارى سارحة فيما ابعد من نفسى..

إلى أين المصير..؟.. وما هى القضية؟

وفى خضم هذه الافكار التى تنازعنى، وجدت ضابط برتبة رائد يستأذن فى الدخول إلى الصالون، وجلس بجوارى، وبدأ فى عينيه انه يريد الحديث معى... ولكن الضابط المكلف بحراستى أشار اليه اننى ممتنع عن الحديث. ويبدو انهم كانوا زملاء دراسة فى كلية البوليس، فأستأذن الضابط المكلف بالحراسة للذهاب إلى دورة المياه، مطمئنا إلى وجود العساكر وزميله الذى استأذن فى الدخول.. وهنا نادنى الضابط باسمى التنظيمى.. ولكنى لم ارد. فالعقل الباطن مع التدريب المستمر يعيش فى يقظة دائمة, حتى أمام اسرع المفاجأت... وهى عملية مجهدة .. ولكن لابد منها..

ولما لم يسمع جوابا اخذ يلح على ان استمع اليه. فاخبرنى انه زميلى فى التنظيم وان هناك مجموعة من الرفاق قد قبض عليهم. وهم فى السجن الحربى.. حيث سنذهب هناك فى هذه الليلة.. وان هناك بعض اعترافات عليكم.. واخذ يعدد اسماء الزملاء المقبوض عليهم..

يوسف حلمى.. زكى مراد .. دكتور شريف حتاتة.. محمد شطا.. حليم طوسون.. أبو بكر سيف النصر.. ابراهيم حسين.. ابراهيم يونس.. خليل قاسم.. البير ارييه.. الضابط مصطفى كمال صدقى.. سيد البكار.. وآخرون..

لقد احسست بخنجر بين اعماقى. اذن لقد قبض على اغلبية المتبقين من اللجنة المركزية مع قيادة الجبهة المكونة من الوفديين وبعض عناصر الحزب الاشتراكى.

فألتفت اليه وقلت له.. متشكر هذه الاسماء لا أعرفها، ولا ادرى ماذا تقصد؟ لقد كاد الرجل ان يجن من اصرارى. ولكنى كنت أحس أنه أعطانى الكثير. ولا داعى للاستمرار فى المناقشة أكثر من ذلك مادمت لا اعرفه.. وفى المحطة التالية نزل بعد ان القى على نظرة حب ووداع، لقد كان مأمور مركز شرطة "بوش" محافظة بنى سويف فى ذلك الوقت، والذى اصبح بعد ذلك "يوسف صبرى" الصحفى فى روزاليوسف.

لا ادرى لماذا تداعت إلى ذهنى خواطر كثيرة متلاحقة، وتذكرت ابنى الذى مات من ايام، وسعادة الضابط وتشفيه وهو يبلغنى الخبر وكأنه حقق انتصارا كبيرا.. ان المصائب تترابط مع بعضها. فالقبض على اى رفيق فى مثل هذه الظروف يمثل نعى عزيز على، وخاصة اذا كانوا رفاقا لهم تاريخهم واخلاصهم ونضالهم.

زكى مراد صديق العمر. شريف حتاتة القريب إلى قلبى والذى أفهم نظراته دون حديث.. محمد شطا القائد العمالى.. حليم الهادئ الرزين.. يوسف حلمى سكرتير انصار السلام.. بكر سيف النصر ابن البرجوازية الذى لفظها ورفضها.. ابراهيم حسين صديق الدراسة .. مصطفى صدقى الضابط الذى كان ملء السمع والبصر فى وقت من الاوقات ، منافس الملك فاروق فى غرامياته.. البير اربيه.. عبد اللطيف جمال الدين.. فؤاد منير.. عثمان غالب.. سعد كامل.. الشاعر خليل قاسم.. عبد المنعم الغزالى.. احمد طه.

اذن فهى قضية الجبهة الوطنية.. لقد احسست بثقل التهمة التى ستلقى على. فلقد كنت ممثلا للشيوعيين فى هذه الجبهة. انا الذى وضعت برنامجها، وكتبت اول بيان لها بخطى.

وكان الذى يشغلنى فى هذه اللحظة.. من هم الاخرون الذين لم يذكرهم الرائد..؟ على كل حال فما باليد حيلة. ومادامت قد وقعت الواقعة فلامتع عينى بجمال الحقول.. فلعلها آخر مرة اراها.. من يدرى؟

وانطلقت أغنى بينى وبين نفسى لحنا ريفيا لا علاقة له بالموضوع، انما فيه ذكريات القرية والطفولة.. يا بهية وخبرينى على اللى قتل ياسين.. وبدأت اضحك مع الضابط المكلف بالحراسة.. وكم كان سعيدا ولطيفا... واشعل لى سيجارة، واخذ يحدثنى عن شقيقه الذى سبق له وان اعتقل. وبدا من كلامه انه يريد ان يخفف عن نفسه عبء هذه المهمة، والا انظر اليه نظرة فيها احتقار وازدراء . من خلال الحديث عرفت ان هذا الضابط شقيق لزميل لى فى المدرسة الثانوية اسمه "نشأت" ، وكان من حين إلى آخر يلمح عن شقيقه هذا الذى بدأ حياته ثوريا وانتهى به الامر إلى يأس قاتل، وكأنه كان يقول.. ليته استمر معكم، حتى ولو لقى نفس مصيركم.

وما كاد القطار يتوقف فى محطة القاهرة، حتى اسرعت قوات لا حصر لها، واحاطتنا من كل جانب نحن الثلاثة المعتقلين. كمال عبد الحليم.. عبد المنعم الغزالى، وأنا، وكل من رجال المباحث يبالغ فى استخدام العنف ورفع الصوت وكأنه يشهد الجميع على اخلاصه وتفانيه فى تنفيذ واجبه.

ومضى رتل السيارات المخصص لنقلنا تتقدمه صفارات مرعبة، وتحيط به سيارات جيب من كل مكان حتى وصلنا إلى مبنى فى الصحراء... انه السجن الحربى العتيد.

السجن الحربى

نزلنا أو أنزلونا إلى ادارة السجن الذى انشأه الانجليز لتعذيب العساكر المصريين حتى يصلوا إلى مرحلة يتمنون فيها الانتحار.

وبدأ تفتيش أمتعتنا الفقيرة البائسة.. ملابس داخلية، بيجامات، بعض القصص العربية والاجنبية. ويتم التفتيش بفظاظة. ويرتفع صوت أحد الضباط.. خونة يقرأون كتب انجليزية.. ويتم تحريز هذه الكتب وكأنها ألغام خطرة. ونعاد إلى السجن. وألمح قرب البوابة بعض الاسماء التى ذكرها يوسف صبرى.

ويدفعوننى إلى زنزانة ضيقة مظلمة لا أتبين شيئا فيها. وبعد دقائق تمر مجموعة من الجنود تدفع إلى رغيف ومعه بعض الملح.. العشاء.. العشاء.

الحجرة مظلمة لا اعرف محتوياتها او ابعادها.. اقبض على الرغيف بيد من حديد، واتلمس طريقى فى الظلام حتى اهتدى إلى الجدار. وابدأ فى تناول لعشاء بروح لا تشعر بالاطمئنان. ينحصر كل تفكيرى فى شيء واحد، لا ثانى له. لابد وان اعيش. لابد ان تمر المحنة.. ان الاصرار هو ابن الارادة الواعية بأبعاد المأساة.. ومن أجل ذلك لابد وان أتعود على الحياة الجديدة، وان أتأقلم معها.. فقد كان بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة يدلى بتصريحات عن العنف والبطش وعن الهجوم على الحياة الديمقراطية. وكأن تصوراتهم عن الشيوعية كما قال عبد الناصر فى ذلك الوقت.. انها افعى ذات مائة رأس تتكور وتتكور ثم لا تلبث ان تنقض عليك من جديد.

انهم يتصورون انفسهم فوق الجماهير التى عليها أن تثق بهم.. وطنيون حقا ولكن يرفضون الديمقراطية يضعون الوطنية والتحرر فى تعارض مع حرية الجماهير. يضربون كل الاتجاهات كأن مصر لم تولد الا فى ٢٣ يوليو، لعلهم شباب برئ ولكن ما أخطرهم على مسيرة الشعب.

وانطلق فى تفكيرى حتى يصل إلى صوت أحد الجنود وهو يغنى الصعيدية.. ان مال عليك الزمن. ميّل على ذراعك.. انتبه إلى الرغيف الذى فى يدى، فاقضم نصفه واحتفظ بالنصف الباقى حتى الصباح، علهم لا يقدمون غيره.

وما أن وضعت رأسى حتى غلبنى النوم، واستيقظت فى الصباح الباكر لاكتشف مكونات الحجرة.. انها زنزانة صغيرة لا تختلف كثيرا عن زنازين السجون التى سبق ان سكنتها منذ نهاية الاربعينيات وفى اوائل الخمسينيات.. أتطلع إلى الجدران وأحاول ان اقرأ الكتابات عليها، فأنا أعرف ان المسجون يحاول دوما أن يترك أثرا يذكر الآخرين به.

كتابات كثيرة، ولكن استوقف نظرى كتابة على باب الزنزانة الحديدية المكتوبة بمسمار..

محمود صبرى.. الشهير بصبرى كينج

"ارفع يدك إلى السماء واقرأ لى الفاتحة"

وكنت قد عرفت من زملائى المعتقلين فى سجن اسيوط والذين رحلوا الينا إلى سجن بنى سويف ان محمود صبرى الشهير بصبرى كينج قد اعتقل مع عدد من المصريين المتعاونين مع القوات البريطانية بتهمة التجسس. وكنت قد قرأت فى الصحف، انهم نفذوا فيه حكم الاعدام. ولكن الذى اثار فى نفسى الالم اننى الشيوعى أعامل معاملة صبرى كينج، وأسجن فى نفس الزنزانة التى مر بها من قبل. لقد أحسست برأسى يلتهب.

كنت أسمع عن صبرى كينج منذ اشتركت فى معارك الفدائيين فى عام ٥١ التى انتهت فى ٢٦ يناير ٥٢ بحريق القاهرة.

اليس غريبا ان اقدم إلى نفس المحكمة التى تحاكم صبرى كينج.

اليس غريبا ان اقرأ وداعه للحياة.. وقد تواجهنا انا وهو فى معركة مسلحة.. انا كفدائى وهو كعميل متعاون مع الانجليز.. وتذكرت قول ابى العلاء..

رب لحد صار لحدا مرارا ساخرا من تعانق الاضداد

ايقنت فى هذه اللحظة ان رجال ٢٣ يوليو، رغم العمل الذى أنجزوه، لا يعرفون طريقهم.. انهم يتصورون الخيانة فى بعض العناصر التى قبضوا عليها فى منطقة القناة من العمال الفقراء. "صبرى كينج" "حسن قدرى" "سعد الحلاق"، ونسوا أن الخيانة تعيش معهم فى القاهرة وفى القصور وفى أجهزة الحكومة.

عشت فى هذه التأملات لفترة لا أدرى طالت أم قصرت حتى فتحت الزنزانة، واطل منها ثلاثة جنود وضابط اشاروا إلى ان ارتدى ملابسى.

وما كدت امشى خارج الزنزانة لبضع عشرات من الامتار حتى ادخلت إلى حجرة يجلس فيها وكيل المدعى العام "على نور الدين" كنت أعرفه منذ زمن طويل كوكيل لنيابة امن الدولة. وما كدت اجلس حتى بدأ التحقيق معى. وبعد السؤال عن الاسم ومختلف البيانات. بدأ السؤال عن التهمة الموجهة الى.. انت متهم بأنك عضو فى المكتب السياسى لتنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، وانك عن طريقه اسهمت فى انشاء جبهة من الاحزاب المنحلة "حزب الوفد" "الحزب الاشتراكى" بهدف اسقاط نظام الحكم بالقوة المسلحة.

لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يوجه إلى فيها الاتهام بالاشتراك فى تنظيم شيوعى، ولكن الجديد فى هذه التهمة، هو إنشاء جبهة من الاحزاب السياسية المنحلة.

وكان ردى على السيد وكيل المدعى العام، هو النفى، وأننى لا اعرف ما هى اهداف هذه الجبهة التى تكلم عنها، فأخذ سيادته فى شرحها من ورقة امامه..

إطلاق الحريات الديمقراطية.

حق الشعب فى تكوين احزابه الوطنية.

طرد الاستعمار عن طريق الكفاح المسلح.

عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى.

اسقاط المشاريع الامريكية.

اعادة محاكمة خميس والبقرى.

وبعد ان شرح السيد وكيل المدعى العام هذه البنود، اجبته اننى لا ارى فى هذه البنود ما يدعو إلى التحريم، فاى نظام وطنى لا يعارض هذه المطالب.. وهنا استدعى السيد وكيل المدعى العام احد زملائى المتهمين وهو "ابراهيم حسين"، واجهنى به مستفسرا عن مدى معرفتى به، وكان مفاجأة له اننى لم انكر معرفتى به، بل كدت له انه صديق لى.. وهنا ظهرت البهجة على وجه المدعى العام، الذى اكد ان ابراهيم حسين ضبط فى منزله مطبعة، هو وحليم طوسون وانه وجد ايصال باسمى بشراء نجفة فى هذا المنزل، مما يؤكد ان لى علاقة بهذه المطبعة، التى دأبت على طبع منشورات بالديمقراطية. كان ردى الوحيد ان ابراهيم صديق، وكان يسكن بحى المنيل قبل ذلك وليس فى الهرم كما تقول. واذا وجدت اوراق تخصنى بمنزله فهذا أمر لا يستغرب بين صديق وصديقه.

تفرست فى وجه ابراهيم، اكتشفت اللطمات التى على وجهه ومدى التعاسة التى يعيشها وخاصة انهم قبضوا عليه مع اخيه الطفل الذى قدم من قرية المطرية ليقدم أوراقه إلى الجامعة.

لقد كان ابراهيم صديقا قديما.. وهو عضو فى حزب الوفد المصرى.

وبعد دقائق استقدموا شاهدا اخرا. اكد انه يعرفنى واننى كاتب البيان الاول للجبهة، واننى كنت مندوب حدتو مع حزب الوفد والحزب الاشتراكى.. قال هذا وانصرف. كدت

ابكى فى نفسى للوضع الذى وصل اليه. خاصة حينما عرفت انهم اخذوه إلى المشنقة وهددوه بالشنق.

انتهى التحقيق وذهبت إلى الزنزانة الانفرادية.. لا علاقة مع انسان.. لا ارى احد.. اللهم الا وجوه الضباط الذين يهاجمون الزنزانة ويفتشونها ويتأكدون من ان الحديد الذى يقيد قدماى ويداى مربوط جيدا، وكأنما يعتقدون اننى أستطيع أن أحطمه!!!

....

تهديد بالاعدام: -

وفى مساء احد الايام تقدم ضابط ليتلو على من ورقة انه تقرر اعدامى فى صبيحة اليوم التالى انا، و"زكى مراد"، و"شريف حتاته"، و"محمد شطا".

ثم يصيح باعلى صوته: علم؟

فاجبته: علم.

فيقول: قل علم يافندم.

فقلت: علم يافندم.

ثم يعطينى ورقة وقلم لأكتب ما أريد من وصايا. ولكننى أرفض استلام الورقة والقلم.. حيث لا يوجد شئ عندى ما أوصى به ولا يوجد عندى ما اقوله، ولكن التاريخ نفسه هو الذى سيقول.

هل تريد شيئا؟

لا فقط اريد طعام العشاء.

ويخرج الضابط ناعتا اياى باحط الالفاظ.. حيوان.. بليد الحس فاجبته فى فى هدوء: لماذا انت غاضب؟

فيقول : انت عديم الاحساس.

فاجبته: انا الذى ساموت وليس انت. فلا تغضب.

واقضى الليل أفكر فى احتمالات الموت. وتشغلنى فكرة غريبة مؤداها ان الذين يسرعون فى قتلى لا أكن لهم اى شعور بالكراهية، وانما هم جزء من معسكر الشعب.. وفى نفس الوقت يمتد فكرى إلى ما بعد الموت. ماذا ستقول الاجيال القادمة.. لماذا قتلت؟ سيضيع دمى هدرا لان الذين قتلونى كانوا وطنيين ايضا؟

انها تراجيديا أعيشها ليس بمفردى، ولكن بالقطع ايضا يعيشها هؤلاء الضباط. انهم بلا شك ضد الاستعمار، لكنهم يحملون ايديولوجيا فيها الكثير من تأثيرات الفكر الاستعمارى والرجعى من كراهية شديدة لأى بعد اجتماعى لمعركة التحرر من الاستعمار. ان المعركة فى ذهنهم بين شعب بأجمعه. منسجم فى كل شىء.. لا ظالم ولا مظلوم، لا صغير ولا كبير.. الاقطاعى مجرد ظالم لفلاح، الرأسمالى مجرد ظالم للعامل.. ولكن امعان الفكر فى هذا الرأسمالى او الاقطاعى.. وان كلا منهم يمثل طبقة شىء غائب عنهم تماما.. لا يستطيعون ان يمتدوا بافكارهم الى مدى عمق التناقض بين مصالح الفلاح والعامل والاستعمار، مرورا بالاقطاع والرأسمالية.. المعركة فى مفهومهم محدودة المعالم. انهم وحدهم هم الملائكة الابرياء المجردون عن المصالح.. وتنطلق كلمات ساذجة مثل قول "جمال سالم" للبعض.. والله لو شنقتنى الثورة بهذه الكرافتة لما ندمت.

طبعا لن تشنقه الثورة.. ولكن هل فكر ان الثورة تشنق غيره....؟

واذا شنقت غيره، فلماذا تشنقه..؟ وفى اى معسكر يقف هذا المشنوق.

أمتد تفكيرى بهذا الاسلوب حتى الصباح. حتى افقت على صوت الضابط نفسه.. التنفيذ اتأجل حتى العصر.. هل توجد لديك طلبات...؟

أحسست فى نفسى بمدى سذاجته وطفولته حتى الكلمة كنت ابخل عليه بها.

أعاد السؤال مرة واثنين وثلاثة.. واخيرا قلت له بنوع من القرف..

أريد الفطور فقط والخلوة إلى نفسى.

سب ولعن وانصرف..

امتدت هذه المهزلة لمدة ايام عديدة، ونحن فى نفس الوقت نسمع عن محاكمة "سراج الدين" سكرتير حزب الوفد المصرى وهو واقف صامد فى محنته حتى صدر الحكم ضده بالحكم المؤبد على ما اذكر، وكان ذلك بعد ان اصدرت المحكمة حكمها بالاعدام على "ابراهيم عبد الهادى" رئيس الوزراء السابق والذى سبق ان حكم عليه الانجليز بالاعدام فى ثورة ١٩١٩.

كان الحبس انفراديا بشكل كامل ومطلق .. كل مسجون يسمح له فقط بالخروج خمس دقائق او عشر دقائق يذهب إلى دورة المياه، ويأخذ تموينه من المياه ويفرغ البول ويغسل ملابسه وفى نفس الوقت يلازمك السجان حتى داخل المرحاض، ولكن يبدو ان هذه الشدة

بدت تضغط ايضا على اعصاب الجنود السجانين، الذين بدأت قبضاتهم تتراخى، وبدأت مدة الفسحة تطول، وبدأنا نتبادل بعض الكلمات مع السجانين. عرفت من هذه المحادثات البسيطة حجرة شريف حتاتة، وزنزانة ابراهيم حسين وزنزانة زكى مراد.

ومن خلال المراحيض عرفت عن طريق بعض الكتابات الموجودة على الحائط أن "تيتو" حضر إلى القاهرة وان حديثا ما دار بين جمال عبد الناصر وبين تيتو عن المعتقلين الشيوعيين.

وما ان اكتشف السجانة هذا الأمر، حتى بدأت هجمة بربرية من ادارة السجن على المعتقلين، صفعا وضربا بمختلف الادوات. عصى، حجارة.. ربط الحديد من الخلف..الخ.

ولن انسى زكى مراد وهو مقيد اليدين، ومربوط بحبل، والسجان يجبره على ان يأكل التراب وهو يرفض، والضرب مستمر لا يتوقف.

وبعد أيام توقف الضرب، ونقلونا فجأة إلى مبنى آخر، حيث أتت دفعة كبيرة من المعتقلين.. عرفت من هتافاتهم انهم من الاخوان المسلمين. نقلنا إلى مبنى آخر فى السجن الحربى، وبدأت المعاملة السيئة تخف قليلا بعض الشىء.

وفى نفس المبنى وفى القسم الاخر اكتشفنا وجود بعض قيادات الاخوان المسلمين، "الشيخ فرغل" "الاستاذ الهضيبى" "الاستاذ عبد القادر عودة". وبدأت بعض المناقشات معهم ولكن كان الغريب ان بعضهم حتى فى هذه المحنة يرى ان مجرد لمس يد الشيوعى شىء دنس من وجهة نظر الشيخ فرغل.. وللحقيقة والتاريخ كان الاستاذ الهضيبى والدكتور خميس والاستاذ عودة أوسع أفقا.

واهكذا أحسسنا بيأس كامل من الوصول معهم إلى أى حد أدنى من الاتفاق، إلا أننا كنا حريصين حرصا كاملا على استمرار هذه العلاقة حتى لا نفقد علاقتنا بقراءة الصحف، حيث كان مصرحا لهم بها، فى الوقت الذى كنا ممنوعين فيه من قراءتها. وفجأة تبدلت المعاملة وبدأ بعض الضباط يكونون فى منتهى اللطف، ويحاولون الحديث معنا فى السياسة. وكانوا يركزون على محاولة معرفة ايهما نفضل.. عبد الناصر ام نجيب.. عرفنا منهم ان هناك حركة فى سلاح الفرسان تطالب بالديمقراطية والحياة النيابية، كان معظم هؤلاء الضباط مع محمد نجيب. وكانوا يوحون لنا ان يوم الافراج قريب وما علينا الا ان نؤيد محمد نجيب. وما ان امتدت المناقشات حتى كان ردنا، نحن مع جمال عبد الناصر وضد الاستعمار وامريكا.

وهنا اشاحوا عنا بوجوههم.. وعاد الحبس الانفرادى من جديد. وسحبت كل المكاسب التى كنا قد اخذناها مثل قراءة الجرائد او التصريح لنا بتقبل بعض النقود عن طريق الامانات.

سحب كل هذا وعاد للحياة جفافها السابق. وعادوا من جديد لوضع الحديد فى ايدينا من الخلف طيلة النهار. ماعدا بعض دقائق نتناول فيها الطعام أو نذهب فيها إلى دورة المياه.

انه وضع بشع ان تنام ويداك فى الحديد خلف ظهرك.. والحديد يقيد قدميك وكانت المأساة ان بعض حضرات الضباط من المرضى نفسيا يحلو لهم المناقشة معك وانت فى هذا الوضع.

ولم تمض سوى ايام قليلة حتى توقف التعذيب، وبدأنا نتصل مع بعض من جديد فى فترة المساء عن طريق احد السجانة الذى كان يتعاطف معنا بشكل عاقل ورزين. ومن خلال لقاءاتنا المسائية عرفنا ان الاخوان المسلمين قد افرج عنهم واننا وحدنا فى السجن.

وكان واضحا ان الاخوان المسلمين قد انحازوا بالكامل إلى محمد نجيب ضد عبد الناصر، لكن المشكلة بالنسبة لنا اصبحت اكثر تعقيدا. نحن مع عبد الناصر فى مسيرته. ولكن محمد نجيب يرفع شعارات الديمقراطية والحرية والحياة النيابية.. وضع معقد وصعب. ولكننا بحكم تجربتنا السابقة فى تنظيم الضباط الاحرار، كنا نعرف طبيعة هؤلاء الضباط. انهم اساسا ضد الاستعمار، وهم من اوضاع طبقية تفرض عليهم مسيرة لابد وان تتعارض مع الرجعية ان آجلا او عاجلا، وبالتالى كان تأييدنا لجمال عبد الناصر مشروطا بما سبق ان اعلناه برنامجا للجبهة قبل أن نعتقل..

- اطلاق الحريات الديمقراطية.
- حق الشعب فى تكوين احزابه وتنظيماته الوطنية.
- طرد الاستعمار عن طريق الكفاح المسلح.
- عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى.
- اعادة محاكمة خميس البقرى.

واضفنا إليها.. اطلاق سراح المعتقلين والمسجونين السياسيين.

ولم تمض سوى ايام قليلة حتى حضر مندوب القيادة، وعلى ما اذكر كان اسمه احمد

محمود وبعد نقاش طويل، غير منظم، كانت تتخلله بعض الاستفزازات من كلا الطرفين، ابدى اندهاشه اننا مازلنا فى المعتقل، فإن ما ترفعونه من شعارات انما هو ما تمضى فيه الثورة، بل اكثر من ذلك، فالنسبة للعلاقات مع المعسكر الاشتراكى، فيوجد هناك تقدم ملحوظ مع الاتحاد السوفيتى.

وانتهى النقاش بان كتبنا بيانا نوضح فيه موقفنا، والذى عرف بعد ذلك باسم بيان السجن الحربى، وهو لا يخرج عن النقاط التى سبق الاشارة إليها.

وظللنا فى سجننا كما نحن، بلا تغير او تبديل .. حتى نقلنا إلى سجن مصر، حيث توجد معظم كوادر تنظيم حدتو، والتنظيمات الصغيرة الاخرى، بموقفها اليسارى الذى يتهم الثورة بأنها تمثل الفاشية، والبعض الآخر يتهمها انها انقلاب امريكى.

رغم اننا انتقلنا من سجن إلى سجن، وليس إلى الحرية، كنا سعداء اننا سنلتقى برفاقنا من جديد. وما كدنا ندخل سجن مصر، حتى بدأت الهمهات ترتفع عن (بيان السجن الحربى) واننا يجب ان نقصى بعيدا عن الشيوعيين. لقد ذهب البعض فى نظرتهم إلى مطالبة ادارة السجن بان يسكنوننا بعيدا عن الشيوعيين... لقد كان موقفا مؤلما .. ولكن كان يخفف من وقع هذه الصدمة ان هذه التنظيمات فى معظمها لا تعدو ان تكون حلقات معزولة من المثقفين، او تحت قيادة المثقفين، ولا واقع نضالى لها.. تنظيم (الراية) و(النواة) و(الطليعة)..عناوين واسماء كثيرة لا اذكر تفاصيلها.

ولكن هناك رفاقنا فى قيادة (حدتو) "مبارك عبده فضل وفؤاد حبشى" واخرون لا اتذكر اسماءهم، وقفوا معنا فى صلابة وعناد، وعرفنا منهم بعد ذلك مدى المعاناة التى لاقوها من الرفاق فى القاعدة، ومن التنظيمات الاخرى فى الدفاع عنا، اذ كانوا يتهموننا بالخيانة والعمالة.

وما أن اقبل المساء، واغلقت الابواب حتى وقف احد المعتقلين، واظن اسمه "عبد الخالق الشهاوى" والقى قصيدة يتهمنا فيها بالخيانة والعمالة. ثار رفاقنا حتى الذين كان لهم نفس موقفهم، وفى الصباح كان علينا ان نقابل هذا التهور والاندفاع بالشرح والتوضيح. لقد اكتشفنا ان اعضاء (ل.م) قد اعتقلوا، وانه قد تشكلت قيادة مؤقتة فى الخارج من اعضاء جدد لم يكونوا فى (ل.م) هم.. "محمود توفيق وعبد الجابر خلاف وصلاح حافظ وبدير النحاس".. وان هذه القيادة اتخذت مواقف يسارية التقت فيها مع باقى التنظيمات.

واولها طردنا من الحركة الشيوعية بلا رجعة.. بل تطوع بعضهم وهو صديق لى احبه واحترمه بالمطالبة بتصفيتنا جسديا... والكارثة التى تفوق هذا أن كثيرا من كوادر التنظيم توحدت مواقفها فى النقطة التالية..

ادانة بيان السجن الحربى.. محاكمة الخونة الذين وقعوا على البيان.

البلبلة

لقد ادى تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو إلى خلق نوع من البلبلة فى صفوف التنظيم، وخاصة ان الحركة الشيوعية العالمية لم تتعود ان ترى انقلابات عسكرية لها طابع وطنى، فكانت معارضة هذه الحركة جزءا لا يتجزأ من تراث الاحزاب الشيوعية، ماعدا الحزب الشيوعى الايطالى الذى تحفظ فى موقفه.

وزاد من هذه البلبلة ان الثورة كانت تمضى فى طريق معاد للديمقراطية بشكل واضح، وابقت على عدد من المعتقلين ممن سبق وان اعتقلوا بعد حريق القاهرة. وحينما صدر قانون الافراج عن المسجونين السياسيين، استثنى منه الشيوعيين. وشكلت محكمة برئاسة احد المستشارين لينظر فى قضايا الشيوعيين كل على حدة، وانتهى امرها بقرار مضحك مؤداه ان الشيوعية، جريمة اجتماعية، رغم ان وزير الاعلام فى ذلك الوقت سبق وان صرح بان الشيوعية جريمة سياسية.. ولا غرابة فى ذلك فقد كان معتقلا مع الشيوعيين قبل ذلك ولم يفرج عنه الا فى صبيحة ٢٣ يوليو.

كان تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو نابعا من مشاركتنا فيها عضويا وسياسيا. اذ كان لحدتو تنظيم فى داخل الجيش، يساهم مع تنظيم الضباط الاحرار، بل ان معظم اعضائه فى تنظيم الضباط الاحرار.

....

وكان العمل فى الجيش يرجع إلى منتصف الاربعينيات، باعتباره فصيلا من الفصائل الوطنية، ولم يكن تنظيم الضباط الاحرار الا صورة من صور الجبهة الوطنية، فقد كان برنامجها يتشابه مع برنامج اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال، بل يكاد يتطابق معه.

لذلك فعلاقتنا الوثيقة والعضوية بهذا التنظيم كانت تفرض علينا ان نكون اول المؤيدون له. وهكذا لم يكن مصادفة ان اصدرنا نحن أول بيان لتأييد حركة الجيش طبع ووزع فى

القاهرة فى الصباح الباكر لثورة ٢٣ يوليو. كانت مطبعة التنظيم فى ذلك الوقت لا تسمح بطبع منشور يوزع على مستوى واسع، وبالتالى كلفت من الرفاق بطبعه.

ذهبت مع احد الرفاق إلى مطبعة فى السيدة زينب، ودفعت إلى صاحبها بالمنشور، وما كاد بصره يرتفع عن البيان ليناقش، حتى اصدرنا له امرا بالبدء فورا، وكان بيان الثورة قد اذيع. ارتبك الرجل حينما طلبنا منه التنفيذ فورا بلغة الواثقين، وانه لا يوجد وقت لنضيعه.. وبالفعل بدأ الرجل فى التنفيذ. وما هى الا ساعة واحدة كان البيان يوزع فى كل الاحياء وفى وقت واحد.

اجتمعنا على الفور فى حى الزيتون، ومعنا احمد فؤاد عضو حدتو، والذى كان مسئول الاتصال بقسم الجيش، وبدأنا المناقشة فورا فى الواجبات الملقاه علينا، وانتهى الاجتماع إلى ضرورة..

-الافراج فورا عن المسجونين السياسيين. وكذلك المعتقلين.

- تأمين الثورة داخليا ضد المؤمرات.

وعاد احمد فؤاد ليؤكد ان كل شىء على ما يرام، وافرج فعلا عن المعتقلين السياسيين، ولكن لم يعد يرد عن المسجونين السياسيين، وفعلا استمروا فى السجن كأن شيئا لم يحدث، وكنا نركز فى هذه الفترة على الافراج عن "شهدى عطية الشافعى" أول شيوعى حكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة سبع سنوات يقضيها فى سجن طره.

اخذنا فى موالاة الاتصال برجال الثورة، مطالبين باتخاذ الخطوات السريعة فى الجبهة الداخلية، والافراج عن المسجونين الشيوعيين.. اذ كان قد افرج عن بعض السياسيين واستثنى الشيوعيين.

بدأ بعض الرفاق فى التنظيمات الاخرى يؤكدون وجهة نظرهم، فى ان ما تم هو انقلاب امريكى وليس ثورة وطنية، ووجدوا فى هذا التلكؤ تكأة لوجهة نظرهم المتطرفة يساريا، وزاد الطينة بلة، ان استغلت الثورة بعض أحداث "كفر الدوار" واقامت هناك مجلسا عسكريا، يترأسه احد الضباط الرجعيين من قادة ثورة يوليو "عبد المنعم امين" واصدر المجلس حكما ارعن ضد "خميس والبقرى" بالاعدام، ولم يجهدوا انفسهم من اجل التعرف على الفاعل الحقيقى والمدبر الخفى الذى أظهرت الاحداث بعد ذلك انه ينتمى إلى "حافظ عفيفى" رئيس الديوان الملكى.

وقامت قيامة الاحزاب الشيوعية والديمقراطية فى العالم، وكلها تدين هذا الاتجاه، وهذه البداية الدموية.

حاولنا المستحيل فى ايقاف هذه الجريمة ولكن لم ننجح. وبذلك اضيفت ورقة جديدة للمنظمات الاخرى المتطرفة يساريا. بل أكثر من ذلك اصبحوا يتهمون حدتو انها شريك فى هذه المجزرة.. وتبعت الثورة ذلك بان قامت بمهاجمة مطبعة حدتو، والتى كانت تطبع لهم مجلتهم ومنشوراتهم قبل الثورة ووضعوا الرفاق العاملين بها فى السجن. ومن المضحك انه فى اول عرض عسكرى، قامت الثورة بعرض هذه المطبعة كجزء من تراث الضباط الاحرار، وهى فى حقيقتها مطبعة حدتو التى كانت تطبع لهم منشوراتهم وأوراقهم.

وفى وسط هذا الجو اصدرت الثورة قانون الاصلاح الزراعى، وكانت لنا مساهمتنا فيه، ولو انه صدر بصورة اخرى، استهدفت العدالة فى توزيع الملكية ولم تلتفت إلى ان يكون الهدف منه هو زيادة الانتاج، الامر الذى ظل يعانى منه هذا القانون، وحال دون انطلاقة ثورية فى الزراعة.

وقد بدأت التظيمات الصغيرة وبالذات منظمة (الراية) فى التركيز فى الهجوم على قانون الاصلاح الزراعى متهمة اياه بأنه صدر لصالح البرجوازية ضد القطاع، ولكن ذلك لم يلق اذنا صاغية لدى الفلاحين، الذين رحبوا به كل الترحيب.

ولكن الثورة كانت تتجه يوما بعد يوم إلى التضييق فى مجال الحريات ومحاولة البطش بكل السياسيين القدامى، دون التفرقة بين مواقفهم. فلا فرق لديهم بين النحاس الشخصية الوطنية الشعبية وحافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وصديق الانجليز.. او بين عبد الفتاح حسن وسراج الدين وابراهيم عبد الهادى الذى انشق على حزب الوفد وعمل لصالح السراى.

كان الاتجاه واضحا نحو تصفية الحياة السياسية من كل العاملين فيها. على امل ان يخلو لهم الجو وحدهم.. ومن الغريب انهم وجدوا فى هذه الفترة الدعم والمساندة والتحريض من بعض رجال الحزب الوطنى، الذين عملوا معهم لفترة كوزراء.. وافرزوا كل عداواتهم الموروثة منذ الحزب الوطنى القديم ضد الوفد، ونسيانهم بالكامل للسراى والرجعية.. وكان التركيز بصفة اساسية على الوفد والنحاس. ولم يستطيعوا ان يكتشفوا ان التناقض التاريخى هو بين حزب الوفد والسراى، وان الوفد كان باستمرار يمثل خطوة ديمقراطية للجماهير الشعبية.

اخذت البلبلة طريقها إلى قواعد التنظيم. واخذوا يتجادلون مع فكر المنظمات الاخرى، ولكننا صممنا على موقفنا فى التأييد ومقاومة الاتجاهات الخاطئة لثورة ٢٣ يوليو واتهامها بانها انقلاب امريكى، وانها تمثل الفاشية الجديدة فى المستعمرات، بل اكثر من ذلك، وردا على اعتقالهم لعدد كبير من رفاقنا قررنا ان نطلق سراحهم وان نأخذ المبادرة بيدينا، فتأييدنا لا يعنى الاستسلام او ترك ارارة الحليف طليقة دون ان يشعر بوجودك او دورك.

وكان المعتقل الرئيسى فى هذه الفترة موجودا فى حى روض الفرج وكان به اربعة عشر من اعضاء القيادة. اخذنا فى دراسة الموضوع بشكل هادئ ودقيق بعد ان نظمنا عملية الاتصال بهم فى داخل المعتقل.

وبعد دراسة كاملة للمنطقة وفى الموعد المحدد، كانت هناك ثلاث سيارات فى انتظار اشارة البدء. كان من بينها سيارة المرحوم "يوسف حلمى" وسيارة "ابو بكر سيف النصر" وكان هناك المرشحون للعملية وكنت مسئولا عن هذه المجموعة. ومن الامور المضحكة انه اثناء قيادتنا لسيارة المرحوم يوسف حلمى هذه اصطدمت باحدى سيارات النقل، اذ أن الرفيق الذى يقودها كان مضطرب الاعصاب. وقضينا وقتا طويلا فى تصفية الموضوع مع عسكرى البوليس وصاحب سيارة النقل.

وما ان قاربت الساعة الثانية حتى كان المعتقل خاليا من الشيوعيين. اذ هربوا من المعتقل. وكانت السيارات فى انتظارهم وما هى الا دقائق قليلة حتى كان الجميع فى الاماكن المحددة لهم.

ومن الغريب انه لم يكتشف امر هروب الشيوعيين من المعتقل الا فى الصباح الباكر، وانهار قومندان المعتقل الذى اصبح اضحوكة لدى باقى المعتقلين من الرجعيين، الذين لم نسع بالطبع إلى تهريبهم، بل كنا مع اعتقال البعض منهم، وما ان اصبح الصباح حتى اصيب رجال السلطة بالهيستريا.

إلى بورسعيد

ولم تمر سوى فترة قصيرة على خروجنا من معتقل ابو زعبل فى يونيو ١٩٥٦ حتى بدأنا نندمج فى الحياة من جديد، ونستعيد علاقاتنا القديمة التى قطعتها فترة الاعتقال.

لقد تغيرت نظرة الجماهير إلى الشيوعيين، واصبح المناخ الذى يعيشه الشارع مختلفا تماما عن الفترة التى دخلنا فيها المعتقل.

لقد كان المناخ السياسى فى مصر بعد حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ مسرحا لحملة صليبية ضد اليسار.. حملة تطالب بذبح الشيوعيين فى الشوارع ومطاردتهم كخونة وعملاء.. فقد ركزت الدوائر الحكومية غداة حريق القاهرة على ابراز ان الشيوعيين هم الذين قاموا بالحريق والتخريب، فعلقت افيشات على الجدران يبدو فيها أحد أصحاب المحال المحترقة ووراءه الدمار وآثار الحريق، وكتب تحتها «الشيوعيين فعلوا هذا».

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو توقفت هذه الحملة، وبدأ شهر عسل قصير بينهم وبين اليسار. انقطع فى اثر بدأ المفاوضات مع الانجليز واثر احداث كفر الدوار.. وها هى الثورة تعود من جديد إلى احضان الشعب، بعد ان احست ان الامريكان لن يصبروا عليها الا اذا احتووها بالكامل.. فهم يرفضون مدها بالسلاح، فقد تأكد هذا بعد رحلة على صبرى إلى امريكا، كما انهم يسعون لجرها إلى الاحلاف العسكرية. وهم يرفضون تقديم المساعدات الاقتصادية من اجل التنمية، بل اكثر من ذلك يحرضون البنك الدولى على رفض تقديم تمويل لقيام مشروع السد العالى.

لقد اصبح الجو مهيئا تماما لالتقاء الثورة من جديد مع اليسار على ارضية.. عدم الانحياز.. مؤتمر باندونج.. علاقات صداقة مع الاتحاد السوفيتى. تخطيط واسع للتنمية.

خرجنا من المعتقل فى ظل هذه الظروف، وكان علينا ان نعمل بسرعة لندعم هذا الاتجاه ونعمقه.. فكان ان اقمنا «دار الفكر» للثقافة والنشر حيث نجحت فى اقل من ثلاث سنوات فى اصدار عشرات الكتب التقدمية وكلها تبرز الجوانب الايجابية فى خطوات الثورة والوجه الكئيب لأمريكا «هذه هى امريكا».. «التاريخ يحذر من امريكا» وفى نفس الوقت تدعم التضامن العربى «سلسلة القومية العربية»، وتدعم قضية الجزائر «قضية الجزائر والتضامن العربى».

فى ظل هذا الجو المملوء بالحماس والاندفاع، قام عبد الناصر بتأميم شركة «قناة السويس» تلك الشركة التى تسبب حفرها، مع سفه الحكام، فى افلاس مصر، وموت آلاف من الفلاحين فى حفر القناة عن طريق السخرة وتحولت إلى وكر للتجسس.. كانت قناة السويس تمثل فى ضمير كل مصر لعنة لا يستطيع نسيانها. فالنضال ضده مرتبط بتراث من المآسى.. وبغدر امبراطور فرنسا لمصر، عندما اختاره اسماعيل باشا محكما فى شئونها، فكان قراره فى التحكيم قرار رئيس عصابة (شيخ منسر) يتعامل مع

ضحاياه.. كانت هذه المأساة هى التى دفعت «ابراهيم الوردانى» لاغتيال بطرس غالى باشا.

واستمرالنضال ضد هذه المأساة، حتى نجحنا فى اثارة القضية من جديد وشكلنا لجنة من اجل ذلك فى عام ٥١ اذكر من اعضاءها «زكى مراد واسما حليم واحمد حسين» الحزب الاشتراكى، وسعد غلول فؤاد..واصدرنا كتابا عن تاريخ القناة وما يحمله من مآسى كما دعونا إلى تأميمها. ولكن كان نصيب معظم النسخ ان اشترتها السفارة الامريكية من السوق واحرقتها.

لقد اعلن عبد الناصر بصورة بطولية ودرامية تأميم شركة قناة السويس فى مهرجان بالاسكندرية.. اعلنه بصورة مسرحية.. قدم فيها صورة كاريكاتيرية لسعيد باشا وهو يوقع الاتفاق مع ديليسبس..وفى اللحظة التى اعلن فيها هذا كانت القوات المسلحة تحتل الشركة، وانطلقت الجماهير فى حماسة مجنونة.. الناس يقبلون بعضهم فى الشوارع.. على طوال الطريق من الاسكندرية إلى القاهرة والشوارع مزدحمة تنتظرالبطل الذى رد لمصر.. قناتها.

وبقدر السعادة التى كانت تغمر الجماهير بقدر ما كانت الامبريالية والرجعية العالمية فى حالة توتر. بل أن البرجوازية المصرية اخذت على عبد الناصر عملية التأميم. وكانت ترى أن التمصير هو الحل الأسلم. اى انها كانت تريد أن تكون هى لا الشعب الوريثة للنهب الاستعمارى، وأن تكون ثمار الثورة قاصرة عليها وحدها.

وفى ظل هذا الاطار كان علينا أن نعمل من جديد، وأن نجمع صفوفنا. فالمعركة ضد الاستعمار قادمة لا محالة. وعلينا أن نأخذ عدتنا لها وأن نحول شعاراتنا التى سبق ان رفعناها إلى واقع عملى.

وكان لابد من العمل السريع، واجتمعنا نحن القياديون الموجودون فى خارج السجون- حيث انه كان هناك زملاء لنا فى السجون لم يفرج عنهم بعد- لمناقشة ما العمل؟ ومناقشة احتمال وقوع عدوان مسلح.

وبعد نقاش قصير كان علينا أن نوقف كل الشعارات ماعدا شعار واحد علينا أن نرفعه.. وهو التأييد المطلق لعبد الناصر فى معركته ضد الاستعمار.. وكان بعض المشاركين فى الاجتماع يتصورون ان المعركة انتهت بتأميم القناة، ورفعوا شعار التحذير من خلط الاوراق

بيننا وبين البرجوازية، ونسوا أن البرجوازية نفسها وأن كانت مع استرداد القناة، فإنها تريدها خالصة لها غير مؤممة.. وفى مثل هذه المواقف تكون بذور الفكر اليسارى المتطرف. حيث لا يتمكن التفريق بين مواقف الطبقة التى عليه أن يتحالف معها حتى ولو كانت بعض شرائحها غير واعية بقيمة هذا التحالف، فعليه أن يقنعها به وأن يدفعها اليه.

وبالفعل ما أن بدت نذر العدوان المسلح تبرز فى الافق حتى اتضح لهم ان جزءا من البرجوازية لا تريد التمصير ولا التأميم بل تأمل فى أن تظل الأوضاع كما هى عليه، وبالفعل فما آن بدت نذر العدوان فى الافق حتى شكلت شريحة من البرجوازية العليا وفدا منها لمقابلة عبد الناصر، لاقناعه ان ما اقدم عليه خطأ، وأن عليه أن يترك لهم الامر لتسويته مع الانجليز، اذ انهم اكثر معرفة منه بالانجليز، وكان موقفه قاطعا اذ طلب تشكيل فرقة صغيرة لاطلاق الرصاص على اى واحد منهم يحاول أن يتقدم ليتفاهم معه فى موضوع التراجع عن تأميم القناة أو التسليم بمطالب البريطانيين.

حينئذ شعرت هذه المجموعة ذات الموقف اليسارى أن موقفها خاطئ ولكنها كانت تستبعد العدوان المسلح، مبالغة منها فى قوة حركة السلام العالمى وتهوينا منها بشأن الاستعمار والرجعية المحلية.. ولكن الاجتماع التالى انتهى إلى أن العدوان واقع لا محالة وعلينا ان نتخذ عدتنا له، وأن نعرف الاجراءات التى سيتخذها الاستعمار لتنفيذ جريمته.

واستمرت المناقشة طويلا فى هذه الجلسة إلى ان قطعها احد الرفاق بشكل حاسم.. محددا ما هو المطلوب بالدقة.. مادمنا قد وصلنا إلى أن المعركة واقعة لا محالة.

ونظرالرفاق إلى بعضهم وانتهى الاجتماع إلى القرارين..

اخذ المبادرة فى مقاومة العدوان المتوقع، وحشد كل الجهود من اجل الكفاح المسلح.

تجميع اكبر قدر من المعلومات عن تحركات العدو وتجمعاته.

وكان ذلك هما القراران الذى انتهى اليهما الاجتماع، وعند مناقشة موضوع المقاومة والكفاح المسلح، واخذ المبادرة بين قوات التحالف الوطنى. توقف الجميع عن المناقشة، واستمرت المناقشة دون نقاش، ولكن مجرد نظرات فيها معنى الحيرة والمفاجأة ومواجهة موقف جديد لم يعرفه بعض المشاركين فى الاجتماع، إذ كان الاجتماع يضم قيادات لها اصول تاريخية مختلفة، بعضها سبق له الخبرة فى النضال المسلح وبعضها لم يتعرف عليها.. كنا فى ذلك الوقت اعضاء فى الحزب الشيوعى الموحد.

وبعد صمت طويل اقترح الرفيق »مبارك« اسناد قيادة العمل ضد العدوان إلى احمد الرفاعى ونظر الرفاق إلى بعضهم فى صمت طويل وكان الرد على الاقتراح الموافقة بالاجماع. وبعد أن تحول الاقتراح إلى قرار شكرت الرفاق على اسنادهم هذا الشرف لى..وانتهى الاجتماع..وبدأت مواجهة الموقف الصعب مع الزوجة.

احسست بمدى فداحة المسئولية الملقاه على عاتقى وعلى عاتق الحزب، وأن امام حزبنا ان يكتب صفحة جديدة مشرفة تتفق والطموحات التى يطرحها على الجماهير، صفحة تحول الكلمة المكتوبة إلى واقع عملى، وتمتحن فيه شجاعة الشيوعيين، وصدقهم فى مواجهة الموقف، فالعدوان واقع لا محالة والمقاومة هى المحك، وصدق المناضل يتلخص فى موقف واحد.. فى موقفه مواجهة الموت والاستشهاد.

حملت اعبائى واستأذنت من الرفاق، وخرجت من الاجتماع، حيث كان منعقدا فى احدى الغرف فى سطح منزل بالعتبة، وقطعت الطريق مشيا على اقدامى حتى المنيرة، عل المشى يوصلنى إلى حل استطيع به ان اتقدم بما انتويه إلى زوجتى، وهى المحملة بكثير من الاعباء. فقدان ابنها الوحيد وأنا فى المعتقل. موت امها فى حادث مؤلم. سنين المعتقل الطويلة التى عاشتها بمفردها فى اسرة لا تعترف بهذا الطريق، بل وترفضه وتقاومه فى كثير من الاحيان.

كنت اشعر أن زوجتى قلقة، فهى تستمع إلى الاذاعة، وما تنشره عن اجتماعات المنفتعين من شركة قناة السويس، ولقاءاتهم المتوالية فى لندن وباريس، ثم تفويضهم لرئيس وزراء استراليا »منديس« لما عرف عنه من صلافة لمقابلة عبد الناصر.. كل هذه الاخبار وغيرها تنشرها الاذاعة المصرية، والاذاعات العربية والعالمية.. ثم يلى ذلك رحيل العديد من المرشدين وخبراء الملاحة فى القناة..كل هذه الاخبار كانت كفيلة بان تجعل كل مواطن يشعر أننا مقبلين على وضع جديد.

وفى صباح اليوم التالى، ناقشت زوجتى مناقشة قصيرة تدور حول غيابى لبضعة ايام اقضيها لانجاز بعض الاعمال.. لم اترك لها فرصة للمناقشة او البكاء وانما انصرفت شبه هارب من مواجهة هذا الموقف.

اتجهت إلى منزل احد الرفاق الذى اكد لى انه وصلته رسالة من باريس عاجلة، تؤكد أن القوات الانجليزية والفرنسية تتجمع لا اذكر فى قبرص أو مالطة، وأن العدوان واقع لا

محالة.. وبذلك اسقطت حجج الذين كانوا يتصورون ان الانجليز والفرنسيين لن يقدموا على هذه المغامرة، حتى عبد الناصر نفسه كان إلى هذه اللحظة يجزم باستحالة وقوع عدوان مسلح.

اتصلت ببعض الرفاق ممن اعرفهم معرفة جيدة «ابراهيم المناسترلى وفتحى مجاهد وعبد السلام الخشان ومنير موافى ومحسن لطفى» واتجهنا إلى الاسماعيلية وهناك توقفنا قليلا فى قرية «طويحر» لاستلام بعض الاسلحة، حيث اقترح الرفيق الضابط «محمود المناسترلى» أن يقوم بنوع من التدريب السريع للرفاق على الاسلحة الجديدة المستعملة، وفى هذه الاثناء تم العدوان المسلح.. وسقطت بورسعيد.

تغيرت خطتنا، فبدلا من الذهاب إلى الاسماعيلية، فكرنا سريعا فى الدخول إلى بورسعيد المحتل المحاصرة، حيث قضى تماما على القوة العسكرية التى كانت موجودة هناك.

قبل الذهاب إلى بورسعيد انتقلت إلى الاسماعيلية حيث يعسكر «كمال رفعت » فى قرية «نفيشة» فى فيلات. صاحبها من العرب اسمه «ابو خزيم».. عرضت عليه خطتنا لدخول بورسعيد، ولكنه اسر إلينا انه سيدخلها عن طريق الاسماعيلية ولما عرضنا عليه استحالة ذلك اصر وطلب فرصة للتفكير.

وفى المساء فوجئت به يسير إلى حيث خرجنا فى مهمة استطلاعية لبحث امكانية استخدام الطريق.. وفى الطريق فوجئنا بسيارة عسكرية انجليزية تستكشف الطريق.. وفى الحال اشار كمال رفعت إلى وشخصين آخرين أن ننبطح ارضا على جانبى الطريق لتغطيته، وقام هو فى الحال وبصورة مفاجئة باطلاق النار على السيارة واستمرت طلقاتنا عليها فولت الفرار. رحم الله كمال رفعت فلقد كان بطلا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى عظيمة، كان انبل الفرسان الشجعان، كما قال احد اصدقائه فى رثائه.

عدنا إلى المعسكر.. وما كدت افاتحه، حتى ابدى عدم قناعته بدخول بورسعيد عن طريق الاسماعيلية.. وفى نفس الوقت ابدى تساؤله.. هل عندكم وسيلة أخرى لدخول بورسعيد.. ولم تكن هذه التساؤلات تحتاج اجابتها إلى تفكير، فلقد ذهبت اليه وانا اعرف تماما أنا ومن معى طريق التسلل إلى بورسعيد، إذ أن معظم الرفاق الذين معى من هذه المنطقة، ويعرفونها جيدا، وسبق ان شاركنا سويا فى محاولة لانشاء نقابة للصيادين فى الاربعينيات.

ولما شرحت له أن الدخول سيتم عن طريق المنزلة، وبواسطة الصيادين، ابدى مخاوفه ولكنه وافق مؤكدا انها مغامرة لابد أن يخوضها..ولكنه فوجئ بى وأنا اقول له.. ولكن المجموعة التى تعمل معك لا يمكن ان تصلح لهذه المغامرة.. اذ ان معظمهم من اللصوص وقطاع الطريق وممن سبق لهم العمل مع القوات البريطانية فى القنال، أو ممن كانوا يسرقون المعسكرات..وهنا ضحك كمال رفعت طويلا، وشرح وجهة نظره فى استخدام هؤلاء الناس. فأكد أنهم خير من يعرف منطقة القنال.. ولكن مقدراتهم لا تتعدى القتال الفردى فى هذه المنطقة فهم لا يصلحون للعمل فى خارجها.

وفى المساء استدعى كمال رفعت عددا من رجاله المقربين «عبد الفتاح ابو الفضل» ضابط المخابرات الوطنى الذى يعرف منطقة القنال شبرا شبرا. «صلاح زعزوع» الضابط الحر وابن الاقطاع المتمرد عليه. «سمير هريدى».. واجتمعنا سويا ومعنا محسن لطفى واتفقنا على أن نسافر إلى بورسعيد فى نفس الليلة.

لم يكن احد من المجتمعين يعرف الطريق إلى بحيرة المنزلة، حيث يوجد موقعها مباشرة فى ظهر بورسعيد واتفقنا على أن اتولى توجيه الثلاث سيارات التى كنا نستعملها، وما كدنا نصل إلى المنصورة، حتى وجدنا استحالة فى مواصلة السير فى الطريق إلى المنزلة، حيث الضباب كثيف يحول دون الرؤيا واتفقنا على أن يجرى كل واحد منا امام السيارات كدليل تركز عليه الاضواء لمسافة ٣٠٠ متر. كانت مهمة ثقيلة وصعبة حيث البرد والضباب، ولم يكن الطريق بعيدا. واستمر هذا النضال الطويل ونحن نتبادل الجرى حتى اقتربنا من قريتى »طناح« وهناك اشرت عليهم أن نقضى الليل فى القرية ونستأنف المسيرة فى الصباح. وفعلا توجهنا إلى منزل العمدة وهو ابن عمى وفى نفس الوقت زوج اختى، وكان استقباله لنا حافلا، فلقد اصر على أن نتناول العشاء ولكن الاجهاد الشديد كان يشكل استحالة دون تلبية دعوته، ونمنا كما كنا بملابسنا حتى الصباح، وبعد أن تناولنا الطعام اتصلت بعدد من الرفاق من ابناء القرية الذين اظهروا استعدادهم الكامل للاشتراك فى القتال بشرط أن ينالوا قسطا من التدريب فى اقرب مركز.

ومن الذكريات التى لا انساها اننا فى الصباح، ونحن لازلنا فى القرية، فى طريقنا إلى بورسعيد، غرست عجلات السيارة فى وحل الشتاء، وكانت هناك استحالة لانتشالها إلا

بمجهود شديد، وكانت المفاجأة ان ابناء قريتى، ومعظمهم اصدقائى وأقاربى، وقفوا يتفرجون ويتضاحكون. الامر الذى دفعنى إلى نهرهم، وفعلا تقدموا لدفع العربة.. ولكن قبل أن يقوموا بذلك التفتوا إلى احد المرافقين لى من الضباط وتهكموا عليه بشكل مرير قائلين له.. لماذا لا تأتى بالطلبة »بتوعك« ليدفعوا السيارة. والا الحكاية منظرة، فاكرين ان الفلاحينماينفعوش فى حمل السلاح.

واستفسرت منهم وهم يدفعون السيارة فكانت اجابتهم.. انهم ذهبوا إلى معسكر طويحر وإلى نفيشة وان حضرات الضباط صرفوهم، وابقوا على الافندية وقالوا لهم.. سنستدعيكم عند اللزوم.

.. قفزت إلى ذهنى فجأة قضية الطبقية، ان المعركة رغم ضراوتها، فكثيرين لازالوا فى اعماقهم يرون أن المعركة معركة المثقفين واولاد الناس، اما الفلاحين فلا مكان لهم، تلك هى المأساة التى نعيشها ، الثورة لا تثق فى السلاح فى ايدى العمال والفلاحين. ولكنها تطمئن اليه حينما يكون فى ايدى المثقفين وابناء الناس من البرجوازية، لم يكن الوقت وقت الحديث فى هذه القضية، فهذا هو جرح الثورة الذى سيظل ينزف حتى يقضى عليها، وتستسلم لشريحة من الطفيليين.

وفعلا دفع الفلاحون السيارة، وتقدم واحد منهم اعرفه جيدا هو «الشحات الصعيدى» الذى كان زميلنا فى «حدتو» .. والله الحكاية ماتنفعش من غيرنا. سيبك منهم احنا الرجالة وبس.. كفك يا راجل.. وضحكنا سويا وايضا مع الزملاء الضباط.

وما كادت السيارة تنطلق إلى الطريق العادى، حتى انخرطنا فى الضحك. وبدأت اسأل حضرة الضابط عن حكاية الفلاحين، ولماذا طردهم من المعسكر ، فكانت اجابته أن احساسه حدثه بأن الطلبة اقرب إلى فهم القضية، واقدر على تعلم السلاح ولكنه الآن من خلال تهكمات الفلاحين وعمال الزراعة احس ان المعركة اكبر منا ومن الطلبة والمثقفين.

ومضت السيارات فى طريقها من قرية طناح حتى وصلنا إلى «المطرية» وهى بلدة صغيرة، كل سكانها من الصيادين، وتقع على شاطئ البحيرة فى ظهر بورسعيد، بل هى اقرب مكان إلى مدينة بورسعيد.

وما كدنا ننزل فى المطرية، ونحتل مبنى الوحدة المجمعة، حتى كانت عيون المرافقين تتجه إلىّ. وكأنها تسألنى.. ثم ماذا بعد ذلك؟ ماذا نحن فاعلون..؟

اعرف المطرية جيدا وكذلك القرى المحيطة بها، ولكنى احسست فى القرية الكبيرة بحركة غير عادية، فلقد اصبحت مليئة بالمهاجرين منذ أن احتل الانجليز والفرنسيين مدينة بورسعيد.. صغار يهيمون على وجوههم بحثا عن اسرهم، او لقمة خبز يبتلعونها.. امهات تبحث عن صغارها.. شيوخ مسنون لا يقوون على السير.. وانشئت هناك ادارة لتسهيل حياة المهاجرين، تحت قيادة ضابط هرب من معركة بورسعيد، ووجد فى قضية المهاجرين تسلية له، قد تحفظ له وظيفته فى الجيش، وتعطيه الحق فى لبس البدلة العسكرية.

لقد كانت جميع الطرق الزراعية المتفرعة من مدينة المنزلة مملوءة بالاسر التى خرجت على عجل من بورسعيد بعد احتلالها..اطفال بلا اسر.. امهات يبحثن عن اولادهن. زوجات يبحث عن ازواجهن.. يمضون على الطرق الزراعية بلا هدف. الفلاحون يقفون على الطرق الزراعية ومعهم الخبز والجبن والبيض وكل ما يملكون تقديمه إلى المهاجرين . يدعونهم للنزول فى قريتهم. بعض المهاجرين يستقر فى هذه القرية، وبعضهم يواصل السير ليستقر فى قرى اخرى، ولو سألت احدهم لماذا فضل هذه القرية عن تلك، لما وجدت عنده اجابة.

ومع هذه الصورة تبرز صورة اخرى لبعض الضباط الهاربين من بورسعيد ، فى سيارتهم الجيب وهم يطوفون على الطرق الزراعى يوزعون الأوامر على الفلاحين والمهاجرين، وهم متأكدون أن الاهالى يكنون لهم فى نفوسهم اعمق انواع الاحتقار.. لقد اصبحت مأساة المهاجرين قضية يعيش عليها الكثيرون، وسوق لتجار السوق السوداء. الذين يستولون على انصبتهم من التموين، ليعيدوا بيعها لهم من جديد.

وفى المقابل كان الضباط الذين معنا، بعضهم يتعجل الانتقال إلى بورسعيد بشكل فيه رعونة ودون أن يعرف ماذا سيفعل.. كل ما يفكرون به مجموعة من القنابل تلقى على الانجليز أو حركة اغتيالات يقومون بها.. والبعض الاخر فى حيرة من امره.. ولا يعرف موقف القيادة من الاشتراك مع الشيوعيين.

وبعد فترة يعود الضابط الشيوعى محمد منير موافى من مقابلة مع عبد الحكيم عامر، بعد أن أوضح له عن طريق أحد كبار الضباط أن مشاركة الشيوعيين فى المعركة أصبحت شيئا اساسيا وضروريا. عاد اليوزباشى منير موافى بهذه الموافقة التى بددت تردد البعض من الضباط من قضية مشاركتهم الشيوعيين فى المعركة. وكأن الشرط الأساسى لمحاربة الانجليز، هو ألا تكون شيوعيا.. ولو تذكروا فداحة الهزيمة العسكرية فى بورسعيد

لكان عليهم أن يتعرفوا على الحقيقة، أنهم كانوا يحاربون الانجليز والفرنسيين بينما عيونهم الحذرة على العمال والفلاحين، يخشون تطور المعركة وانتقالها إلى صفوف هؤلاء، حيث سيفرض ذلك ابعادا اجتماعية لمعركة التحرير.

وفى صباح اليوم التالى وصلت رسالة من «سعد رحمى» من داخل بورسعيد، يحملها ابراهيم هاجوج من ابناء بورسعيد..وزميلى فى المعتقل فى عام ١٩٥٤.

الرسالة كانت تتضمن اشياء كثيرة.. أن هناك عشرات الجماعات التى تحاول أن تعمل ولكنها لا تعرف كيف تعمل.. بل أن بعضها يحاول أن يتخذ من المأساة التى حلت بالبلد وسيلة لاثبات مجده.

وكما قال سعد فى رسالته.. الآن يوجد أمامى «الف نصاب وكذاب زفة» اسماء المنظمات التى تدعى أنها تعمل كثيرة وكبيرة اذكر منها «الانتقاميون» «الأحرار» و«المدمرون» و«هاتاشاما» تلخيص لاسم هيئة التحرير التى ولدت وماتت فى بداية الثورة والتى كان شعارها «الاتحاد والنظام والعمل».. كلام لا يمثل شيئا فى المجتمع أو للمجتمع، ولذلك ماتت بالسكتة القلبية بعد أن افرزت عشرات العناصر المتطفلة التى لازمت الثورة وهى تئن بحملهم بعد أن نجحوا فى ضرب كل العناصر المناضلة الوطنية والوفدية والاشتراكية والشيوعية.

كانت منشورات هذه الهيئات تعبر عن القائمين بها، فهى شعارات ساذجة بعيدة كل البعد عن المعركة فعلى سبيل المثال.. اصدرت هاتاشاما منشورا على نطاق واسع. حتى الانجليز انفسهم الصادر ضدهم المنشور، لم يكونوا يفهمونه، بل كانوا يسألون الجماهير عن مضمونه.. «عودوا إلى بلادكم.. ملككم امرأة».

كان لابد من الانتقال بالمعركة إلى صفوف الجماهير، واشراكها بكاملها فى المعركة.. فالمدينة يسيطر عليها مسحة من الحزن، منازل مهدمة، جثث حيوانات متعفنة فى الشوارع. التموين على وشك النفاذ . التجول محظور مساءا. معركة التجويع تفرض على الجماهير لاجبارها على العمل مع المحتلين، جهاز السلطة انتهى وتبدد ومن تبقى منهم فى المدينة فى حماية الانجليز.. الجماهير تحس بمرارة الهزيمة وأن الجميع تخلى عنها. الصحافة ممنوع دخولها إلى المدينة. الدمار فى كل مكان. التمزق النفسى يسيطر على الجميع.

بدأنا بادخال بعض العناصر الجيدة إلى المدينة. وكانت الوسيلة هى الاتفاق مع بعض

الصيادين ممن يعرفون بحيرة المنزلة شبرا شبرا، وممن سبق لهم أن كانت لنا بهم صلات سابقة.. كان المظهر الذى يختفون تحته هم أنهم مهربون..يهربون المؤن لبيعها باثمان عالية فى المدينة استغلالا لحاجة الجماهير وفى نفس الوقت تقديم رشوة وخلق علاقات مع نقاط الحراسة التى تحاصرالمدينة... وكان المدخل الأساسى عن طريق «عزبة فاروق».

وفى نفس الوقت قام بعض الرفاق بمسح الجزر الصغيرة المتناثرة فى بحيرة المنزلة، لاتخاذها نقاط مراقبة لمعرفة تحركات العدو، ورصد حركات بعض الذين يحاولون التعاون مع المحتل.. واتخاذ مخازن لبعض البضائع التى نهربها إلى بورسعيد ومعها بعض الأسلحة الصغيرة.

وكان لابد أن ينتهى ذلك بأعداد مركز لنا فى بورسعيد قريب من البحيرة، حيث نتخذ منه مكانا لاستقبال المشاركين الجدد الذين يدخلون من المطرية إلى بورسعيد، حيث يغيرون ملابس الصيادين التى كانوا يلبسونها ويرتدون ملابس عادية تجعلهم ينخرطون فى وسط السكان بشكل عادى.. كان هذا المركز هو منزل «أم سعيد الضو البمبوطى» والذى كان يعمل قبل ذلك فى طلاء السفن. سيدة ضخمة الجثة مفرطة فى السمنة، تخطت الستين. تجلس أمام منزلها الطينى فى اطراف بورسعيد، قرب عزبة فاروق. ترعى فى جلستها قليلا من البط. تخرط له الخيار وبعض حزم البرسيم، من يراها يظن أنها جزء ثابت من المكان، أو انها تمثال جالس لا حراك فيه.

ما ان يصل إليها أى انسان ويسألها عن اسم شارع متفق عليه، ولا وجود له حقيقى، حتى تتحرك فيها حاسة يقظة، وتخرج عليه سجاير ومشط كبريت وتبدو كما لو كانت تساومه فى الثمن. لم تكن مساومات وانما كان شرحا له إلى أين يتجه ومن سيكون فى مقابلته، وفى بعض الاحيان كانت تشير على البعض أن يدخل من باب خلفى ليغير ملابسه ويتسلم منها سلاحا او رسالة.. سيدة مصرية عظيمة مثل الالاف من نساء مصر ممن يمكن أن يلعبوا دورا عظيما.

حينما اتذكرها اتذكر بعض اسماء مصريات بارزات كـ «هدى شعراوى» وغيرها.. ولكن التاريخ عادة لا يقف بباب الفقيرات. لا صحافة تبرزها. لا ثقافة تقدمها إلى الجماهير.. لا اسرة تعتز بانتسابها إليها. من الأرض أتت وفى الأرض عاشت وللدفاع عن أرضها رصدت حياتها. وانجبت لها سعيد الضو وأخوه الذى نسيت اسمه. مصريون سمر. عمال. فيهم حسم العامل وبساطته ورؤيته الصادقة الواضحة.

مرت الأيام وانتهت معركة بورسعيد. وبدأ الجميع فى العودة إلى اعمالهم بل وإلى بيوتهم، والأصح كل عاد إلى طبقته.. وإلى من يعود سعيد الضو.. إلى اسرته التى تماثل الآلاف من الاسر المطحونة. لا عنوان لها.. لا اسم لها.. يطوف على بيوت الذين عرفهم فى المعركة أو فى اعقابها.. بعضهم كان له مركز اجتماعى وحظوة عند السلطة.. الجميع يتهربون منه..

يأتى إلى لأحل له المشكلة. يحدثنى بمرارة.. نسيتم العجوزة أم سعيد الضو لسه عايشة وبتسأل عنكم. وبعد أيام يعود إلى بوجه باسم. فأسأله.. هل وجدت عمل يـ سعيد.. فتتسع ابتسامته وتكون الاجابة بالنفى.. طبعا لا.. ويستطرد موجها حديثه إلىّ.. يظهر انك مش منهم زى حالتنا، مش منهم ليه يا سعيد.. بيوتهم كبيرة وعليها حراس. بيتك لا حراس ولا دياولوا. ادخل على طول. يظهر أنى اللى راح اساعدك.

نضحك سويا وتتوثق علاقتنا.. ويبتعد تماما عن كل الذين كان يذهب إليهم وكان يظنهم اصدقاءه. وتزداد علاقته معى ارتباطا وثقة. وبعد شهور يعود من بورسعيد وأراه من جديد. نظارة برسول. حزام عريض. قميص ملون.. انظر اليه باندهاش.. ما هذا كله يا سعيد.. ويبتسم ويخرج فلوس من جيبه.. انا باشتغل الآن. ايدى تكسب دهب. ادهن من جديد سفن باليومية. واتجوزت البنية. فاكرها..ويغرق فى الضحك.. كانت زمان فاكرانى اصبحت من الحكام.. ويعلو صوته بالضحك والتهكم على نفسه.

كنت أتذكرها جيدا رغم بعد المسافة والزمن.. كان يختفى فى بعض الاحيان لمدة ساعات أثناء معركة بورسعيد. ثم اراه فجأة. واسأله.. كنت فين يا سعيد.. ويبتسم.. كنت مع الحتة بتاعتى.. ولازلت أتذكره عائدا بعد غيبة من هذه المقابلات ساخطا لاعنا. اسأله عن السبب. فيكون رده.. المجنونة عاوزانه نتجوز الآن.. وما هو المانع يا سعيد.. ألا ترى الخراب والدمار والموت. ولكنه لا يلبث أن يبتسم ويعود مرحه من جديد. ويذهب ليعود بكمية من الصيد شواها عند امه. ويبتسم .. هدية أم الضو للرجاله.. بسم الله يا رجاله.. ولا ينتظر أن نبدأ ونجد انفسنا فى لهفة، تتسابق ايدينا إلى السمك الصغير المشوى المملح. له طعم خاص، ويثير الشهية. وطوال الأكل لا يمل الحديث عن أم الضو وعن الغليون اللى اشتغل عليه فى «بيريه» فى اليونان.

وأعود مرة أخرى إلى عملنا فى بورسعيد. ولعله من الغريب أن هؤلاء السكان لازالوا يحتفظون بلهجتهم العربية الاصيلة التى لم تتأثر باللهجة المصرية. مما يؤكد أنهم عاشوا فى داخل هذه الجزر بمعزل تماما عن سكان القرى المجاورة. فهم ينادون مثلا يا فاطمة ولا يقولون يا فاطنة.. وينطقون القاف مقلقلة صحيحة، وانسابهم يعودون بها إلى اسماء القبائل العربية الأولى التى نزلت إلى المنطقة، مثل بنى تميم أو النجديين. وهم يعيشون عيشة تكاد تكون بدائية، يربون الابقار والجاموس بالمشاركة مع سكان القرى ويعيشون على البانها، وعلى الاسماك التى يصطادونها من المناطق الضحلة فى صناديق تشبه المراكب.. جزر جميلة، بقليل من الاهتمام كان يمكن أن تكون من أروع الأماكن السياحية.

حددنا فى هذه الجزر أماكن تصلح لمراقبة الطيران البريطانى، وتخزين السلاح، وتموين القوارب التى ستحمل الافراد الذين يعد ترتيبهم لدخول مدينة بورسعيد.

وفى ليلة وبعد منتصف الليل ركبنا احد المراكب الشرعية ومعنا كدليل »سعيد الضو« والضابط »محمد ابو نار« و»صلاح زعزوع« و»سمير هريدى« والفنان »عبد المنعم القصاص« وآخرون لا اتذكر اسمائهم. وتصل المركب محملة بالليمون والطماطم والسمك وبعض الطيور البحرية. وما أن وصلنا حتى عرضنا بعضها على افراد منطقة الحراسة من الانجليز فى عزبة فاروق. وكان معظمهم من الشباب الصغار الذين لا يتجاوز سن اكبرهم العشرين.. بمجرد مناقشة صغيرة تختفى من على وجوههم مسحة العدوان، ويتحولون إلى اطفال يتبادلون النكات مع المواطنين بل اكثر من ذلك كان بعضهم يلعب الكرة الشراب مع اطفال عزبة فاروق.

المدينة تعيش فى كآبة صامتة.. بيوت مهدمة. بعض الاسر تعيش بالقرب من منزلها المهدم، وتواصل حياتها بجواره كما لو كان منزلها المهدم هو المحور الذى تتجمع حوله الاسرة، يطبخون ويأكلون ويغسلون ملابسهم، يعيشون فى خيام صغيرة من البطاطين وملاءات الاسرة، يتجمعون حول نار يوقدونها فى بعض بقايا اثاث الاسر المهاجرة ليحموا انفسهم من برد ديسمبر القارص. ومن حين إلى آخر تتقدم بعض القوات البريطانية لتفتيش هذه التجمعات الصغيرة، ولتهدم خيامهم التى لا يلبثون أن يقيمونها من جديد.

لقد انتهى حى المناخ وتجمع الاهالى فى الحى العربى. وفى عزبة فاروق وفى القبوطى حيث انتشر بين سكانها جميع الذين هربوا من السجن حينما اسقطت الطائرات إحدى قنابلها عليه.

ولكن سرعان ما وحدت المحنة بين الهاربين من السجن والاهالى، ولم تقع آى جريمة عدوان أو سرقة، بل فى أوقات المحنة ظهر منهم مقاتلون جيدون.

بدأنا الانتشار فى المدينة، بعد أن اخترنا بعض البيوت للسكن فيها وكان معظمها فى الحى الافرنج حيث لا تحوم شبهات حول سكانه، إذ أن معظمهم من الاجانب أو من الاسر الثرية، التى لا ترتاب فيها القوات المعتدية، ريبتها فى سكان الاحياء الشعبية.

ولكن كان السؤال الذى يطاردنى فى هذه الفترة. كيف نعمل؟ رفاق متحمسون، ولكن ما العمل؟، لا سلطة فى المدينة، لقد تبددت مع الانزال، لا تموين، لا صحافة، الناس بمعزل عن بعضهم تماما. لقد انقطعت اواصر العلاقات.. الكراهية عميقة لرجال الحكومة الذين تخلوا عنهم فى ساعة المحنة ولاذوا بالفرار وبالذات رئيس المباحث الذى هرب بعد أن سلم اوراقه للقوات البريطانية ليواصلوا مهمته فى مطاردة الوطنيين.

كان لابد من الخروج من هذه الحالة، واشعار السكان انهم شعب له قوته وقدرته على النضال، حتى ولو فقد الثقة فى حكامه.. وعلى الفور قررنا اصدار مجلة اسميناها «الانتصار». اعدت اكليشيهاتها وبعض موادها فى »دار الفكر« وتوليت اصدارها ومعى «عبد المنعم القصاص».. واقمنا كذلك لجنة لتنظيم التموين ومنع وصوله إلى القوات المحتلة.. ولجنة تتولى الاتصال ببقايا التنظيمات النقابية والشعبية لتحييها من جديد.. ولجنة تتولى التحريض ضد قوات الاحتلال، وبث الرعب فى نفوسهم.

ولجنة تتولى أعمال العنف والقنص ضد القوات المعتدية.

كانت بداية عملنا اعادة الثقة للجماهير فى نفسها، وفى قدرتها على الوقوف من جديد وأن توضح لهم أن العناصر التى تخلت عنها فى وقت المحنة لا يمثلون مسيرة الشعب، وعصاة لعبد الناصر وارادته فى مواصلة النضال.. وكان على رأس هؤلاء العصاة محافظ المدينة المستسلم.

ورئيس قلم المباحث الذى ادعى أن رجله قد اصيبت ووضعها فى الجبس، وولى هاربا تاركا مدينة بورسعيد، بعد أن اعطى للانجليز جميع ملفاته الخاصة باسماء الشيوعيين والديمقراطيين من أبناء المدينة.. هذا إلى جانب عشرات الضباط الذين اهدروا الشرف العسكرى، وهربوا بعد أن تركوا كل الأوراق والخرائط الخاصة بالمعركة، والتى قام الضابط منير موافى بجمعها أكواما وحملها فى سيارة حتى لا تقع فى أيدى القوات المعتدية.

واللجان التى انشأناها لتنظيم التموين أو التحريض ضد العدو أو ممارسة أعمال العنف، لم تأت من فراغ، وانما حرصنا على أن نضع فيها كل من كان يمارس هذا العمل ، حتى قبل احتلال المدينة.

فعلى سبيل المثال فإن لجنة تنظيم التموين، ضمت عناصر لهم سابقة عمل فى ذلك المجال.. بل بدأنا فى البحث عنهم فى كل مكان وتجميعهم من جديد.. حقيقة لقد انهار جهاز السلطة فى المدينة.. ولكن من الخطر أن تستمر المدينة بلا جهاز.. وكان الحل هو استبدال جهاز منها بآخر فتى، يستفيد من خبرة من سبق لهم العمل فى هذا المجال.

كانت اللجنة التى تقوم بهذا العمل تحرص اساسا على أمرين أساسيين:

اولهما.. مكافحة أى محاولة لخلق سوق سوداء فى أقوات الشعب، أو الاستفادة من المأساة التى تعيشها الجماهير.

ثانيهما.. عدم وصول أى سلعة للعدو، حتى يشعر بصعوبة الحياة فى المدينة.

ومن هنا كانت النشرة اليومية التى تعلق فى كل مكان فى المدينة، محددة اسعار السلع أو تنشر فى مجلة الانتصار.

فعلى سبيل المثال نشرنا فى مجلة الانتصار الآتى:

اشتر بهذه الاسعار

اصدرت مراقبة التموين هذه اللائحة التى تضم جميع اسعار الخضروات

الطماطم ٢٥ مليم للاقة

بطاطا ١٥ مليم للاقة

بطاطس محلية ٢٠ مليم للاقة

بطاطس هولندية ٤٠ مليم للاقة

كوسة ٢٥ مليم للاقة

سبانخ ٢٠ مليم للاقة

الباذنجان ٢٠ مليم للاقة

قلقاس ٢٥ مليم للاقة

كيروسين ١٩٠ مليم للتر

كانت اسعار السلع تنشر يوميا، وتقوم اللجان بمراقبة الباعة والسوق وبذلك استطاعت بورسعيد فى ظل المحنة، أن تتجاوز شراسة السوق السوداء، والعناصر المتطفلة التى لم تنجح فى تكوين هيئة أو شريحة تتحكم فى أقدار الناس.

وإذا كانت لجنة التموين قد نجحت فى تحديد أسعار السلع، فلقد نجحت ايضا فى منع السلع من الوصول إلى أيدى الأعداء، بل كان الأهالى أنفسهم حراسا لهذه العملية. فلقد حدث أن قام أحد التجار ببيع كيروسين إلى الانجليز، متحديا قرارات لجنة التموين، وجريا وراء الكسب السريع، فما كان من الأهالى من ابناء حية، إلا أن قاموا بحرقه حيا بعد أن اوثقوه بالحبال وصبوا عليه الكيروسين.

انتقام قاسى وسريع، ولكنه عادل فى ظل الحرب والاحتلال.

لم تكن كل السلع متوافرة فى المدينة، ولكن الحد الأدنى كان موجودا، وإذا اردنا تحديدا لاسباب هذه الظاهرة فهى تكمن فى أن اللجنة وحدها لم تكن هى السبب. وإنما ايضا يقظة جهاز الدولة فى المناطق المتاخمة لبورسعيد، وحيلولتها دون تسريب الطفيليين للاستفادة من المأساة، فالعناصر الطفيلية لا يمكن أن توجد إلا بمباركة من جهاز الدولة الذى يحولونه لصالحهم، أما فى هذه الفترة فهذه العناصر كانت ترتعد فرقا رغم الآمال التى كانوا يعلقونها على عودة الانجليز.

كان بعضهم يراهن على انتصار الانجليز، واسقاط عبد الناصر، بل بعضهم يقسم أنه فى أول جولة سيقدم كل التسهيلات للانجليز «نار الانجليز، ولا جنة عبد الناصر» ولقد احسن عبد الناصر صنعا بأن وضع معظم قيادات هذه العناصر فى المعتقلات ممن ثبت عليهم التواطؤ مع الانجليز.

وإذا كانت لجنة التموين قد نجحت فى عملها، فإن لجنة المحافظة على الأمن - أمن المواطن- قد نجحت هى الاخرى. إذ كانت باستمرار تحذر من الاعتداء على الأرواح أو الممتلكات، وتدعو إلى الوقوف ضد أى فتنة تستغل ضد الأجانب، بل وتبذل قصارى جهدها فى التعاون مع البقية الباقية من رجال الشرطة فى المدينة وتنشر مجلة الانتصار بياناتها مؤكدة ذلك، إذ تقول:

«لقد تعودنا من اعدائنا الاستعماريين، أنهم حيث يفشلون فى العدوان المباشر على سيادتنا، أن يحاولوا تحقيق اغراضهم بأحط الوسائل والأساليب ولذلك وجب علينا، وعلينا نحن ابناء

بورسعيد على وجه الخصوص، أن نتكاتف لسد أى ثغرة يحاول العدو أن ينفذ منها.

- علينا أن نحافظ على الأمن فى مدينتنا متعاونين مع قوات الأمن.
- علينا أن نمنع أى اعتداء على الارواح أو الممتلكات.
- علينا أن نحبط أى مؤامرة لاشعال فتنة داخلية ضد الاجانب.
- علينا أن نقطع دابر أى مؤامرة ترمى إلى بث البغضاء بين الحكومة والشعب. أو بين البوليس والاهالى أو بين الجيش وسائر المواطنين.

إن كل الانتصارات التى حققناها لم تتم جزافا، وانما تمت لأننا خضنا المعركة متحدين، وإن المحافظة على ما احرزناه من مكاسب، يحتم أن تستمر هذه الوحدة.. هكذا تعلمنا من خبرة معركتنا الدامية، هكذا تعلمنا من خبرة سائر الشعوب التى انتصرت فى معركة الحرية.

إن الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية تكونت فى خضم المعركة، وشاركت فيها ببسالة وشرف، وساهمت بجدارة فى تحقيق الانتصار. وأن استمرار جبهتنا المتحدة فى كفاحها، واستمرار تدعيمها هو الضمان الأول لتحقيق انتصارات جديدة ولتخطى كل ما يعترضنا من عقبات.

إن طريقنا طويل، وعدونا غادر متربص، وأن صمام الأمان الوحيد هو أننا جميعا الشعب والحكومة والجيش نلتف حول أهدافنا التى لن نحيد عنها. وحول القائد جمال عبد الناصر، رمز مقاومتنا الشعبية الظافرة».

كان ذلك باستمرار هو موقف الجبهة فى معركة بورسعيد ، بقيادة الشيوعيين، لم تفقد ولو لحظة واحدة حرصها على توحيد الجميع، وحشد كل الامكانات، وابراز جمال عبد الناصر كرمز للمقاومة، وذلك رغم ما كان البعض يثير من خلافات مفتعلة، ولكن بالصبر وضبط الاعصاب، استطعنا ترويض هذه العناصر، حتى مضى الجميع فى صف واحد خلف الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية.

لم يكن نشاطنا قاصرا على التموين، وتأمين المواطنين، ومحاربة كل أنواع الفتن والمؤامرات، وانما امتد إلى محاربة الروح الانهزامية ومحاصرة دعاة الاستسلام، عن طريق التحريض والدعاية وتعبئة الجماهير، ومعرفة خطط العدو، بل والدخول إلى معسكراته، وحرمانه من بعض قواته، إما بالقتل أو بدفعهم على الهرب من صفوفه.

إن المأساة الحقيقية التى يعيشها أى شعب هى أن يشعر كل فرد فيه أنه يعيش مأساته بمفرده، وأن يفقد انتماءه إلى المجموع، وأنه بمفرده عليه أن يواجه عدوا باطشا منظما مدججا بالقوة والسلاح، وأن يصل إلى مرحلة ما يمكن أن يسمى بفقدان الاحساس أو المساهمة فى الرأى العام.

ذلك هو ما نجح فيه المعتدون، وساعدهم على ذلك بقايا جزء السلطة المستسلم النهار.

بدأنا الاتصال ببقايا التشكيلات، التى كانت قائمة قبل العدوان.. لجان نقابية لجان طلبه.. نوادى تمثل النوبيين والسودانيين واليونانيين. كان الاتصال بهم لا يتوقف ليلا ونهارا حتى نجحنا فى استعادة بعضهم إلى المعركة.. وبعد أن ايقنا أننا وصلنا إلى تجميع بقايا هذه الهيئات، تم الاتفاق على أن تقوم بمظاهرة فى المدينة المحتلة ليشعر العدو أن الشعب موجود فى المقاومة، ولتشعر الجماهير بقوتها، وأن ما بقى فى المدينة من سكان قادر على المقاومة بل وانزال الهزيمة بالعدو.

وكان الموعد الذى حددناه هو يوم الجمعة فى جامع الرحمة، عقب الصلاة وأعلنت الجبهة عن موعد المظاهرة ووزعت البيان التالى:

نداء من جبهة المقاومة الشعبية

المتحدة ببورسعيد

أيها الشعب المناضل..

مهما تجمعت قوى البغى ضدنا، فالنصر حتما فى جانبنا، إننا إلى جانب الحق، ونقاتل من أجل قضيتنا العادلة.. إن الرأى العالمى كله فى جانبنا، الاتحاد السوفيتى.. الصين الشعبية.. الهند.. وكل الدول العربية.. حتى الشعوب فى انجلترا وفرنسا تعارض حكوماتها المجرمة.

أيها الشعب المناضل..

لقد ضحيت وكافحت، وكان قرار الانسحاب ثمرة نضالك وكفاحك العتيد المتواصل.

ايها المواطنون..

فلتسر هذه الجنازة الصامتة، التى ستخرج عقب صلاة الجمعة مباشرة فى هدوء ونظام. لتكون تعبيرا صادقا عما نكنه لشهدائنا الابطال، وليعلم المستعمر أن شعب بورسعيد البطل لن يهدأ أبدا، ولن ينحنى أمام الطغاه.

تحيا ذكرى شهدائنا الأبرار يسقط الاستعمار عدو الشعوب

عاشت وحدة الشعب والحكومة والجيش تسقط اسرائيل اداة الاستعمار

جبهة المقاومة الشعبية المتحدة ببورسعيد

قام الرفاق من اعضاء الجبهة بتوزيع المنشور قبل الموعد المحدد بأيام أذكر منهم أحمد حجازى، ابراهيم هاجوج، منير موافى، الشيخ عبد السلام الخشان، وغيرهم ووزعت المنشورات على المنازل باليد وعلى المحلات التجارية.. على بقايا رجال البوليس وعلى بقايا الجيش.

وفى اليوم المحدد كانت المفاجأة أن بقايا أجهزة السلطة التى سبق أن استسلمت للعدو، جذبت إلى صفها بقايا "هيئة التحرير" (هاتاشاما).. وأنشأت هيئتين وهميتين أخرتين وأصدرت المنشور التالى، داعيا إلى السكون والاستسلام.

بالاشارة إلى المنشور الموزع اليوم للقيام بمظاهرة احتجاجا على الاعتقالات، التى قامت بها قوات الاعداء التعسفية، وبناء على رغبة السيد محافظ القنال بمنع التظاهر، حرصا على صالح المدينة فى هذه الظروف العصيبة، وبعد الاتصالات بالمسئولين بخصوص الافراج عن المعتقلين، فقد الغيت مظاهرة اليوم وليطمئن كل مواطن على المعتقلين، فسوف يفرج عنهم فى أقرب وقت، حيث أنه تجرى مفاوضات مهمة بشأنهم.

المقاومة المسلحة

هاتاشاما

الهيئة التنفيذية للاتحاد

لقد أحسسنا ببداية التخريب، المستسلمون يحاولون أن يعيدوا العجلة إلى الوراء ورغم ذلك تجمع حشد كبير لا بأس به من أبناء بورسعيد حول جامع الرحمة وما أن شعر محافظ المدينة بذلك، حتى حضر إلى المسجد، ودفع بأحد رجال الدين ليعتلى المنبر، ليوجه نصيحته إلى المواطنين بعدم تعريض أنفسهم للهلاك وقرأ بصوت منغم متهدج الآية الكريمة "ولا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة".

وما أن ألقى خطبته حتى ارتفع الهتاف أمام المسجد بسقوط الاستعمار وبحياة ناصر.. وتقدم المحافظ ليرهب المشتركين، ولكنه فوجئ بشاب من بورسعيد, يلقيه أرضا

ويدوس عليه بالحذاء وهو يهتف بسقوط الخونة والمستسلمين ذلك الشاب هو الرفيق "ابراهيم هاجوج" عضو حزبنا.

مرت لحظة تردد وصراع بين طليعة المظاهرة، وعناصر الفتنة والاستسلام وفي الحال تقدمت سيدة من بين الصفوف، لا يعرف احدا لها اسما أو عنوانا.. سيدة فارعة الطول، وجذبت العلم ورفعته وتقدمت الصفوف في وسط حشود الانجليز وهي تهتف الثأر الثأر.

يسقط الاستعمار دماء ابنائنا لن تروح هدرا.

لقد انفجر البركان، وجن جنون الناس وهم يهتفون.. العشرات والمئات يندفعون من الشوارع الجانبية، المظاهرة تسير كالنهر الهادر بلا نظام، عشرات اللافتات ترتفع في السماء، تحمل اسماء هيئات تصور الناس أنها ماتت أو أنها لم تعد موجودة.

مضى النهر الهادر من مسجد الرحمة.. في شارع صفية زغلول .. في طريق المقابر.. لقد أحس الانجليز أن الجماهير شيء ضخم، لم تكن قوتهم قد أعدت العدة لمقابلته.. آلاف الطفال يحرسون المظاهرة.. أكاليل الزهور تتقدم المظاهرة.. الميكرفون يذيع الاناشيد الوطنية.

تحت علمنا الحر الاخضر راح تمشى الملايين

حس الانجليز بدقة تنظيم المظاهرة، وضخامة الحشد بحيث يصعب أن يقال أنه بقى في منازل بورسعيد شخص لم يشارك في المعركة أمهات آباء أطفال رجال نساء بورسعيد بأكملها.

الانجليز يحسون ضخامة الحشد. يقفون بمدرعاتهم على اطراف المظاهرة، المظاهرة تمشى في طريقها المرسوم، حيث تعقد مؤتمرها في المقابر، حيث الشهداء.. وحيث الجثث لاتزال حية.

يسرع الانجليز لايقاف هذا السيل، يرسلون بطائراتهم لتحلق قريبا من رؤوس المؤتمرين في المقابر، الناس لا يتحركون.

السؤال الذي يقفز إلى ذهني في الحال ماذا علينا أن نفعله الآن، انها اللحظة الحاسمة.

جماهير مصرة على القتال.. مدرعات مصوبة ببنادقها ومدافعها نحوها، طائرات تكاد تلامس الرؤوس.. أبواب المقابر مفتوحة وتظهر منها الجثث.

ولم أجد بدا من أن أصعد فوق أحد المقابر لأخاطب الجماهير باسم الجبهة ولنعلن اصرارنا على الكفاح. ورفض الهزيمة ولنقسم سويا أمام شهدائنا على المواصلة.

الأم تقسم أمام قبر ابنها الشهيد

الاب يقسم أمام قبر ابنه الشهيد

الزوجة تقسم أمام قبر زوجها

الزوج يقسم أمام قبر زوجته

الصديق يقسم أمام قبر صديقه

الابن أمام قبر أمه وأبيه

كان القسم يمضى، وكأنه رصاص مصوب إلى العدو. الانجليز تأخذهم الدهشة.. الشباب يعود إلى البلد المهزوم.. لقد تم القسَم وبدأ على الفور فى نفس المساء تحطيم قرار حظر التجول.

فى الواحات

الرمال الصفراء تمتد بعيدا إلى ما لا نهاية، فى موجات صفراء كلها تتشابه فى خطوطها وانكساراتها والشمس تنعكس اشعتها على هذه الرمال فى دوائر صفراء تتسع وتضيق، ولكنها لا تلبث فى النهاية أن تجبرك على أن تغلق عينيك مللا وبلادة.

وعلى هذه الرمال وتحت اشعة الشمس يجلس طابور طويل من العراة تحيط بهم خيول يمتطيها عدد من الضباط ومعهم عدد من الجنود، وبعيدا بعيدا يجلس عددا من القناصة على مدافعهم وبنادقهم المصوبة إلى هذا الطابور من المعتقلين. مثقفون، محامون، اطباء وقادة نقابيين، قيادات بارزة من العمال والفلاحين، ومعظمهم ممن خاضوا المعارك الوطنية فى مواجهة الملكية والاقطاع واسقطوا مشروع صدقى بيفن. وبعضهم ممن حمل السلاح فى معارك القنال فى عامى ٥١ و٥٦.

وفى مواجهة هذا الطابور تقوم استراحة بسيطة جميلة يجلس عليها مجموعة من الضباط، يتوسطهم ضابط صغير الحجم، شركسى السحنة، انفه مثل المنقار يضع عليها نظارة معدنية، ويمسك بيده منشة صغيرة يحركها بشكل انثوى، ويحاول بين لحظة وأخرى أن يشد جسده حتى لا يتلاشى فى وسط اجساد الضباط الفارهة، ليؤكد رجولته التى

جرحتها شائعات كثيرة حول اسباب طرده من القوات المسلحة.. ومن حين إلى آخر تدور عليهم اكواب من المثلجات، وترتفع بعض الضحكات.. واحس مع هذه المرطبات ان العطش يكاد يزهق روحى، مع بقايا الدم التى تسيل من فمى.

ويخيم على الطابور صمت حزين، واحس بمرارة تملأ فمى، ورغبة شديدة فى القئ.. ولكن شغلنى عن كل ذلك هذه الدماء التى تتدفق بغزارة من ذلك الجسد الملقى على الارض والذى يضع رأسه على رجلى، والذى لا تربطه بالحياة سوى هذه الآهات المكتومة التى ترتفع من صدره بين لحظة وأخرى. وأمد يدى امسك ذراعه التى لا تربطه بجسده سوى جلده رقيقة، بعد ان حطمت العصى الغليظة عظامها وبرزت من بين اللحم والجلد.. أننى امسكها بيدى وكأننى احتضن عزيزا سيوارى التراب بعد قليل.

ينزل همت من على المنصة، ويدور على صفوف المعتقلين العراة، يتحسس اجسادهم، ويتأمل كافة اعضائهم، ويتوقف أمام بعضهم يتأملهم بصورة تبعث الحمرة فى وجوه الضباط.. وبعد هذا الاستعراض الغريب يعود إلى المنصة من جديد..

ومن خلال هذا الصمت، وبعد بعض الضحكات الناعمة يرتفع صوته وهو يستفسر فى خشونة انثوية، هل الدكتور موجود؟ العروسة موجودة؟ شاويش الجلد موجود؟

ويرد عليه احد الضباط فى صوت مكتوم.. كل شىء موجود ياافندم.. ويمط رئيسهم الشركسى جسده النحيل، وبصوت يتصنع فيه الهدوء والتعالى يصدر أوامره.. فين الدكتور عليش.. وينصب فجأة شخص اسمر الوجه سمرة تميل إلى الخضرة، مكور الجسد، قصير القامة، مقوس الساقين، وعلى وجهه ذعر دائم وفى يده حقيبة صغيرة ويرد بصوت مرتعش.. موجود يا أفندم.

اكشف على المصابين اولا قبل الجلد.. حتى تتم الاجراءات بشكلها القانونى السليم.. على فكرة يا عليش، الولد اللى اسمه جمال غالى ده ذراعة بايظة خالص ممكن تقطعها وتريحه من العذاب.

واحس بنفسى احتضن جمال وترتفع الاصوات من هذا الطابور المخضب بالدم.. لا .. لا .. لا.

ويتقدم عليش فى خطى رتيبة نحو جمال وصفرة باهتة تعلو وجهه، ورعشة سريعة حول فمه، ولكنه ما يكاد يسمع الاصوات حتى يتوقف فى منتصف الطريق وكأنه اصيب بالشلل.

ويسود صمت قاتل رهيب ويتوقف السجانة فجأة عن الضرب وتتحول الانظار إلى

شخص انيق يرتدى بدلة كاملة، طويل رقيق يصرخ بأعلى صوته.. مش ممكن ده يتم، اعطونى المريض، لن اسمح بقطع ذراعه، ابتعد يا عليش من طريقى، انتم مجرمون، قتلة، خلاص لا استطيع الصمت، كفاية.. كفاية.. سنتين نسيت فيهم الطب، تحولت الى جلاد، تعذبون وتبطشون وتقتلون.. وتزورون شهادات طبية، انهم ماتوا بالمرض، سامع يا عليش. سامع يا همت، المأساة لن تستمر، لن نقطع ذراع المصاب.. ويتقدم بخطى واثقة ويحتضن جمال.. اعطوه لى، انه مريضى، لن نقطع ذراعه، انا حالف اليمين يا ظلمة.. ويقفز فجأة ويحتضن جمال.. اعطوه لى لن نقطع ذراعه أنا حالف اليمين.

ينظر الضابط الشركسى الى زملائه ويتحول وجهه الى قطعة من القماش الابيض ويتمتم بصوت مسموع.. ما هذا يا دكتور عليش ألست كبير الاطباء.. وتتعثر الكلمات على شفتى عليش، وتخرج منه اصوات غير مفهومة وغير مسموعة، ويرد الدكتور الشاب فى ثورة عارمة وفى كلمات مختلطة. دا مش دكتور، دا جزار، انا شاهد على كل حاجة، انا لازم ابلغ النقابة... ويتلعثم الضابط الشركسى وتصدر عنه كلمات لا يفهم منها غير.. يظهر ان الدكتور فؤاد متعاون مع الخونة، وتأتى المفاجأة الاخرى من جمال .. ذلك الذى كان الى لحظة قصيرة ممددا على الارض من كثرة الدماء االتى نزفت منه، فينتصب واقفا اصفر الوجه، وعظام ذراعه بارزة من اللحم، وشعره ملبد بالدم، وذراعه تهتز فى حركة لا علاقة لها بجسده، اذ لم يعد يربطه بجمال سوى جلده رقيقة، ويأتى صوت جمال عاليا.. احنا مش خونة يا همت، احنا وطنيين، احنا اللى عملنا معارك كوبرى عباس، احنا الفدائيين بتوع القنال، احنا الشعب، احنا اللى هاجمنا الملك اللى انت كنت خدام له انت وامثالك، ويتقدم الدكتور فؤاد ويندفع نحو جمال ويحتضنه، ذراعك لن تقطع يا جمال، انت مريض، انا دكتورك، ويرتبك الضباط، ويضطر السجانة ويخفضون فى خجل عصيهم التى كانت منذ لحظة قصيرة ترتفع وتهبط على رؤوس المعتقلين، تفجر الدماء من الرؤوس الحليقة.. ويهمس ضابط كبير، منتفخ الوجه، ذو كرش كبير كان مديرا فى تلك الفترة لليمان ابى زعبل الذى يتبعه سجن الاوردى، كنا نعرفه جيدا، رجل طيب القلب، ضعيف الشخصية فى مواجهة رؤسائه، ربما كانت حياته الخاصة العائلية فيها الكثير من اللمسات الانسانية، ولكنه بحكم السن والمهنة اصبح اسير لقمة الخبز، ثم يرتفع صوته مرطبا الجو.. انت أخذتها جد قوى يا دكتور فؤاد، خد المريض بتاعك يا سيدى، والبيه موافق.

ويحتضن الدكتور فؤاد جمال ويمضى به بعيدا فى اتجاه مستشفى السجن لذى يبعد حوالى ٢ كيلو بين الرمال والصخور.. ويسال عن السيارة لنقله مع المريض ولكن يرد همت.. كفاية كده انت عاوز تركب الشيوعيين سيارات كمان. دا غيرنا بيحرقهم بالنار.. ويمضى الدكتور وأقدامه تغوص فى الرمل محتضنا جمال الذى لا يقوى على السير.

وتتبعهم انظار المعتقلين حتى يبتعدوا فى جوف الصحراء ويتحولوا إلى نقطة حمراء... ولكن رغم اختفائهم تظل هذه النقطة الحمراء تتسع وتتسع حتى أراها بحيرة واسعة تحتوى الصحراء، واتحسس رأسى فأجدها ايضا نقطة حمراء من الدماء..وانظر على من امامى من الرفاق فأجد كلا منهم ايضا نقطة حمراء من الدماء.

وتعلو همهمات بين السجانة، وتنخفض عصيهم، ويشعر الضباط على المنصة ان النظام الذى وضعوه لمجزرة اليوم، قد ينفرط عقده، وخاصة بعد أن ارتفع صوت سجان عجوز، وهو بين البكاء والصراخ.. وحد الله انت وهو.. وحد الله انت وهو .. لقد انفرط عقد النظام، وتحولت وجوه السجانة الى زميلهم الذى اوشك ان تعاوده موجة التصوف والخوف من الآخرة.

وهنا ينطلق صوت البروجى عاليا فى الصحراء، كبومة تنعق فى الخراب، يتبعها صوت همت.. ابدأ الجلد يا شاويش ريحان ١٦ جلدة.

ويبدأ نداء الاسماء "شحاته عبد الحليم"، ويقف شحاتة بجسمه الاسمر الطويل العريض، يقف سائق الترام كصخرة جامدة، ويتردد السجانة امامه ثم يهجمون عليه، ولكنه يرد بصوت هادئ.. لا داعى لهذا كله.. ويتقدم إلى العروسة، ويضع رأسه فى الفاتحة المعدة لذلك وتقيد اقدامه ويداه إلى العروسة.. ويبدأ الجلد.

ويرتفع الصوت من جديد....

"ابراهيم عبد الحليم، اسماعيل المهدى" وتهوى الكرابيج على الاجساد وتنفجر الدماء، ويصبح همت فى حنق، الجلد مش كده يا شاويش ريحان.. ايدك طرية، انا عاوزه يتأوه ويتلوى زى المرة.. ويقول انا فعرضك يا جمال عبد الناصر.

ولكن يفاجأ همت أنه لا يسمع الاصوات المطلوبة.

وينادى من جديد على اسمى..

أحمد الرفاعى.. وضبه يا شاويش الواد بتاع السجن الحربى، عاوزه يعرف أن الحكومة عندها حديد ونار ورجاله.. عد ١، ٢، ...... ١٦ العد غلط يا شاويش، ارجع من الاول.

وتستمر هذه المجزرة حتى يتم جلد ٦٠ معتقلا. عراة كما ولدتهم امهاتهم، اجسامهم ملطخة بالدم مضربون عن الطعام، لم يتناولوا الطعام من ستة عشر يوما. وتأتى الخيول الجامحة تعدو من بعيد مجنونة بضباطها وتدوس صفوف المعتقلين المجلودين الجائعين المربوطين فى السلاسل، وتنطلق بعض الرصاصات فى الهواء.

ويعود الهدوء من جديد ويبدأ همت الحديث.. الجلد انتهى يا شاويش، وضب المحضر يا حضرة الضابط، وتمم كل الاجراءات القانونية.. ثم يرتفع صوته من جديد منذرا مهددا وهو منفوخ الصدر واقفا على اطراف اصابعه.

مافيش جرايد.. مافيش ديمقراطية..

مافيش زيارات.. مافيش كفاح مسلح.

مافيش حريات.. مافيش تنظيمات لا سرى ولا علنى

مطالبكم مرفوضة.. مافيش الا فك الاضراب او تموتوا زى الكلاب، انتم قاعدين فى لوكاندة يا كلاب، انتم فاكرين انكم حتخرجوا.. انتم غلطانين.

ويرفع أحد الرفاق يده ليرد، فتنهال العصى على رأسه حتى يغمى عليه.

ويرتفع صوت همت.. التشريفة انتهت. ارميهم فى التأديب.

إلى ليمان ابو زعبل

برزت فجأة من الصحراء سيارات كبيرة ذات لون أجرب، ومغطاه بقماش باهت سميك، ووقفت على بعد امتار من طابور المسجونين المربوطين جميعا فى سلستين طويلتين، ويتحرك الرجال فى اتجاه السيارة، وهم لا يقوون على المسير...وينظر السجانون اليهم فى حيرة، ويرتفع صوت همت.. ايه ده يا سجان انت وهو، انتم تعبتم ولا ايه. الظاهر انكم مش نافعين، كمل التشريفة أنت وهوه وحرس سلاح للمعتقلين..

ومع صعود المعتقلين إلى السيارات ينهال الشوم من جديد , فالسيارات مرتفعة، ومرت ستة عشر يوما على الاضراب ولم يتناول واحد من المعتقلين لقمة خبز واحدة، لا

يستيطعون الصعود فتنهال الشوم عليهم، ثم يتقدم بعض السجانين ليقذفوا بهم إلى السيارات.. ولكن السلسلة الغليظة التى تربط كل مجموعة من المعتقلين تحول دون السرعة المطلوبة، وتلتف بقسوة على يد بعض الذين صعدوا السيارة مع شد الذين لازالوا فى جوف الصحراء، واسمع الانات، حاسب حاسب، ايدى راح تنكسر.

وتستمر عملية شحن الرجال العراه، المرضى الجياع، الذين كانوا الى وقت قصير يعيشون الحياة بكل ما فيها من امل واصرار رغم الجوع والمعتقل وبعد الاسرة و لاولاد .. كانوا إلى عهد قريب وفى وقت الجوع يغنون الحان سيد درويش وبول روبسون، ويصدرون مجلة السجن، ويتناولون صور اطفالهم، ويرسلون بياناتهم إلى الحكومة معبرة عن ارائهم بشجاعة، مطالبين بعودة الديمقراطية، وحق الفلاحين والطبقة العاملة فى تنظيمات تعبر عن مشاكلهم وارائهم.

ومن بين طابور العراة تقع عينى على "فتحى عبد الرحمن" المدرس الصعيدى الذى لم تغير الثقافة أو التعليم شيئا من عاداته أو لهجته الصعيدية.. اسمر ممتلئ الجسم، قصير القامة خفيف الروح والظل، لا يمل رواية القصص والذكريات. ومع كل مرة يحكى تزداد حلاوة وخفة دم.. اراه فى هذا الطابوروهو يصرخ من ألم السلسلة التى التفت حول رقبته، انه صوت فتحى الذى لا اخطئه، وتكون المفاجأة انه الوحيد الذى يرتدى فانلة، فالكل عراة.. من الواضح انها ليست فانلته فهى طويلة تصل إلى قدميه.. انه يصر أن يكون انيقا حتى فى احلك الاوقات، ولا ادرى لماذا اجتاحتنى موجة من الضحك!! ومع العصى التى تنهال ظهرى وكتفى، كان الضحك يكاد يخنقنى. وفى وسط هذا الجحيم يلتفت الى فتحى مستفسرا مؤنبا.. بتضحك على ايه يا ابن....... دا وقته. ويسرع الصول فيعدل من وضع السلسلة حتى لا تكسر رقبته، ويحاولون أن يجردوه من الفانلة، ولكنه يرفض.. عيب يا شاويش، ما يصحش أنا راجل صعيدى .. ولكن العساكر لا يستطيعون ان يجردوه من الفانلة لأن معنى ذلك أن يفكوا السلسلة كلها.

وتمضى السيارات تترنح بحملها الثقيل حتى تصل الى الليمان، ويستقبلنا صفين من الجنود ولكن المفاجأة أنهم لا يستخدمون العصى والكرابيج.. لقد اطمأنوا لرحيل همت المرتبط بالمخابرات والمباحث، واصبحت السلطة فى يد ضباط السجون العاديين، ويلقون بنا فى الزنازين، فى شبه زنازين.. كل زنزانة بها عشر رجال.. لا تكفى لتمديد اجسادهم.

وتغلق الزنازين، وينظر المعتقلون الى بعضهم وترتفع اصوات متضاربة، ضحك وبكاء.. والبعض يضم الآخر إلى صدره، واحاول ان اسرى عن شاب صغير.. معلش بعد شوية الألم سيزول يا قناوى.. شاب صغير فى الثانوية العامة، مرفه فى حياته ، تفتحت عنياه وهو صغير فعرف الكثير.. ممزق الظهر..آخذه فى حضنى ولا أكاد أمسح على ظهره حتى يصرخ فى شدة الالم، وأشم رائحة الجوع تتصاعد من فمه ويتناهى إلى صوت اسماعيل معيد الفلسفة بالجامعة وكأنه اسلاك من الصلب، اتركه يا زميل عليه أن يتحمل ولا ولادة بلا ألم. كلمات صادقة ولكنها قاسية، فللبشر طاقة.. وأحس بالاضطراب وأضع رأسه على ساقى ويتمدد على ظهره ليشعر برطوبة الأرض علها تخفف حجم الالم الملتهب فى ظهره.

ومع اغلاق الابواب وحلول الظلام تبدأ تشعر بالاطمئنان، فمعنى التمام فى السجن انك فى مأمن حتى الصباح ولكن المفاجأة أن التأديب يفتح بعد ساعة ويظهر "انور السروجى"، سجان ضخم الجسم، يتصور دائما ان هذه الضخامة تجعله فى مستوى اعلى من زملائه السجانين، وكفيلة بأن تضعه فى مستوى الضباط، وينادى على بعض الاسماء من المعتقلين، وما أن يخرجوا من الزنازين حتى ينهال عليهم ضربا ويطلب إليهم أن يشربوا من جرادل البول.. ولكنهم يرفضون، ويحاولون اقناعه بأن ذلك لن يفيده فى شىء ولكنه يصر.. وتظل هذه المهزلة مستمرة حتى يشعر بالتعب فينصرف متوعدا بأن ذلك لابد وان يتحقق فى الصباح.

ومن الغريب أننا اكتشفنا بعد فترة اننا ظللنا نشرب البول لمدة عشرين يوما دون أن ندرى.. اذ كنا نملأ الجرادل من بئر فى التأديب تختلط مياهها بمياه المراحيض.. ولم نندم على ذلك اذ اننا كثيرا ما تمنينا بعد ذلك نقطة ماء واحدة حتى ولو كانت بولا خالصا حينما حددوا كمية المياه التى تصرف لكل مجموعة من المعتقلين، حيث تقوم ادارة السجن فى كل مساء بقطع المياه عن العنابر.

عشرون يوما فى تأديب ليمان ابى زعبل، دعمت الصداقة بيننا وبين المسجونين العاديين، رغم الحراسة المشددة، وتضافرت عواطفهم معنا احتجاجا على عمليات التعذيب الوحشية التى انزلت بالمعتقلين، واعجابا باصرار المعتقلين عى مواقفهم.

فالموقف القوى يبعث الدفء والقوة فى محيطه، اما الضعف فلا يثير غير الاشمئزاز.. وكانت هديتهم لنا قلم ومجموعة من الاوراق.

على طلخان (١)

على طلخان راجل مجدعته عند الناس معروفة
أبوموسى نقبه وكرامته عند الكل معروفة
من موال شعبى كان يغنى على
قهاوى المحلة.. ثم شبرا الخيمة

فى عام ١٩٨٩ دخل عم على طلخان إلى غرفتى مبتسما ومتجهما فى آن واحد، ترك على المكتب صندوقا من الكرتون به عدد كبير من شرائط الكاسيت وقال «خللى ده عندك واسمعه لما ربنا يسهل وأموت». ذهلت لكن الصندوق ظل متربعا على المكتب فهو وديعة وأنا أحاذر أن ألمسه خوفا من أن يكون ذلك إيذانا برحيل الزميل النقابى الشجاع المثقف البدائى العامل والشيخ والفلاح معا، وعندما التقيته بعدها بأيام حاولت أن أعتذر «يا عم على أنا ملخوم ولم أستمع للشرائط».. لكن وقبل أن أكمل قال «مش دلوقت، إوعى تسمعهم دلوقت لما أتوكل على الله ابقى اسمعهم واكتب عنى كلمتين».

وعندما رحل عم على فتحت الصندوق ووجدت به ثمانية شرائط كاسيت ملفوفة بعناية ومكتوب عليها «مذكرات على طلخان – الجزء الأول» وبدأت فى الاستماع، عاد عم على طلخان متألقا بأكثر كثيرا مما توقعت. سمعته وهو يحكى قصصا تشبه الأساطير لزعيم شعبى أو بالدقة شعبوى يصنع نفسه وينضجها.

ويبدو أن الرجل لا يعرف تاريخ ميلاده فهو إذ يسجل مذكراته عام ١٩٨٩ يقول إن عمره حوالى ٧٥ سنة أى أنه ولد حوالى ١٩١٤. البلدة نهطاى مركز زفتى، الأب فلاح ميسور يمتلك ستة أفدنة لكنه بددها جميعا ولم يتبق لديه سوى بضعة قراريط، الفقر أحاط بالأسرة ولهذا لم يصمد على طويلا فى المدرسة، كان «حيلة» أمه وعاش فى القرية بطولها وعرضها ثم قرصه الفقر فسافر إلى المحلة ليعمل فى المصنع على أربعة أنوال لمدة ١٢

ساعة «شغلانة تهد الحيل والأجرة ٢٥ مليما فى اليوم»، واستمع إليه «فى المحلة ماكنش فيه أى وعى نقابى ولا عمالى ولا سياسى والشركة شجعت على تقسيم العمال إلى بلديات.. غربية - منوفية - دقهلية، ولكل مجموعة زعيم تتعصب له وبه ضد الآخرين وكثيرا ما كانت تقوم خناقات تستخدم فيها العصى والشوم، وأنا أصبحت وبلا منازع زعيم عمال الغربية وكنا نلتقى فى بوظة لنتسامر وندردش ونساند بعضنا البعض فى الأزمات وتعلمت أن المجدعة والفتونة تملى عليك أن تتمسك بالحق والعدل، وكنت كأنى مربوط بحبل بقريتى أذهب آخر الأسبوع وأرجع محملا بالزوادة عيش ومش تكفى أسبوعا بأكمله، لأن مفيش فلوس تسمح لى أن أدوق أكل البندر ولا حتى قرص طعمية»، لكن العودة للقرية كان لها مذاق مرير فعلى الفتوة المهاب من الجميع واللى لا يمكن كلمته تنزل الأرض، يعود إلى القرية ليجد عمدة جبار وطاغية تآمر مع بنوك الرهونات إنها ترهن أرض فقراء الفلاحين ثم تبيعها بالمزاد وهو المشترى الوحيد، فلا أحد من الفلاحين يمتلك قرشا، واستحوذ العمدة على أغلب زمام القرية حتى أسماه الفلاحون «الحوت الكبير».

وأمضى مع عم على «الحوت امتلك أغلب الأرض ورفع الإيجار فى العلالى لحد ما وصل إلى ١١ جنيها للفدان وهو مبلغ كبير جدا» الفلاحون يطحنون ولا وعى ولا قدرة ولا حيلة، لكن الجميع يلتفون مساء كل خميس حول «على» الآتى من المحلة والذى يتحدث عن «الحق والعدل» واستمع له «فى المحلة قعدة البوظة سهلة تهز العصاية وتحكم بالحق والعدل والجميع يطيعون، لكن الحوت لا عنده حق ولا عدل، والفلاحين مساكين. وأخير كونت تنظيم سرى من الشباب سميناه «الحاج مسعود» وكتبنا أوراقا علقناها على باب الجامع والدوار وعلى الحيطان مكتوب عليها ممنوع أى حد يأجر الفدان بأكثر من ثمانية جنيهات وإلا حنقلع زرعته، والتوقيع الحاج مسعود».

ثم «وقلعنا زراعات كثير لكن الغارم كان آباءنا وأعمامنا والحوت لم يخسر شيئا، ومرة أخرى التف الشباب حولى وسألونى تعمل إيه وقلت الحل نضرب العمدة علقة سخنة علشان نكسر هيبته، لكن الشبان ارتجفوا وسألونى ومين يقدر يعمل كده وأجبت أنا، وهكذا فإن عصاه التى اعتادت أن تقيم الحق والعدل فى المحلة آن لها أن تقيم الحق والعدل فى نهطاى، وذات يوم كان العمدة يسير فى خيلاء المتجبرين وبصحبته أحد أقاربه أسرع على نحوه وواجهه لأنه لا يجوز لفتوة أن يضرب خصمه فى ظهره، ويحكى عم على

«فوجئ العمدة بى وأنا أمامه وحاول أن يشخط فى لكن ضربته بالعصاية وطوحت عمته وكسرت أسنانه وشفته انشقت ونزف كثير وضربة ثانية سقط العمدة على الأرض» قامت الدنيا ولم تقعد فعلى لم يضرب شخصا عاديا لكنه ضرب العمدة وعين أعيان الناحية وعضو مجلس المديرية، وفى التحقيقات لم يشهد أحد من الفلاحين ضد على، كلهم قالوا «الكدب خيبة يا باشا أنا مكنتش موجود وماشفتش حاجة، وأفرج عنه قاضى التحقيق وانطلقت الزغاريد تهز كل أرجاء القرية، ورجال كثيرين فى القرية كل واحد حلف بالطلاق إنه لازم يدخل بيته ويشرب الشربات ويقول على «شربت يمكن أكثر من ١٠٠ كباية شربات»، وفى غمرة الزهو بنفسه نسى على المصنع والمحلة والأجرة والبوظة والفتونة وانتقل بفتونته إلى نهطاى، يتمشى كل يوم فى القرية رافعا عصاه، عمد البلاد المجاورة أرسلوا إليه طالبين حمايته، وحاول الحوت أن يستأجر من يقتل على لكن كل أشقياء الناحية رفضوا وأبلغوه لكى يأخذ حذره وبعد فترة وصل تقرير الطبيب الشرعى «العمدة أصيب بعاهة مستديمة» وأحيل على للمحاكمة وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات سجنا مع النفاذ قضاها فى سجن طنطا.

وفى عام ١٩٤٢ يفرج عنه فيخرج إلى المحلة ليجد زملاء الزمن القديم وهم لايزالون على العهد وليجد المغنين فى مقاهى أبناء الغربية فى المحلة يغنون موالا عنوانه «حكاية على والحوت»، حاول العودة للعمل ولكن أمن المصنع لا يمكن أن يسمح بالعمل لمن يتغنى الناس باسمه فى المواويل، فيضطر «على» للرحيل إلى شبرا الخيمة حيث وجد أن مواويله قد سبقته إلى هناك بعد أن أضاف إليها كل مغنى حكايات وأساطير من عنده.

وشبرا الخيمة كانت بؤرة ثورية، إضرابات عمالية متلاحقة، تنظيمات عمالية فى شكل لجان مندوبى المصانع، ثم إضراب شبرا الخيمة الكبير وفروع «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال».

وهنا فى هذا الخضم الرائع من النضال العمالى يتحول عم على طلخان إلى زعيم نقابى وعمالى حقيقى.

على طلخان (٢)

وفى ١٩٤٨ أعلنت الأحكام العرفية واعتقلت والتهمة عامل مشاغب، وعشت عالما آخر تعلمت، وحضرت مناقشات عديدة لم أنضم إلى أى مجموعة من المجموعات المتناحرة لكننى خرجت من المعتقل شخصا آخر.
من تسجيلات على طلخان

ويعود على طلخان إلى شبرا الخيمة فى بدايات ١٩٥٠ ليكرس نفسه قائدا نقابيا يحبه الجميع ويحترمه الجميع ويطارده الأمن ليلا ونهارا. ومرة أخرى تعلن الأحكام العرفية فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة ويعتقل على طلخان والتهمة بدلا من عامل مشاغب «نقابى خطر» ويخرج على طلخان بعد أن تشرق شمس ٢٣ يوليو، ويعود مسرعا إلى نهطاى ليدعو الفلاحين إلى أن يرفعوا رءوسهم، لكن «الحوت» لم يستسلم بسهولة فهو لم يتعود على احترام القانون، فالقانون الذى أصدرته الثورة ينص على أن الحد الأقصى لإيجار الفدان هو ٢١ جنيها لكن «الحوت» كان يفرض على المستأجرين إيجارا يصل إلى ٦٠ جنيها، ومرة أخرى التف الشباب حول المناضل العائد من المعتقل وقرروا تأسيس جمعية سرية جديدة أسموها «الحاج عودة» ومرة أخرى علقت لافتات على باب الجامع وعلى أبواب البيوت وفى الحوارى «كل اللى يأجر أرض أزيد من سبع أمثال للضريبة تقلع زراعته والتوقيع.. الحاج عودة».

وحتى هذه الأثناء لم تكن يد الثورة قد وصلت بعد إلى نهطاى، فلا على طلخان ولا الشباب حوله ولا الحوت نفسه كانوا يدركون حقيقة التغيير الثورى، ومن ثم فإن الكثيرين لم يخافوا من التحذير، ويأتى المساء ليأتى معه محراث يحرث أرض من لم يلتزم بتحذير الحاج عودة، وكان على طلخان قد حصن نفسه فأرسل عشرات البرقيات إلى مجلس قيادة الثورة وإلى الصحف وجاء الرد سريعا بأسرع مما توقع الجميع، وتلحق يد الثورة بنهطاى لترفع عنها ظلم الحوت، وتزف البلد كلها على طلخان بالطبول والزغاريد.

إنهم ينتقمون للظلم الذى فرض عليهم لأجيال وينتقمون لسنوات السجن التى قضاها على طلخان بسبب علقة العمدة.

ويمضى على طلخان مناضلا من أجل العمال ومعهم وأصبح قائدا نقابيا مرموقا وعندما تصدر قوانين التأميم وتتضمن حق العمال فى انتخاب ممثل عنهم فى مجلس الإدارة انتخب عمال شركة إسكو على طلخان عضوا فى مجلس إدارة الشركة.

القاعة فخمة، الأرقام التى تعرض عليهم بمئات الآلاف وكان أعضاء المجلس يظنون أن هذا «الجاهل» لن يفهم وسيرضى بالغنيمة، وهى مكافأة عضو مجلس الإدارة ويصمت، لكن على لم يصمت وظل يشاغب ويناكف ويكتب الشكاوى للقيادات الإدارية وقيادة الاتحاد الاشتراكى والتفتت إليه الأنظار وينتخب عضوا فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ثم عضوا فى لجنة مستقبل العمل السياسى «الحاج مسعود» أو «الحاج عودة» أصبح قائدا سياسيا وأصبحت كلمته مسموعة فى مجلس الإدارة لكن ظل كما كان ملتزما بالحق والعدل.. ولم يتربح مليما واحدا.

وعندما يعلن الرئيس السادات فكرة المنابر داخل الاتحاد الاشتراكى: منابر ثلاثة.. يمين - وسط - يسار وكان شرط تأسيس المنبر وقبول أوراقه أن ينضم إليه عشرة من أعضاء مجلس الشعب أو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ولم يكن الأمر سهلا، وتوقفنا عند حدود السبعة توقيعات ثم وقع قبارى عبدالله، ثم أتى رجل عجوز رفيع كسهم يوشك على الانطلاق شارب فضى مبروم بعناية وشعر فضى، أتى ومعه شخصان وقال وهو على الباب لا يمكن أن ننضم لمنبر يمين أو وسط إحنا عمال وفلاحين ولازم ننضم لمنبر خالد محيى الدين، وبعلى طلخان وزميليه اكتملت العشرة توقيعات وزادت توقيعا، واحد من الثلاثة كان يعرف أننا فى مأزق الحصول على عشرة توقيعات فأصر على أن يعين أحدهم سكرتيرا عاما للمنبر، فجأة انتفض على طلخان ثائرا «إحنا ما اتفقناش على كده، والراجل ده جاى عايز منصب، أنا مش عايز منصب، أنا كفاية علىّ إنى أشتغل مع خالد محيى الدين» وتراجع زميله، وساعتها أدركت أننى أمام رجل مختلف، وفيما أستمع إلى تسجيل صوته على الشرائط تخيلت «الحاج مسعود» أو «الحاج عودة» وهو ينضم إلى منبر اليسار، وظل عم على معنا حتى جاءت انتفاضة ١٩٧٧ وحملات القبض العتية على أعضائنا، زميلاه انسحبا بهدوء، هو بقى شامخا ووقف على يسارنا يرفع أشد الشعارات

ثورية، لكنه يخضع للأغلبية، حسه العمالى المتوقد، وانتماؤه الطبقى الحاسم جعلا منه معيارا لنا، تصرفه التلقائى وغير المزخرف بشعارات متقنة الصياغة أو مواقف انفعالية كان معيارا أمامى أهتدى به للتعرف على الموقف الصائب فى خضم أحداث عاتية تقلبت على التجمع، السهم المنطلق ظل سهما منطلقا لم يخف بل كان يفرض علينا ألا نخاف، ولم يتردد بل كان يملى علينا إرادة الصمود، وكان يختلف أحيانا مع الأغلبية فيستعيد ذكريات النضال القديم يكتب منشورا برأيه المختلف ويوزعه على القيادة، وتتراكم الأيام والسنوات ونقترب من المؤتمر الثالث ويأتى عم على حزينا ومنكسرا ليقول: يا زميل، العين اللعينة لم تعد ترى، واليد اللعينة لا تتحرك ولا تكتب ومش قادر أمشى فأرجوك اسمح ألا أترشح فى أى موقع وكفاية كده، لم أجادله فأنا أعرف كم هو عنيد، لكنه أعطانى لفافة من بيانات راجيا أن أوزعها على الزملاء فى الأمانة العامة، يعتذر فيها عن عدم مواصلة النضال معنا، ويمنحنا بعضا من تجاربه، وبعضا من حكاياته وحكاية الحاج مسعود، والحاج عودة، ثم يمنحنا نصائحه ولم أزل أذكر آخر كلمات الرسالة «هذا الحزب أجمل شىء فى مصر وهو أجمل شىء فى حياتى فتمسكوا به، وحافظوا عليه».

وبعدها بفترة وجيزة ذهبت لأتلقى فيه العزاء، ورأيت جموعا عمالية تحكى عنه وكأنه قديس، وحكى لى أحدهم ونحن فى مجلس العزاء بعضا من المواويل التى كانت تغنى على مقاهى شبرا الخيمة مديحا فى زعيمهم على طلخان.

على طلخان راجل مجدعته عند الناس معروفة

أبوموسى نقبه وكرامته عند الكل معروفة

عطية الصيرفى (١)

«أصل الحكاية إننا مؤدبون أكثر من اللازم ومحترمون أكثر من اللازم، والجماهير مش كده لو عندها مطالب تلاقيها بتشاغب وتقوم بأعمال وأقوال غوغائية وأنا أراهن على قليل من الشغب والغوغائية فى أى تحرك أو فى أى كتابة ولهذا تجدنى أقرب إلى الجماهير».
عطية الصيرفى «خلال جلسة حوار»

ثمة خط رفيع فاصل بين الفعل الثورى والنضالى وبين الشغب الغوغائى.. وفوق هذا الخط تماما وقف عطية الصيرفى المناضل العمالى، وعطية ليس مجرد كمسارى أتوبيس ولا مناضل نقابى وسياسى لكنه اكتسب من إصراره على التعلم معرفة بالتاريخ وأخرى بالاقتصاد وفنون أخرى من المعارف لعلها اختلطت عنده بطريقة مبسطة لكنها آسرة، وتقرأ كتبه لتشعر بالحيرة فهل هذه كتابة عامل؟ والإجابة ليس هذا معتادا فى كتابات العمال. ثم تسأل هل هذه كتابة علمية فى تاريخ مصر أو تاريخ الطبقة العاملة، والإجابة: ليس تماما، وتبقى المفاضلة بين الشغب وبين العمل النضالى المتعقل هى محور علاقته بحزب التجمع وبالتحرك اليسارى عموما، ويستمتع عطية بذلك ويروق له دوما أن تدخل معه فى حوار حول هذا الأمر، وكلما قلت له هذا شغب استمتع وزاد من شغبه، وحتى عندما سجل لى بعضا من سيرته جعل عنوانها «لمحات من سيرة عامل مصرى مشاغب»، ونبدأ بحكايته عن نفسه. أمه فقدت كثيرا من أطفالها فلما ولدت عطية أسمته فى الحارة «الشحات».

الأب أسطى طباخ تفوق فى مهنته حتى أصبح طباخ البيه مأمور ميت غمر، ثم انتقل ليعمل لدى الأسر الإقطاعية، والأم هى أيضا - ويا للغرابة - أسطى فرانة، بدأت «الأسطى هانم» فرانة فى مخبز والدها وهى مهنة لا مجال فيها للنساء ثم تتلمذت على الأسطى وردة «اليهودية» الخياطة.

وعندما انتقل الأب إلى حلوان ليعمل لدى أسرة إقطاعية كبيرة عملت الأسطى هانم مقص دار فى محلات عمر أفندى، وتعيش الأسرة حياة عادية لا معاناة فيها حتى يموت الأب وعطية فى الثالثة من عمره، ثم تمرض الأم، لكنها تعتصر من بقايا صحتها قوتا له وفرصة كى يتعلم فى المدرسة الأولية لكن المصروفات «عشرون قرشا فى العام» تمثل عبئا ثقيلا على الأم فيترك المدرسة وينتهى به الأمر إلى مدرسة تحفيظ القرآن حيث ختم القرآن وفى المسابقة كان عطية الأول على القطر، وفى الاحتفال التقطت صورة للمتفوقين وكان أوائل الابتدائية فى الصفوف الأولى وحفظة القرآن فى الصفوف الخلفية.. ولم ينس عطية ذلك، ولم ينس أيضا أنه لم يستطع شراء نسخة من هذه الصورة، والتحق عطية بالمعهد الأزهرى.. لكن الفقر يلاحقه ويفرض عليه البحث عن لقمة خبز، وعمل فى مهن عديدة: صبى حداد.. صبى نحاس.. شيال فى محطة السكة الحديد.. عامل قصعة فى البنايات ثم عامل فى الكامب الإنجليزى.. عامل رش مبيدات.. مقرئ فى القرافة.. وأخيرا أصبح وهو محمل بكل هذا العذاب كمساريا فى شركة اتحاد الأوتوبيس فى زفتى وميت غمر، أسبوعان فقط اكتشف فيهما مدى الظلم الواقع على العمال لا راحات نهائيا والمرتب هزيل، طالب بإجازة يومين فى الشهر دون أجر، وسأله المدير:اجازة ليه؟ فقال: علشان نغسل هدومنا مرة كل أسبوعين، ورفض المدير مهددا إياهم بالفصل، فرد عطية «الأرزاق على الله» وحتى هذه العبارة اعتبرها العمال شجاعة لا حدود لها.. واتخذوه زعيما، وخرج عطية من المقابلة ليرسل برقية إلى وزير الشئون الاجتماعية «نستصرخكم لرفع الظلم الواقع علينا، أغيثونا» وانقلبت الدنيا، فكيف لعامل أن يتحدى الشركة ويشكو للوزير، لكن عطية انتصر وأصبح «الشحات» زعيما عماليا انتشر صيته فى كل ميت غمر ومنها إلى كوم النور حيث طالب فى كلية الحقوق من أبناء كوم النور يعود كل إجازة صيفية هو كمال عبدالحليم، واتصل كمال بالشحات وأعطاه كتبا ولقنه محاضرات أضاءت أمامه سبل فجر متسع ومشرق من المعرفة، وأصبح عطية عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وإذ تشتعل مصر بالمظاهرات ضد الاحتلال فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، تذكر عطية بعضا مما وعاه من معرفة بالتاريخ، وتذكر ثورة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، فجند بعضا من العمال والطلاب من الوفديين وغطوا جدران ميت غمر وزفتى والقرى المجاورة بشعار تبدى للجميع مثيرا للدهشة لكنه منحهم حافزا قويا للثورة «يا شباب ١٩٤٥ كن

كشباب ١٩١٩» وبالفعل تفجرت ميت غمر بالمظاهرات وأسس عطية فيها مع الوفديين وعديد من النقابيين فرعا نشيطا للجنة الوطنية للطلبة والعمال، ومن ميت غمر إلى زفتى حيث حكى وحكى وبلا نهاية حكايات إعلان استقلال جمهورية زفتى على يدى يوسف الجندى وتحت قيادته وانتفضت معه زفتى، وأصبح الشحات زعيما سياسيا، الكمسارى المشاغب أصبح شيوعيا، لكنه ظل على الدوام قادرا أن يمزج شغبه بشيوعيته، أو يمزج شيوعيته بشغبه سيان، ويصعد عطية سريعا فى التنظيم الذى اتخذ اسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو» والأسطى هانم أصبحت هى أيضا شريكة له فى نضاله ودبرت له مخزنا للمطبوعات الحزبية ومخبئا للرفاق الهاربين أو المسئولين القادمين لمتابعة العمل الحزبى، ولم يجد خصوم عطية مطعنا عليه فأشاعوا أنه عميل لموسكو وأن موسكو ترسل له أموالا كثيرة، لكن الناس يتلفتون فيجدون الشحات شحاتا بالفعل ولا يمتلك أى شىء، وفى عام ١٩٤٨ يتمرد عطية على قرار قبول تقسيم فلسطين ويشكل مجموعة لتسافر للحرب فى فلسطين ثم هو يجمع قروشا من قوت الفقراء ليرسلها إلى المقاتلين كى يعيشوا بها، فأكد خصومه أنها أموال آتية من موسكو، ولعل هذه الشائعات التى لاحقته كانت سببا فى أن جعل شغبه حادا كسكين، واستمر دوما حادا كسكين.

ونتابع سيرة «الشحات» عطية الصيرفى فى كتابة قادمة.

عطية الصيرفى (٢)

«ولأن الفقراء لا يجدون سبيلا للشكوى سوى العرائض، وهى اختراع مصرى منذ الثورة العرابية، فقد قررت أن أصبح عرضحالجى الفقراء أكتب لهم شكاواهم مجانا وأمنحها صياغات ملائمة وأوجه أصحابها إلى التحرك دفاعا عن مصالحهم، فطارت شهرتى فى كل المنطقة وقالوا إن كلامى يحرك الحجر وكل صباح يتجمع الغلابة، منذ بداية الخمسينيات وحتى الآن لكى أكتب لهم عرائضهم».

عطية الصيرفى «فى حوارى معه»

وتطور العرضحالجى إلى صاحب ما اشتهر فى ميت غمر بما سماه «ديوان المظالم» وأمام بابه كان يحتشد كل يوم أصحاب الشكاوى وهو يكتب مستخدما أسلوبا ناريا يحرك الحجر، وكثيرا ما كان يحرك المسئولين فعلا، وتدريجيا يتحول العامل المشاغب إلى نقابى، يقول الشحات فى حواره معى «وصل صيتى إلى الأسطى عبدالحميد جودة رئيس نقابة عمال النقل المشترك بالغربية، فاتصل بى وتتلمذت على يديه فتعلمت أساليب التفاوض مع مكتب العمل ومع أصحاب الأعمال، ثم دفعنى إلى دراسة القوانين والتشريعات العمالية، وعندما شعر أننى استوعبت ما علمنى إياه رشحنى عضوا بمجلس إدارة النقابة ونجحت، ويصعد الشحات سريعا ليصبح رئيسا لنقابة عمال شركة اتحاد الأوتوبيس بزفتى وميت غمر فى ١٩٥٠ ويسهم فى تأسيس اتحاد نقابات عمال النقل المشترك، ويكون أصغر عضو فى مجلس إدارته، وتتفجر طاقات الشحات وتتضافر عوامل عديدة فى صناعة هذا الكادر النقابى: حفظه للقرآن وقدرته على الخطابة ودراسته لتشريعات العمل ووعيه الماركسى. وبدأ فى تأسيس عديد من النقابات نقابة عمال المعمار فى ميت غمر، ونقابة معاصر الزيت ونقابة عمال الحليج، فوصفه مدير

مكتب العمل بأنه مورد نقابات، ومنذ البداية أدرك عطية خطورة مرفق النقل فقام بتصعيد نضالاته من العرائض إلى التفاوض إلى التحكيم إلى الإضراب البطئ ثم وصل إلى رفع دعوى فرض حراسة على الشركة.

وتأتى ثورة يوليو، وعندما يستعر الصراع بين أطرافها يلجأ عبدالناصر خلال هبة مارس ١٩٥٤ إلى ذات السلاح فاستخدم عمال النقل بقيادة صاوى أحمد صاوى ودمر بهذا السلاح التوجه الديمقراطى ودعاته، لكن الجرح الدامى فى قلب عطية الصيرفى يبقى دوما إعدام العاملين خميس والبقرى، ويقدم لنا شهادة مثيرة للدهشة «بالمصادفة قابلت محمد نجيب فى أواخر أيامه فى مستشفى المعادى ولما سألته لماذا أعدمت خميس والبقرى؟ قال إن السبب هو جمال عبدالناصر فقد أكد لى أن كل عمال المحلة وشبرا الخيمة وكفر الدوار شيوعيون فإذا لم نعدمهما فإن الشيوعيين سيقضون على الثورة» ويمضى عطية قائلا فى أحد كتبه «كان هذا الإعدام اغتيالا طويل الأمد للطبقة العاملة، وكان بمثابة رسالة إلى العمال والفلاحين بأن المشانق جاهزة لكل من ينطق». ويتطور عطية بمعارفه ويستخدم فترة السجن فى الدراسة فإن منعت الكتب عاش أيامه فى حوارات صاخبة مع كبار المفكرين من السجناء، وفى السجن يبدأ فى إعداد أول كتاب له هو «دور العمال فى المجتمع الاشتراكى» ويدخل به فى إحدى المسابقات ويفوز بالجائزة وقدرها خمسون جنيها، لكنها جائزة معلقة على شرط هو أن يشطب بعض الانتقادات الحادة ويرفض، فتسحب الجائزة.

وتتواصل كتاباته لتحمل كتبه عناوين مشاغبة فمنها مثلا «نقاباتنا فى خدمة السلطان» و«الطريق إلى ثورة الريف» و«اشتراكية أفندينا» و«العمال يواجهون المشانق نيابة عن الوطنية المصرية».. القرآن الذى لم يزل يحفظه عن ظهر قلب تحالف فى وجدانه مع الماركسية فأثمر كتابات حادة كمشرط حاسم أو كطلقة رصاص. فاتنا أن نقول إن عطية خرج من السجن مفصولا، وطبعا لم يجد عملا فالجميع يعرفون شغبه وبقى متفرغا للعمل وسط الجماهير وكتابة عرائض المظلومين ويلتقط رزقه يوما بيوم من عمل هنا أو هناك، وفى ذات الوقت كان يمارس نضاله الحزبى لتصبح ميت غمر وما جاورها من قرى قلعة للنضال العمالى والفلاحى، وإذ يأتى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ يصدر الحزب تعليمات بالتطوع لمواجهة المحتلين، القيادة الحزبية هو والشيخ محمد عراقى ومحمود مراد جمعوا

مئات المتطوعين وسافروا إلى معسكر للتدريب فى إحدى قرى الشرقية الملاصقة لموقع الاحتلال. ولا ينسى عطية ثأر العمال مع صاوى أحمد صاوى الذى قاد مظاهرات تهتف تسقط الديمقراطية، تعقبه من لجنة نقابية إلى أخرى على نطاق القطر حتى نجح فى إسقاطه ليكون عبرة لعملاء النظام. وفى فترة السجن الطويلة (١٩٥٩ - ١٩٦٤) كان التعذيب الوحشى فى سجن أبوزعبل وكان الصمود البطولى وكان الدفاع الشجاع أمام المحكمة العسكرية العليا وكان السجن خمس سنوات أشغالا شاقة، تنتهى ليبقى معتقلا فقد رفض كغيره كتابة استنكار للشيوعية، وتتواصل زياراته المتكررة للسجن ١٩٧٧ - ١٩٧٩ - ١٩٨١ - ١٩٩٠، الولد الشحات يكبر فى السجن يصبح كهلا لكنه يبقى مشاغبا، وكان الشحات قد أتى إلى منبر اليسار منذ اليوم الأول ويخوض معنا كل معاركنا لكنه كان يصوغ كل عباراتنا بألفاظه المشاغبة، ويحكم عليه بالسجن عامين فى قضية قذف، ونساعده على الهرب إلى السودان حيث يبقى فى أحضان الحزب الشقيق حتى نال براءته فى الاستئناف، ومع الجماهير ناضل الشحات ورشح نفسه فى المجلس المحلى ملأ المجلس شغبا، وحاول أن ينتزع من المجلس إدانة لكامب ديفيد وإذ يوشك أن ينجح يفصل من المجلس، ويرشح نفسه لعضوية مجلس الشعب وينجح فعليا، لكن يد التزوير تسلب منه المقعد فتخرج جماهير ميت غمر الغاضبة لتقطع طريق ميت غمر - بنها وتصطدم مع البوليس فى معركة دامية انتهت بالقبض عليه وعلى سبعمائة من المحتجين.

ويبقى أن نقرر أن عطية الصيرفى هو أول من خاض وقاد معركة التعددية النقابية مؤكدا فساد الحركة النقابية الرسمية التى سماها «نقابات السلطان» ويظل الولد الشحات مناضلا مشاغبا فى صفوف حزبنا، ويكون دوما صاحب أعلى الأصوات فى كل موقع يترشح فيه، وأصبح فى المؤتمر السادس الأخير عضوا فى المكتب السياسى للحزب، ويبقى كما هو مؤكدا أكثر من مرة «الجماهير تمتلك قدرا من الغوغائية، فلنكن مثلها غوغائيين» بقدر ما ولعله كان على حق.

ويبقى عطية الصيرفى كما هو

وذات يوم أرسل لى رسالة حب بدأها ببيت شعر

سأعيش رغم الداء والأعياء

كالنسر فوق القمة الشماء

تحدثت معه تليفونيا قال: أنا ماشى فسألته على فين؟ قال خلاص كده كفاية. ثم أوصانى «كن كما كنت دائما صدرك يفرش على الفدان الأخضر ولا تغضب من مهاجميك»، وقلت له سمعا وطاعة، ورحل، وفى حفل تأبينه بالمنصورة وقفت لأودعه فبكيت ولم أكمل.

الشيخ محمد عراقى

حاربت الإنجليز بضراوة، وعلى مقهى فى الزقازيق قابلت ضابطا إنجليزيا علمنى الماركسية.

محمد عراقى «فى حواره معى»

فى قرية ميت القرشى مركز ميت غمر، ولد وعاش لأب فلاح شديد الفقر، ولـ «ميت القرشى» تاريخ مجيد خلال ثورة ١٩١٩ حيث خرج الأهالى ليقطعوا شريط السكة الحديد، وتصادموا مع قوات الاحتلال وسقط مائة شهيد، وتظل القرية تعيش ذكريات الشهداء وشجاعة المعركة، الآباء يحكون والأطفال يشعرون بالزهو، وتظل القرية تحكى حكاية الست صديقة، خرجت وهى عروس تقاتل مع الرجال وأصيبت بعاهة مستديمة فى ساقها، الطلق النارى فى الساق لم يوقف اندفاعها ضد الإنجليز حتى سقطت. وعلى مدى سنوات كان القسم الأكثر تصديقا هو «وحياة الست صديقة». الأم من «هرية رزنة» مسقط رأس «عرابى» وتمت له بصلة قرابة، وعندما عاد البطل من منفاه جلست تستمع إلى أحاديثه وظلت ترويها لنساء وأطفال «ميت القرشى». الأب الفلاح الشديد الفقر كان خطاط القرية وكان يحفظ ما سماه الفلاحون «سورة الفدان» وهى طريقة غامضة وسرية تستخدم لحساب قياسات الأراضى حسابا دقيقا جدا وسريعا جدا، وعمل الأب فى أكثر من حرفة ليكسب قوت الأولاد، فعمل بناء، وقبانى، وكاتبا لتجار القطن وكاتبا للعقود وأوراق شرك المواشى، الأم خياطة لجلابيب نساء القرية، وهكذا يأتى القوت وإن كان شحيحا، الأب بدأ يعلم الابن ثم أرسله إلى الكتاب، ويحكى محمد فى حواره معى «كنت ولد شاطر، سريع الحفظ وحسن الخط وحفظت القرآن كاملا وأنا فى الكُتّاب وحصلت على مكافأة خمسة جنيهات وهو مبلغ ضخم فى زمن كان أردب القمح فيه بسبعين قرشا، وأرسلنى أبى إلى الزقازيق لأدرس فى المعهد الدينى، بدل الجراية كان ١٨ قرشا فى الشهر، وعشت بها

وحدها على حافة الجوع، لكننى ظللت متفوقا» وينجح الشيخ محمد ويلتحق بالمعهد الثانوى واقترب حلم أبوه من التحقق، ولكن المظاهرات ضد الإنجليز بدأت وانغمس فيها حتى نسى المعهد ونسى كل شىء، انضم إلى الإخوان ألبسوه ملابس الجوالة، وأعطوه طبلة ليوقظ الناس لصلاة الفجر، لكنه كان يستهدف شيئا واحدا هو تنظيم المظاهرات ضد الإنجليز، لكن الإخوان لم يتحمسوا لفكرته فتركهم.

وبالمصادفة التقى على قهوة البوسفور فى الزقازيق ضابطا إنجليزيا شيوعيا وعن طريق مترجم أضاء له الضابط طريق الماركسية، وأنهى الشيخ محمد دراسته الثانوية والتحق بكلية أصول الدين بالقاهرة، وارتفع بدل الجراية إلى ٧٨ قرشا شهريا وطبعا لا يكفى، لكن الحلم الذى أشعله الجندى الإنجليزى لم يزل يغمره، وفى جلسة على قهوة بشبرا ارتفع صوته مستعيدا لزملائه بعض ما سمعه منه، واقترب منه عامل نسيج شيوعى وضمه إلى تنظيم م. ش. م وتعلق الفتى بالنضال الماركسى، ترك الدراسة المنتظمة وذاكر فى البيت، وحاول جهده تجنيد العديد من طلاب أصول الدين حتى عرف الجميع أنه شيوعى، وفى نهاية العام الدراسى وقف فى امتحان الشفوى أمام الدكتور محمد البهى الشيخ الممتحن بادر الشيخ الشيوعى قائلا: «أنت لم تحضر أى محاضرة وأنت شيوعى ولهذا لن أسألك ولن تنجح طوال وجودى بالكلية حتى تعلن توبتك عن الشيوعية.وأمام الخيار الصعب اختار الشيخ محمد عراقى الشيوعية وأصبح محترفا ثوريا ينام فى رواق الشراقوة أو فى الجامع، ويحصل على خبزه من القراءة والمذاكرة للمكفوفين، وبهذا واصل تعليمه لأصول الدين ونضاله الشيوعى معا.

وأخيرا وجد عملا منحه فرصة الحديث عن أفكاره، فقد استعان بقليل من معرفة اللغة الإنجليزية بفضل محاوراته مع الضابط الإنجليزى، وعمل مدرسا للطلبة الأفارقة المبعوثين للأزهر، يعلمهم الفقه والماركسية معا مقابل خمسين قرشا فى الشهر للطالب واكتشفه المسئولون فطردوه.

وفى بداية ١٩٥٠ انضم إلى منظمة حدتو فانفتح أمامه باب نضال جماهيرى حقيقى سواء فى حركة السلام أو فى صفوف الفلاحين، وعقب صدور قرار حل الأحزاب فى ١٦ يناير ١٩٥٣ يلقى القبض عليه ويتنقل بين أكثر من معتقل حتى يصل إلى معتقل الطور فيفتتح هناك فصلا لمحو أمية الرفاق العمال والسجانة معا، وبعد جولة أخرى على سجون

الصعيد يفرج عنه قبيل تأميم قناة السويس فسافر إلى «ميت القرشى» ليزور أهله لكن العدوان الثلاثى فاجأ الجميع فترك الأهل إلى حيث قرر الحزب إقامة معسكر الحلمية «أبوحماد شرقية» وهناك تحدث أكثر مما يجب عن الشيوعية، سحبوا منه ومن رفاقه السلاح وأمروهم بالعودة للقاهرة، ويعود الشيخ المشاغب إلى الشغب النضالى حتى يقبض عليه فى أول يناير ١٩٥٩ وكان قد تزوج قبلها بأسابيع.. وفى الوادى الجديد زار المعتقل اللواء إسماعيل همت أمرهم بخلع ملابسهم تماما ووقف يستعرضهم فأفلتت من الشيخ ضحكة مكتومة، غضب اللواء وأمر بإحضار العروسة وجلد هذا المعتقل المشاغب، ذكريات الجلد مخيفة ففى بلدهم حكم على خفير بالجلد سبع جلدات لأن جاموسة سرقت من دركه، ومات الغفير بعد الجلدة الخامسة، لكنه قرر أن يحتمل وأن يغيظ الباشا اللواء فكان يبتسم مع كل جلدة واللواء الغاضب يصرخ «عد» ومعناها أن يبدأ عد الجلدات من جديد، وبعدها أدرك الشيخ المشاغب أن الجلد لا يقتل فواصل الشغب، وتمضى سنوات الاعتقال الخمس بعد أن تعلم فيها الشيخ الإنجليزية وبعضا من الفرنسية، ويعود الشيخ إلى ميت القرشى، الحزب يُحل حُلمه القديم يتلاشى أمام عينيه، وهو لا يجد خبزا للزوجة والأولاد، أبوه ترك له عدة أشبار من الأرض يزرعها دون قوت حقيقى ويدرس لأطفال القرية اللغة العربية والإنجليزية والغريب أنه أتقن على يد أحد المدرسين الجبر والهندسة وحساب المثلثات فصار مدرس القرية فى كل العلوم للفقراء، الدروس مجانية ومن يستطيع الدفع يدفع. ومع أول أيام منبر اليسار جاء ليضع نفسه معنا وليسهم فى بناء قاعدة فلاحية راسخة فى عديد من مناطق الدقهلية وينتخب أمينا للفلاحين فى الحزب، ويسهم فى قيام اتحاد الفلاحين تحت التأسيس، وأصبح الشيخ واحدا من أهم الكوادر الفلاحية فى مصر.. وفى انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ يقبض عليه، كان كل قلقه متعلقا بقوت الزوجة والأولاد، لكنه عندما يفرج عنه يكتشف أن الزوجة كانت تعيش فى رغد من العيش، القرية ردت الجميل للشيخ المناضل الذى علم أطفالها.. وكل بيت أرسل للأسرة ما يستطيع والبعض الذى يخاف عيون المخبرين كان يأتى عند الفجر ليترك أمام باب البيت جنيها ملفوفا فى قطعة قماش.. وتكاثرت الجنيهات حتى خرج الشيخ، ومرة أخرى يعتقل الشيخ فى ١٩٧٩ ثم فى ١٩٨١ ليكمل دورته على كل سجون ومعتقلات مصر، ويواصل الشيخ المشاغب المناضل المعلم الفلاح نضاله فى صفوف التجمع حتى آخر نسمات الحياة.

محمد حسن جاد «برق» (١)

أنا كنت فى الأصل فتوة، وأكبر وأشهر فتوة فى حى المناصرة وشارع محمد على، والفتوة غير البلطجى فهو يحمى الضعيف ويأخذ من الغنى ليعطى الفقير، ولهذا كان سهلا أن أصبح شيوعيا.

محمد حسن جاد «برق»

(من حوار اجريته معه)

... «ذات يوم اعتدى سائق الترام على سيدة من حى المناصرة، جاءت المرأة باكية تطلب تأديب سائق الترام، سحبت كرسى من القهوة وترابيزة وقعدت بالضبط على شريط الترماى وأحضروا لى شيشة وجلست أدخن بينما توقفت قطارات الترام فى طابور طويل، وجاء مأمور القسم وظل يلح على، ثم أحضر سائق الترماى ليعتذر للسيدة.. وأفرجت عن الترام.»

ويمضى عم برق فى حكاياته «أنا فى الأساس كنت أسطى نجار مسلح وكنت أنفق كل دخلى على الجدعنة وأصحابى ومشاريب القهوة، ولم أكن أهتم بالسياسة لكننى كنت وفديا، وفى عام ١٩٣٥ هاجت شوارع القاهرة بالمظاهرات ضد تصريح المستر هور الذى قال فيه إن مصر لا تستحق الاستقلال، كنت أعمل فى بناء عمارة فى شارع سليمان باشا، وجاءت مظاهرة تهتف «يسقط هور ابن الطور» وتصادمت المظاهرة مع الجنود الإنجليز الذين أطلقوا عليها الرصاص وما أن اقترب الجنود الإنجليز من العمارة حتى وجدت نفسى ألقى عليهم عروق الخشب و«القمط» الحديد وشاركنى كل العاملين معى وهرب الإنجليز وطبعا هربت بعدها». (من حوار أجريته معه)، وفى بداية الأربعينيات أصبح عم برق أسطى ورشة النجارة فى شركة سالم سالم للأوتوبيس وكان سالم إخوانيا متعصبا وفى نفس الوقت يستغل العمال استغلالا بشعا، ونمضى مع حوارى معه «كنت

أحصل على مرتب كبير جدا جنيه وخمسة قروش فى اليوم ومع ذلك بدأت فى تجميع العمال لتشكيل نقابة، اتهمنى صاحب العمل بأننى أحرض العمال على تخريب ورشة الشركة، وسألنى وكيل النيابة عن مرتبى فصعق وقال إنه أكبر من مرتبه بكثير، ودهش كيف أضحى بمرتب كهذا، وأفرج عنى لكن الحاج سالم سالم فصلنى واتهمنى بأننى شيوعى وكانت أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة».

ثم ينتقل فى حوارى معه إلى مرحلة جديدة فى سنة ١٩٤٥ شفت مظاهرة ضد الإنجليز فمشيت فيها ولكن البوليس بدأ يضربنا بوحشية فهجمت عليهم ولكنهم تكاثروا على وساقونى إلى قسم الموسكى، وفى الحجز شاهدت عديدا من الطلاب المتظاهرين، وسألت واحدا منهم إنت ممسوك ليه فقال «أنا شيوعى، فصحت فى وجهه هو انتم يا اولاد.. وأمسكت بخناقه» هكذا برق وجد هؤلاء الذين تسببوا فى فصله، لكن الشاب لهادئ استمر هادئا، وشرح له أهدافهم ومواقفهم وفى مساء ذات اليوم أصبح أكبر فتوات حى المناصرة وشارع محمد على شيوعيا. ويلاحقه هذا الشاب (كمال شعبان كان طالبا فى كلية الفنون قسم عمارة) بالمحاضرات يشرح له أوضاع البلد وأحواله.. وتغير الفتوة «تركت الفتونة وأصبحت أمشى فى الشارع هادئا، الناس دهشوا وكانوا يتساءلون.. هو برق جرى له إيه؟ فيرد من يعرف «أصله بقى شيوعى» ولكن «شيوعى يعنى إيه؟» ويشرح لهم برق حتى أصبح معه العديد من الأعضاء الجدد، ثم تأتى مرحلة الاحتراف الثورى ويحكى «قابلنى هنرى كورييل وبهرت بتواضعه وبساطته فى شرح أعقد المسائل، وسألنى بهدوء إيه رأيك لو تترك عملك وتصبح محترفا ثوريا؟ أجبت دون تردد: «ماشى» فسأل مرتبك كام فى الشهر؟ وقلت: ثلاثين جنيها، فقال: مش حنقدر نديك إلا ثلاثة جنيهات فى الشهر فقلت: ماشى وأصبحت محترفا».

وسألته: كم عاما سجنت؟ فإذا به يغضب قائلا: لا أحب الاجابة على هذا السؤال فلست مثل هؤلاء الذين يسجنون شهورا أو عامين أو ثلاثة ولا يتوقفون عن الحديث حول السجن والتضحيات والبطولات، أنا مناضل بسيط أديت ضريبة التزامى بالمبدأ، وألححت وألح فى الرفض وأخيرا قال: ١٦ سنة وشوية شهور».

ويمضى الحوار مع واحد من فرسان الزمان القديم، هؤلاء الذين يرحل الواحد منهم ولا يمكن تعويضه، كان يجلس أمامى هادئا يتحدث عن تضحياته وعذاباته هو وأسرته وابنه

الذى لم يره إلا رجلا، كان يتحدث كأنه قطعة من جرانيت فرعونى لا يمكن للزمان ولا السجون ولا التعذيب أن تغير ملامحها ولا قناعاتها واستمع «طبعا السجن كان صعب، وبالنسبة لى بالذات كان صعب جدا أنت لا تعرف معنى أن تترك بيتك دون لقمة خبز ودون مليم واحد، كنت آكل فى السجن وأنا أعرف أن أم حسن وحسن يجوعون بالفعل»، ويمضى «لا تقل كم سجنا سجنت فيه، ولكن قل كما سجنا لم تزره، فى الفترة من ٤٨ إلى ١٩٥٠ كان النظام حريص على توزيعنا على سجون عديدة حتى لا نجتمع معا وعلى نقل كل منا من مكان لمكان حتى لا نستطيع الاتصال بالتنظيم فزرت سجن مصر «قره ميدان» والزقازيق وطنطا والمنصورة والإسكندرية وطرة وأبوزعبل وبعدها الواحات».

ولست أدرى لماذا سألته «كم مرة بكيت يا عم برق؟» فأجاب «الراجل مش ممكن يبكى إلا إذا كانت المصيبة تهد جبل، وعلى أى حال أنا بكيت أربع مرات طوال حياتى يوم موت حسن ابنى ويوم اغتيال هنرى كورييل ويوم حل الحزب ويوم ما أصدرت كتابك عن الصحافة اليسارية وعليه إهداء لى» ويمضى فى حوار لابد أن يستكمل.

محمد حسن جاد (برق) (٢)

«يوم حل الحزب حسيت أن أمى وأبويا ماتوا فى يوم واحد. حسيت إننى أصبحت مجرد فرد ضعيف فى مواجهة مجتمع ظالم وغدار وانى فقدت الدرع والسند والحصن».
محمد حسن جاد

وعندما أصدرت كتابى تاريخ الصحافة اليسارية وتوجته بإهداء يقول «إلى رجل لا تعرفونه، إلى شجرة عجوز راسخة تبدو وكأنها أبدية الإصرار، أبدية العطاء إلى محمد حسن جاد. تجاوز السبعين من حياة وهبها جميعا- ولم يزل- من أجل المبدأ ووهب منها سبعة عشر عاما فى السجن دفاعا عن حرية الإنسان العربى.. وحقه فى التعبير».

أمسك عم برق بالكتاب وبكى قائلا: الآن اشعر أن عمرى لم يضع هباء وستأتى أجيال قادمة تعرف أن واحدا اسمه برق ضحى بحياته علشان هى تعيش أحسن. وقال: دايما إهداء الكتب يكون لواحد مهم أو مشهور اما إهداء كتاب لشخص بسيط مثلى فهذا شرف كبير.. كبير».

ثم نمضى سريعا مع سجين دائم لنقترب من عام ١٩٧٨ كان الزمن قد رسم خطوطه على الوجه الجرانيتى وكان يردد: لم أكن اتصور أن الزمن سيفعل بى ذلك «كنت اتابعه وهو يحفر بأظافره صخر الحياة القاسية لينتزع خبزا لنفسه ولاحفاده ولابناء احفاده وإذ آن له أن يستريح،رتب له رفاقه القدامى معاشا شهريا كافيا.

وفجأة دخل إلى مقر حزب التجمع.. وقف، تأمل، أخذ نفسا عميقا ثم أصدر لى أمراً حازما: أنا قررت اشتغل هنا، إذا قعدت فى البيت حاموت فوراً. سحب كرسيا وبدأ يمارس دوره كمسئول استعلامات دون حتى أن أنطق.

وذات يوم ناداه أحد قادة حزب التجمع ولم يكن يعرفه، اعطاه جنيها وقال له اشترى لى علبة سجاير. فذهب واشتراها وفيما يعطيه الباقى قال له : خللى الباقى علشانك» وهنا

سمعت زئيرا أتى بى من مكتبى، ووجدت عم برق ممسكا بخناقه وهو يقول: انا اشتريت لك السجاير علشان أنا مناضل ممكن أخدم أى زميل فى الحزب، لكن أنا مش نسحات.. فاهم؟ ويرد القيادى فاهم» لكن برق يعيد : فاهم؟ فاهم؟.

وعندما أتت السنوات العجاف. سنوات السادات وكامب ديفيد كان الهجوم الدورى على مقر الحزب المركزى استفزازا لا ينتهى، يأخذون كل شىء، آلات الطباعة والورق والأحبار وكان التركيز على أدوات الطباعة، وذات يوم أخذوا آلة طباعة جديدة فى اليوم التالى لشرائها.. وسمعنى عم برق، وأنا اقول مفيش فلوس نشترى غيرها»، واختفى. وبعد ساعتين عاد وهو يخفى داخل البالطو الضخم آلة طباعة بدائية (شاسيه خشب. وقطعة حرير مشدودة عليه ورول كاوتش وعلبة حبر) وكنا قد دعونا لمؤتمر صحفى عالمى نتحدث فيه عن المداهمات المتكررة لمقرنا. وأمام ورقة استنسل، وقف عم برق يعطى تعليماته لأحد رسامينا.. ارسم هنا وردة واكتب بخط عريض هنا «سنبقى دوما فى خدمة الوطن، وبعدين اكتبها هنا بالانجليزى وانصاع الرسام للأوامر. وشد برق الاستنسل على الشاسيه ويدخل الصحفيون وهو واقف فى مدخل المقر ليطبع لكل صحفى ورقة خاصة به. وتجمع الصحفيون حوله وهو يطبع قائلا بصوت عال خليهم ياخدوها أنا اقدر اعمل عشرين واحدة زيها كل يوم. واشتعلت فلاشات الكاميرات حوله واشتعل معها غيظ الأمن، وذات ليلة هاجموا المقر وصادروا الشاسيهات وأوراق مطبوعة عليها بيان شديد القسوة. وكانت بين المضبوطات ورقة دشت عليها بصمات أصابع «برق» فقد مسح الحبر عن يديه فيها. وقبض على برق فهم واثقون أن البصمات له. وبعدها بثلاثة أيام عاد فقد أتى تقرير الطب الشرعى مؤكدا أن البصمات ليست له. وسألته «كيف يا عم برق؟» وقال ضاحكا: المسألة سهلة. انبوبة اوهو تفرغها على اصابعك ثم تحك اصابعك فى اسفلت الزنزانة فتصنع بصمات جديدة، وواصل ضحكه قائلا حكومة صايعة.. وانا رجعت لأيام الصياعة».

وأخيراً نجحت أن أحقق له حلمه الأبدى .. أن يزور موسكو وكانت أولى أمنياته أن يزور قبر لينين، تخطى به المرافق الطابور الطويل جدا للزائرين فهو ضيف، وما إن وجد نفسه أمام جثمان لينين حتى شد قامته ووقف وقفة عسكرية، و.. تعظيم سلام، وظل واقفا رافضا أن يتزحزح.. يهزونه، يشدونه وهو ثابت فى وقفته العسكرية وأخيرا صاح فيهم: ما هو عندكم كل يوم لكن دى أول مرة وآخر مرة أشوفه. وعندما زحزحوه بالقوة عاد محاولا

أن يقف فى الطابور من جديد.. وعندما عاد من موسكو أتى معه بمنشار كهربائى صغير، وقال ده هدية الحزب علشان لو قلبوا علينا تانى نبقى نقدر نطبع زى ما احنا عايزين.

وأخيرا نجح الزمن.. سنوات العمر الذى استطال، السجن المضنى، والنضال الذى لا يهدأ والفقر الذى لا يرحم، نجحوا جميعا فى الانتصار على هذه الإرادة الجرانيتية. وفى أواخر أيام حياته زرته، وكان ممداً على سرير فقير وأمسك بيدى قائلا: خللى بالك من الحزب.

سمعا وطاعة يا عم برق

محمد على عامر

والميه حتطلع فى العالى
والنصر لينا طوالى
والاستعمار سبب فقرى ودموعى
عايش على عرقى وجوعى
محمد على عامر
من أحد المواويل التى كان يرتلها فى السجن

عندما يحدثك محمد على عامر عن الفقر الذى كان يعيشه لا يمكنك أن تصدق أن بشرا كانوا يعيشون فى هذه الحالة، كل هذا الفقر لا يمكن تخيله، ولا يمكن تصور أنه موجود، لكنه كاف تماما أو حتى قليل منه لأن تتفهم هذا الحماس والغيظ والكراهية التى تغمر كل تصرفاته ضد الاستعمار والإقطاع وكل الأغنياء، ويروى محمد عامر فى حوارى معه.. ضحك طويلا ثم قال «انت عارف أنا عصبى قوى ليه أصل أمى من أصل بدوى، أمها ماتت وهى بتولدها وأبوها مات بعد يومين، خدو البنت وإدوها لعمها وكان أفقر من الفقر، واحتاس العم يرضع البنت إزاى، فتوسل لجارة كى ترضع من لبن حمارته وبعد فترة توسل لجار قرداتى كى ترضع من القردة، ونشأت أمى قوية عفية طويلة اليد وطويلة اللسان وكان الجيران يخافون منها ويسمونها العفريتة ويتندرون بأنها رضعت لبن الحمير ولبن القرود.

وعندما كبرت كانت أمى تحرضنى «أى حد يلمسك أو يشتمك اضربه فورا بشدة وعنف وشراسة علشان الناس كلها تخاف منك».. والحقيقة أنا أخدت من أخلاق أمى كثيرا، أما أبويا فكان أجيرا فقيرا فى عزبة باشا فى الشرقية، زوجة الباشا عاقر أعجبها الطفل محمد ساومه الباشا على أن يشترى منه الطفل فرفض، علقوه على شجرة وظل الباشا يضربه حتى تعب فسلم الكرباج للخولى وأمره أن يواصل الضرب ليلا ونهارا.

الخولى صعب عليه الراجل ونزله من على الشجرة، وهرب الرجل وزوجته وابنه إلى حى المطرية، ويعيش حياة الفقراء، كان بجوارهم معسكر لحرس الحدود والحرس يستخدم الجمال، وأمه وجاراتهم يذهبن ليجمعن روث الجمال.. يغسلنه فيجدن بقايا ذرة رفيعة تستخدم لإطعام الجمال، هذه البقايا تجفف وتطحن فى الرحاية لتكون خبزا»، فى ظل هذا النوع من الفقر عاش محمد، ترك الكتاب واشتغل فى أى شغلانة، شيال - صبى - جزار - عامل فى مسبك ثم عامل نسيج، ووفقا لوصية الأم فرض الفتى محمد سطوته على أطفال الجيران وعلى زملائه فى العمل.

ويمضى فى حواره «أصبحت وفديا، وانضممت إلى القمصان الزرقاء وتفوقت على لجميع فى عنفى ضد الخصوم وبعد فترة تحولت للعمل النقابى ومع نهاية الحرب العالمية الثانية أصحبت قائدا نقابيا ونجحت فى تأسيس نقابة «عمال النسيج الميكانيكى وملحقاته» وأصبحت رئيسا لها، وبعد فترة التقيت صحفيا فى جريدة البلاغ اسمه أنور كامل وانبهرت بأسلوبه ومعلوماته وواصلت جتماعاتى معه وأحضرت له عديدا من العمال، وبعد فترة بدأ أنور كامل وزميل له اسمه لطف الله سليمان فى الهجوم خلال المحاضرات على الاتحاد السوفيتى، لكننى كنت معجبا بستالين وبالجيوش السوفيتية التى هزمت هتلر، وسألتهم لماذا تهاجمون روسيا ولا تهاجمون أمريكا والاستعمار فقال لا نهاجم الأمريكان لأنهم مكشوفين ولم يعجبنى الرد وطردتهم من الاجتماع وأقسمت لهم لو حد فيكم جه الزيتون أو عرب الحصن حادفنه هنا» وواصل محمد عامر نضاله النقابى ليصبح واحدا من القادة المرموقين فى نضال عمال النسيج ويعتقل عام ١٩٤٨ ليرحل إلى الطور وهناك التقى الشيوعيين الذين تعاملوا معه بحذر شديد باعتباره تروتسكيا ويقول «لم أكن أعرف عن التروتسكية أى شىء سوى أنها ضد الاتحاد السوفيتى، لكننى تعاملت مع الجميع بشراسة فقد بادرونى بالعداء ورددت عليهم بعداء أشد» وخرج محمد عامر من الطور إلى نقابته ونمضى فى الحوار معه «فى عام ١٩٥٠ دخل النقابة شاب سودانى يحمل نداء استكهولم للسلام ويطلب التوقيع عليه، صرخت فيه إزاى سلام مع الاستعمار فشرح الأمر بهدوء وتحدث عن الاستعمار كسبب فى الحروب، كلماته دخلت قلبى وقررت أن أوقع وأمسكت بموس علشان أبرى القلم لأ أوقع فجرحت صابعى وصرخت فى العمال الحاضرين أنا أوقع بدمى، وتدافع العمال ليوقعوا معى وكتبوا أوراقا بخط اليد ليكملوا التوقيعات وعندما رأى يوسف حلمى سكرتير اللجنة التحضيرية لأنصار السلام توقيعى كرئيس نقابة طلب مقابلتى وضمنى للجنة التحضيرية، وعندما حاول البعض من اليساريين إقناعى بأن منظمة «حدتو» تخرب العمل اليسارى عن طريق تأسيس حركة السلام ذهبت إلى شيوعى قديم عنده

مصنع طباشير بعزبة المبيض اسمه محمد محمود ووجدته يستمع إلى راديو موسكو وفيه إشادة بحركة السلام المصرية فصرخت ستالين مع حركة السلام وأنا معها، ثم صرت عضوا فى حدتو عنادا مع خصومها، واتخذت اسما حركيا هو «عاصف»، وبعد فترة أصبحت عضوا بالمجلس العالمى للسلام وعضوا فى اللجنة المركزية لحدتو».

ومن سجن إلى سجن تنقل محمد على عامر، وترك طفله كمال، ولكن من أين يأكل كمال وأم كمال؟ «أم كمال ست جدعة وقفت فى الشارع تقلى طعمية وتعمل سندوتشات، وتنتهى فترة السجن ويخرج الفارس إلى عرينه فى الزيتون، لكن البعض يلاحقه بفكرة حل الحزب ويرفض، ويصرخ فى الاجتماع «لكم دينكم ولى دين» ويبدأ فى تأسيس الحزب من جديد، خلايا جديدة وعمال جدد، ختى يلحق به آخرون ويؤسسون الحزب ويكون عضوا فى المكتب السياسى.

لكن لمحمد عامر وجه آخر هو مواويله، ويقول «كنت أغنى فى السجن مواويل أنسجها بنفسى، قالوا لى صوتك وحش قلت عارف بس حلاق القرية بيعالج الناس لأن مفيش دكتور وفى السجن الناس محتاجة حماس وأنا باحمسها بصوتى الوحش»، ويضحك وهو يسمعنى موالا سمعته منه مئات المرات ونحن فى السجن..

أصل الحكاية كانت أحلام فى أمريكا
سبب البلاوى وأس الظلم فى العالم
ترومان ومارشال وكام دجال فى أمريكا
عاملين عصابات لرعب الناس فى العالم
وتأخذه الجلالة ويتربع على الكرسى ليواصل الغناء بموال جديد
انزل يا طير والدار خالى
ولدى يا ولدى وأنا باغنى وبالآلى
والميه حتطلع فى العالى
والنصر لينا طوالى
الاستعمار سبب فقرى ودموعى
عايش على عرقى وجوعى
ح أموت وأعيش وأنا شيوعى
وقد كان.

الشيخ عبدالسلام الخشان

وأصبحت قريتى ميت الطوج قلعة يسارية، حاول الإخوان غزوها، فأتوا بجحافل من أعضائهم من دكرنس وفارسكور والمنصورة وأحضروا كبيرهم د. خميس حميدة وحاولوا افتتاح شعبة لهم بالقرية، لكن أبناء القرية جميعا وقفوا فى وجههم صائحين «مش عايزينكم» وحتى العمدة صاح فى وجههم إذا كان عندكم مشايخ إحنا عندنا «أجدع شيخ» وكان يقصدنى.

«من حوارى مع الشيخ عبدالسلام الخشان»

الأب كالعادة فقير، لكنه كان أفقر فقراء قرية فقيرة هى أيضا، ومع ذلك كان يمتلك حلما كبيرا أن يتعلم الولد عبدالسلام ويصبح شيخا أزهريا، ليرفع الرجل رأسه وأيضا ليتخلص من الفقر.

والولد عبدالسلام ذكى وسريع الحفظ وحسن الخط. وحفظ القرآن بسرعة مذهلة، وأصبح وهو طفل خطاط القرية، تشجع الأب وضغط على نفسه ليوفر مصروفات انتقال الابن ليدرس فى المعهد الدينى الابتدائى بدمياط، ومن غيوم الفقروالإحساس بالظلم تكونت حلقة من الطلبة من أبناء القرية يتناقشون فى أيام الإجازات ويتجمعون على جسر البحر الصغير وتشتعل مناقشات لا تنتهى، آلامهم مشتركة وكذلك أحلامهم، لكن الطريق غائم، وكان عبدالسلام وصديقه الحميم السيد يوسف الأسرع نحو اكتشاف كنز المعرفة، عثر أحدهما على نسخة قديمة من كتاب «تربية سلامة موسى» وصرخ الاثنان معا بالكلمات الجديدة تماما «الاشتراكية» «الليبرالية» «الثقافة» «العدل الاجتماعى» وتجمع طلاب القرية وبدأ عبدالسلام يقرأ لهم الكتاب فصلا فصلا بصوت جهورى.

اتسعت الحلقة، وتماسكت لكن الطريق غير واضح المعالم، عام أو عامان وذهب عبدالسلام ليدرس فى المعهد الدينى الثانوى بالزقازيق.

وهناك التقى بالمصادفة،عسكرى مطافئ وهو بالتحديد عازف فى فرقة موسيقى المطافى اسمه رزق سرور، جلسة أو جلستان افترش الضوء كل مساحة عقله، التهم أكثر من كتاب ماركسى واستمع إلى عديد من المحاضرات وأصبح عضوا فى حدتو، ويعود الشيخ محملا بضوء يكفى القرية بأكملها، ومضى هو والسيد يوسف يناقشان كل سكان القرية من حارة لحارة ومصطبة لمصطبة، وأصبح الجميع يتحدثون بالكلمات الجديدة «الاستعمار» «الاستعمار الجديد» «حركة أنصار السلام» «الإقطاع» «الاستغلال» وعندما يحضر الشيخ من المنصورة مجموعة من العرائض تحمل عنوان «نداء استكهولم من أجل السلام» وقع الجميع وأخرج الفلاحون والفلاحات الأختام برضاء تام ليوقعوا على الأوراق التى أحضرها سيدنا الشيخ، الذى أصبح خطيب الجمعة فى القرية، وإمامها فى كل صلاة، وهو المفتى إن احتاج أحدهم لفتوى، وفيما تحتشد القرية كلها فى دوار العمدة لتستمع إلى خطاب عبر الراديو الوحيد فى القرية إلى النحاس باشا الذى أعلن فيه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ صاح الشيخ «الكفاح المسلح طريق الخلاص» وهتفت القرية خلفه فى مظاهرة عارمة، شارك فيها الكثيرون من القرى المجاورة وأخذ الشيخ عبدالسلام المسألة جدا فبدأ فى جمع متطوعين من شباب القرية والقرى المجاورة ليتدربوا ثم يحملون السلاح ضمن «كتائب الأنصار» التى شكلتها حدتو، لكن حريق القاهرة يأتى وتأتى معه الأحكام العرفية وتكتم أنفاس الكفاح المسلح، وفى هذه الأثناء حصل الشيخ متفوقا على ثانوية الأزهر، ويصبح الرفيق الشيخ طالبا فى كلية أصول الدين ويشترك معنا عضوا فى «رابطة الطلبة الشيوعيين - حدتو» والتقيته فى اجتماعات عديدة، كان كثير الضحك، وفى كل اجتماع يحضر ومعه أسماء عدة من طلاب أصول الدين والكليات الأزهرية المجاورة، لكنه كان كثير الغياب عن الاجتماعات وعندما عاتبته قال: يا رفيق أنا لا تعجبنى سفسطة الأفندية، ولهذا طالبت من التنظيم أن أشارككم بعض الوقت وأن أعمل فى قرى مركز دكرنس بقية الوقت وكان طبيعيا أن يتغيب عن دروس الأزهر، ولكن ما أن يأتى آخر العام حتى يستقر فى بيت لبعض زملائه بشبرا يسجن نفسه سجنا حقيقيا يذاكر ليلا ونهارا وينجح، وكان يتعين عليه أن ينجح ليس فقط لكى ينقذ أباه من نفقات معيشته خارج القرية، وإنما لأن رابطة الطلبة كانت قد أصدرت قرارا بتنزيل كل من يرسب من الرفاق، ولم يكن يسمح لنفسه أن يعاقب بهذه العقوبة، عاش الشيخ حياته كلها فقيرا وذات يوم عقدت فى شقتى اجتماعا

لقسم الأزهر، قدمت لهم شايا وطبقا من البتى فور أرسلته أمى من المنصورة، صرخ الشيخ باشمئزاز لقم عيش حاف؟ إحنا ناقصين فقر، وطالبته بأن يتذوقها فصرخ بعد أول قطعة فى فمه «دلوقت عرفت ليه الرأسماليين متمسكين بالاستغلال»، وعندما تأتى ثورة يوليو سارعت حدتو لتحقق بعضا من أحلامها فدعت رفاقها لتشكيل نقابات للعمال الزراعيين واتحادات للفلاحين وتعاونيات، ودعا الشيخ عبدالسلام فلاحى القرية لتأسيس اتحاد للفلاحين، لكن أحد الإخوان المسلمين من قرية مجاورة أسرع ليبلغ الأمن أن هناك اجتماعا مناهضا للثورة، وأتت حملة ضخمة من البوليس، فكل الناس تسمى ميت الحلوج بالقرية الحمراء ويقبض على العديد من الرجال ومعهم الشيخ، ليفرج عنهم بعد قليل، ولكن الصدام يقع بين حدتو ويوليو، ويهرب الشيخ ليتنقل من قرية لقرية، ومدينة لأخرى ولأنه كان يعتمد فقط على ما يرسله أبوه من قروش قليلة فقد عاش على الكفاف، وأخيرا لم يجد الأب بدا، وباع آخر ما يمتلك «الحمار» وأرسل ثمنه للشيخ والشيخ المناضل يعيش فى أحضان الجماهير حقا وصدقا ينام ليلا فى أحد الحقول ثم يجتاز الحقول من قرية لقرية، البوليس يطارده وأعضاء جماعة الإخوان يطاردونه وأشاعوا إشاعات غاية فى الغرابة يقول بعضها إن روسيا أرسلت له طائرة مملوءة بالجنيهات ليصرف منها، لكن الفلاحين يعرفون أن أباه باع حماره وكل ما يمتلك ليكفل لابنه الكفاف، ويأتى عدوان ١٩٥٦ ويكف الأمن عن مطاردته فهو يتدرب سريعا مع عشرات من رفاقه ليدخلوا سرا إلى بورسعيد المحتلة، ويخوضون معركة ضارية ضد الاحتلال.

وبعد انسحاب الاحتلال يعود الشيخ للظهور من جديد وينجح فى إعادة قيده بالكلية ويواصل دراسته حتى يحصل على شهادة العالمية، ويخوض الشيخ انتخابات المحليات ويطبع بيانات موقعا عليها «الشيخ عبدالسلام الخشان.. من العلماء» ويجن جنون خصومه من الإخوان ورجال الأمن، ثم يأتى الزمن الصعب فى يناير ١٩٥٩ ويبدأ الصدام مرة أخرى حول الديمقراطية ويفلت الشيخ من الحملة الأولى، وذات يوم التقينا بالمصادفة على كوبرى أبوالعلا، هو هارب وأنا أيضا، قضينا سويعات معا ثم افترقنا لنلتقى بعد أشهر فى السجن، الشيخ تعرض لتعذيب وحشى لكنه صمد صمودا لا يتصوره إنسان، ويبقى الرجل رجلا يستحق احترام الجميع، ويأتى الإفراج فى أبريل ١٩٦٤ ليخرج مع الجميع، الشيخ الآن يعيش فى ميت الحلوج مريضا ثم يلتحق بعمل إدارى بسيط فى مصنع

الخشب الحبيبى بسندوب، الأمن يحاصر كل خطوة والشيخ يحاول، لكن لطمة حل الحزب تضربه ضربة موجعة، والمرض الذى يترصد الفلاحين «البلهارسيا» كان قد تمكن منه فتمكنت منه دوالى المرئ، ورقد الشيخ المريض فى مستشفى الجمهورية بالقاهرة وكلما زرته أكتشف مخبرا أو أكثر يترصدونه ويترصدون من يزوره، يكتبون كل الأسماء ولست أدرى لماذا، اسم واحد لم يكتبوه هو طائر الموت، فالشيخ الصلب كالحديد لم يعد يجد مبررا للحياة أبوه مات وهو هارب، وأمه ماتت وهو فى السجن والوظيفة مملة بل قاتلة.. والحزب الذى كان عنده أغلى من أى شىء تم حله.. وميت الحلوج بعيدة عن يده المريضة، فلاحون يأتون لزيارته فيمنعهم حتى لا تسجل أسماؤهم على يدى المخبرين، وباختصار صارت الحياة مريرة ولا مبرر لها، وكما امتلك إصرارا حاسما على النضال امتلك أيضا إصرارا على الرحيل من حياة لا طعم لها ولا مبرر للبقاء فيها، وفى آخر زياراتى له، احتضننى بحنان وانهمرت دموعه، فعاتبته إيه يا عبدالسلام فين صلابتك فقال فى وهن «صلابتى هى أننى قررت الرحيل» ورحل بعدها بأيام.

محمد طه

عندما التقيت الشيخ عبد السلام الخشان، كنت صوفيا فى الطريقة الوفائية لكن كلامه عن الصراع الطبقى وعن خطورة الاتجار بالدين فى سوق السياسة جذبنى أنا وحمدينو السيد على إلى عضوية حدتو. وأحسست ساعتها أننى امتلكت كل الدنيا بين يداى. وقررنا أن نجعل من دكرنس قلعة حقيقية لليسار.

محمد طه «فى حواره معى»

كعادة الجميع أرسله ابوه الذى يشقى سعيا نحو لقمة خبز لإطعام الأولاد إلى كتاب الشيخ ابراهيم المرسى. الولد محمد شاطر وسريع الحفظ فختم القرآن وهو فى العاشرة من عمره وبدأ الحلم يداعب الأب بأن يصبح محمد شيخا أزهريا محترما، لكنه لم يجد المال الذى يمكنه من إرسال الولد ليدرس فى المعهد الأحمدى بطنطا. فانتقل حلم الأب إلى أن يتعلم الولد فى المدرسة الأولية ثم الابتدائية ثم وظيفة ميرى ومرتب ثابت. لكن الفقر لا يسمح لهؤلاء حتى بمجرد الحلم. فاضطر الأب إلى ارسال محمد ليعمل فى محل خردواتى بعد الظهر. وصاحب المحل كان صوفيا فهو ابن شيخ الطريقة الوفائية فى دكرنس. وتآخت أذكار الصوفيين وأحاديثهم المبهرة عن كرامات الشيخ الوفائى الكبير مع أحاديث صوفية أخرى لشيخ الكتاب الذى كان صوفيا فى الطريقة المحمودية. ومن الصوفية إلى شعبة الإخوان ليظل يناكفهم أمدا فهو يصمم على النقاش وهم يطلبون طاعة بلا نقاش. وأتم الولد مرحلة التعليم الأولى. ثم وقف الفقر عقبة فالمدرسة الابتدائية فى المنصورة والتعليم بمصروفات ولا أمل ، فترك الدراسة ليعمل مع أبيه فى دكانه الصغير الذى يبيع مستلزمات الترزى العربى.

وفى عام ١٩٤٨ كان هو وحمدينو يتساءلان عن مصير هذا الوطن. وقررا أن يفعلا شيئا. جردل وفرشاة وبوية وعلى كل جدران دكرنس كتبوا «يسقط الملك» وقامت الدنيا ولم تقعد،

وامتلأت حوارى دكرنس بمخبرين قادمين من المنصورة يبحثون عن «الشيوعيين» الذين كتبوا هذه الشعارات وكانت المرة الأولى التى يسمعان فيها عن «الشيوعية». وبعد عدة أشهر همس أحدهم فى إذن محمد.. هل أنت مع الشيخ عبد السلام الخشان؟ وسأل محمد ابن الخامسة عشرة والذى يتحدث فى كل مكان وبصوت عال ضد الملك وضد الاستعمار وضد الإخوان وضد الوفد.. سأل من هو الشيخ الخشان؟ وعرف إنه من قرية قريبة جدا «ميت الحلوج» والتقى به. وتحول محمد إلى كتلة من لهب يستمع إلى عبارات متقنة من الشيخ الطالب فى الثانوية الأزهرية ليعيدها علنا وعلى مسمع من الجميع. وإذ تلغى معاهدة ١٩٣٦ ويبدأ الكفاح المسلح فى منطقة القنال. يشكل محمد كتيبة من شباب دكرنس ويجمع تبرعات ليشترى سلاحا. لكن ما جمعه من مال لم يكف إلا لشراء مسدس واحد وبعض الذخيرة، وثار جدل بين أعضاء الكتيبة هو يصمم أن يسافر أولا لينضم إلى الفدائيين ثم يعود بسلاح يكفى الجميع. وتسابق آخرون، وأخيرا هبط حريق القاهرة على الجميع ليطفئ حماس الكفاح المسلح. فالأحكام العرفية تعلن، والفدائيون يعتقلون ويعتقل «محمد» باعتباره شيوعيا خطرا. ويخرج محمد سريعا ليكون أكثر نشاطا وأكثر صراحة فكل دكرنس تعرف الآن أنه شيوعى وتحولت دكرنس على يدى الثلاثى. الخشان - محمد طه - حمدينو إلى قلعة شيوعية فعلا، الأمر الذى أزعج الإخوان فبدأوا بالتحرش بهم، وبالفعل ترصدوهم وحاولوا الاعتداء عليهم بالجنازير لكن محمد وزملاءه استطاعوا صد العدوان ومعاقبة المعتدين بما دفع الدكتور خميس حميدة مسئول الإخوان بالدقهلية إلى الحضور لدكرنس ليعتذر لهم، وفى هذه الفترة شعر محمد إنه بحاجة إلى أن يتعلم فالتحق بمدرسة أبو صالح الليلية وحصل على الابتدائية. وفى نهاية عام ١٩٥٨ يستدعى محمد للتجنيد وكان قد حصل على الشهادة الاعدادية . وفى يناير ١٩٥٩ يشن عبد الناصر حملة عاتية على الشيوعيين ويعتقل الجندى محمد طه، وفى السجن الحربى يتعرض مع عدد آخر من الرفاق المجندين لعملية تعذيب وحشى. وصمد محمد طه صمودا أغضب ضباط السجن فزادوه تعذيبا ومن السجن الحربى إلى سجن المحاريق بالواحات ليبقى حتى ابريل ١٩٦٤. ويعود محمد طه إلى دكرنس . فى السجن كان قد أطال التفكير وقرر أن يكرس حياته للعمل وسط الفلاحين. وفى هذه المعركة تكاتف مع عبد الله الزغبى فى صراع مرير ضد الاقطاعى الذى يستند إلى كبار المسئولين الناصريين هو الشيخ الحفنى. يتذكر محمد اسلوبه القديم ويطلع نهار ليجد كل جدران دكرنس مغطاة بشعارات تهاجم الاقطاعى والناصريين

الذين يساندونه. وبتدبير من رجال الأمن شهد أحد الأشقياء بأنه رأى محمد طه، وهو يكتب شعار يسقط عبد الناصر. وقبض عليه لكن زملاءه فى دكرنس استطاعوا اثبات كذب الشاهد وافرج عنه. ويلتحق محمد بعمل فى بنك التسليف الزراعى فيزداد انغماسا فى مشكلات الفلاحين، ويواصل محمد دراسته فى ١٩٦٧ يحصل على الثانوية العامة، وفى ١٩٧٥ على بكالوريوس المعهد العالى للدراسات التعاونية، ويواصل ففى ١٩٨٣ يحصل على دبلوم الدراسات العليا فى إدارة الجمعيات التعاونية. ويصبح محمد واحدا من أشهر خبراء العمل التعاونى ومن أشهر المدافعين عن حقوق الفلاحين. ثم تكون انتخابات المجالس المحلية (١٩٧٩) ويرشح محمد نفسه ضمن قائمة كاملة لاعضاء حزب التجمع. ويعترض المدعى الاشتراكى بقرار جاء فيه «أفادت مباحث أمن الدولة بكتابها المؤرخ فى ٩-١٠-١٩٧٩ أن المذكور ماركسى متحرك وسبق اعتقاله عسكريا فى ٢٧-١-١٩٥٢، كما سبق الحكم عليه فى قضية الشيوعية رقم ١٨٩٦ لسنة ١٩٥٤. ثم اعتقل وهو مجند فى عام ١٩٥٩. وهو مازال على معتقداته ويسعى لاستغلال أى فرصة للترويج لفكره الماركسى وإثارة الجماهير وتأليبها ضد النظام ومن ثم نعترض على ترشيحه»، ويسرع محمد إلى محكمة القضاء الإدارى التى ألغت قرار المدعى الاشتراكى. وتكون بعدها سابقة خطيرة فقائمة التجمع تنجح بالكامل ويصبح التجمع المسئول المحلى عن دكرنس وعن حل مشاكلها. وكانت تجربة أكثر من رائعة، ويحكى محمد طه فى حواره معى «كنا بالفعل ندير دكرنس، فالناس إلتفت حولنا ومنحتنا دعمها المستمر بحيث لم يستطع رئيس المدينة ولا أى من المسئولين الإداريين أن يقف عقبة أمامنا، فكل المشكلات تناقش مع الناس فى جلسات عامة وعلى المقاهى وفى مركز الشباب ، وما يستقر عليه الناس ينفذ على الفور. وشعر الناس ولأول مرة أنهم يقررون مصيرهم، وأن العدل والمساواة هما أساس كل قرار يتخذ دون محسوبية ولا وساطة ولا خوف من أى مسئول سواء فى الجهاز الإدارى أو الاتحاد الاشتراكى.. وكان درسا جميلا لنا ولابناء دكرنس، لكن النظام تلقن الدرس ولم يسمح لنا بتكرار هذه التجربة فجرى تزوير الانتخابات المحلية التالية.

وطموحات محمد طه لم تنته فهو وبعد أن حصل على أعلى درجة علمية فى المجال التعاونى قرر أن يدرس الحقوق ليدافع عن الفلاحين فى قضاياهم. ولكن:

إذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الاجسام

فقد توقف القلب الممتلئ حبا بالفلاحين وبالمبدأ والذى أكد المدعى الاشتراكى «أنه مازال على معتقداته» وأنه «يسعى لاستغلال أى فرصة للترويج لفكره الماركسى». توقف القلب ورحل واحد من أجمل الرفاق.

عبدالله الزغبى

فى بداية عام ١٩٦٥ التقيت فلاحا مناضلا اسمه نصر خاض معركة ضارية ضد أحد كبار الإقطاعيين الذين قاموا بتهريب أراضيهم من الإصلاح الزراعى بعد أن كتبوا عقودا صورية لبيعها لصغار الفلاحين. وعندما تمسك «نصر» بعقد الملكية ضربوه وعذبوه فأضرب عن الطعام فى مقر الاتحاد الاشتراكى بدكرنس ورفعت له عدة قضايا.. عرضوا علىّ مائة ألف جنيه ثم مائتين كى أسلمهم نسخة عقد البيع ورفضت، فبدأ الاضطهاد.

«عبدالله الزغبى - فى حوار معه»

شأنه شأن كل أبناء متوسطى المزارعين تنقل عبدالله من بلد لآخر سعيا نحو الدراسة، قريته ميت السودان مركز دكرنس ليس بها مدرسة ابتدائية، المدرسة فى دكرنس، يوميا يذهب إلى دكرنس ويعود، ثم إلى المنصورة ليدرس الثانوية فى مدرسة طلخا، ثم إلى القاهرة ليدرس القانون، وفى ١٩٥٠ يتخرج محاميا ويفتتح مكتبا فى دكرنس وآخر فى دمياط ثم مكتبا فى المنصورة.

وإذا كان شباب هذه الأيام يتوزعون فى الدقهلية الصاخبة بالفعل السياسى بين الوفد والإخوان والشيوعيين فإن عبدالله غير هذه القاعدة وانضم إلى حزب صغير جدا اسمه حزب الفلاح الاشتراكى، سألته فيما بعد لماذا؟ قال «جذبتنى كلمة الاشتراكى»، وظل المحامى الشاب يزهو بفأس صغير من نحاس يعلقه فى عروة الجاكتة، ثم وإذا كان كل اليساريين يتجهون ليصبحوا أعضاء فى منظمة حدتو هو اختار ما اختاره صديقه طاهر عبدالحكيم ابن القرية المجاورة «القباب الكبرى» وانضم إلى تنظيم صغير جدا هو «نواة الحزب الشيوعى».

التقيته بعد أيام من ثورة يوليو ونحن ننسق مع الحزب الاشتراكى وتنظيم النواة «طاهر عبدالحكيم» لاتخاذ موقف موحد عند استقبال وفد مجلس قيادة ثورة يوليو، حضر طاهر

ومعه شاب طويل ورفيع بحيث تبدى بالنسبة لنا كنخلة، وكنا قد اتفقنا على شعار واحد «الإفراج عن المعتقلين والسجناء السياسيين» وما أن وقف جمال عبدالناصر حتى انطلقت هذه النخلة لتهتف بالشعار المتفق عليه والمثير للدهشة إن الآلاف التى احتشدت لتشاهد الحكام الجدد هتفت خلفه بحماس، وعبثا حاول عبدالناصر إسكات الزغبى الذى واصل الهتاف باصرار الضابط غير المدرب فغضب وانسحب هو والضباط، وبعدها بفترة استدعيت من القاهرة حيث أدرس لأمر مهم بالمنصورة، وهناك التقيت طاهر وعبدالله ورتبنا معا الهتافات والحشد لمؤتمر خطابى سيتحدث فيه فتحى رضوان وكان وزيرا وجاء ليبرر قرار حل الأحزاب، رغم أنه كان رئيسا للحزب الوطنى الذى كان عبدالله قد انضم إليه، وبدأ المؤتمر وقبل أن يفتح فتحى رضوان فمه انطلق عبدالله كعادته «خنت ذكرى فريد» و«خنت ذكرى مصطفى كامل»، والحشد الكبير الذى أعددناه يردد الهتاف وتدخل الأمن وطارت الكراسى وإنفض المؤتمر وفى لحظة وجدت يدا تسحبنى عبر فتحة فى السرادق لنفلت.. وكان عبدالله الزغبى، لكن الأمن تعرف على هذه النخلة التى أفسدت مؤتمرين جماهيريين، ويقبض عليه ليمضى فى الاعتقال من ١٩٥٤ وحتى ١٩٥٦.

الآن هو عضو فى حزب كبير فقد اتحدت حدتو مع عدد من المنظمات الصغيرة ليتكون الحزب الشيوعى الموحد ويصبح عبدالله عضوا فى قيادة منطقة بحرى ويصبح ملء السمع والبصر فى منطقة دكرنس متبنيا قضايا الفلاحين والإصلاح الزراعى ومشاكل التعاونيات الزراعية ثم يقبض عليه فى ١٩٥٩ ويبقى حتى ١٩٦٤ وذلك بعد فترة هروب أسهم فيها فى إعادة تنظيم الحزب فى القاهرة وتم تصعيده عضوا فى اللجنة المركزية حتى قبض عليه بعد قرابة العام من النضال الجاد والمكثف إذ قبض عليه فى ٢١ نوفمبر ١٩٥٩ ليقدم إلى محكمة أمن الدولة ويحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغال شاقة، وتداهمه الزائدة الدودية فينقل من سجن القناطر إلى قصر العينى ويفلت من قصر العينى هاربا بجلباب وحافى القدمين وبلا مليم معه قبض عليه وهو يحاول التسلل إلى القطار المتجه إلى المنصورة.

وبعد الإفراج عن الجميع تجمعنا فى المنصورة، داهمنا قرار حل الحزب، لكننا صممنا على العمل معا، افتتح عبدالله مكتبه فى المنصورة، حيث أصبح بالفعل محاميا للفلاحين المطالبين بأرض الإقطاعيين، والإقطاعى متحصن بنفوذ قوى فابنه مستشار لأحد كبار

المسئولين، لكن عبدالله واصل معاركه معهم وعندما أضربوا عن الطعام أضرب معهم، وأرسل لى مجموعة وثائق فنشرتها فى أول مقال لى فى جريدة أخبار اليوم بعنوان «وانتصر نصر» فى اليوم التالى زارنى فى مكتبى بالأخبار مندوب عن الإقطاعى ساومنى عارضا مبلغا كبيرا من المال فشتمته وإذا بعبدالله يبلغنى بعدها بأنهم عرضوا عليه مائتى ألف جنيه وهو مبلغ هائل فى هذا الزمان وهو أيضا رفض، وبالفعل انتصر الفلاحون وحصلوا على الأرض، وفى ١٩٦٧ ترك عبدالله المنصورة ليعمل محاميا فى التأمين الصحى بالإسكندرية لكن قيد الوظيفة أرهقه فاستقال فى ١٩٧٤ ليعود محاميا بالقاهرة، سألته لماذا القاهرة؟ تململ وتردد ثم قال سئمت من النضال الفئوى وأريد العمل لإعادة تأسيس الحزب الشيوعى، لم يكن يعلم أن أكثر من رفيق فى أكثر من مجموعة يفعلونها، ورويدا رويدا برزت مجموعة «السمر» أى ذوى البشرة السمراء التى ضمت زكى مراد ومبارك وسيف صادق وأنا، ومجموعة «الحمر» نسبة إلى الشعر الأحمر للدكتور مختار السيد ويقبض عليهم نتيجة خطأ أمنى، ثم يفرج عنه، وبعدها بقليل اتصل عبدالله تليفونيا قائلا: أريدك بعد غد فقلت: تعال الآن لكنه صمم على الموعد الذى أراد، وبعد غد أتى وبلا مقدمات قال «اليوم عيد ميلادى الخمسون» وأريد أن أبدأ رحلة عمل مفيد وانضم إلى التجمع، ومضى عبدالله الزغبى ليصبح بحق محاميا للفلاحين، لا يتقاضى منهم أجرا، ويدفع لهم الرسوم من جيبه الخاص ويشكل منهم قواعد للحزب.

ويمضى عبدالله الزغبى ليكون قياديا فى التجمع، وعندما أتاه رفيق يطلب إليه أن يرفع له دعوى تعويض عن أيام الاعتقال وهى دعاوى تحولت إلى كنز لكثير من المحامين التقدميين يرفعون الدعوى ويتقاضون نصيبا كبيرا من التعويض لكن عبد الله نظر إلى الرجل فى غضب وصاح كم يساوى يوم سجن من أجل الشعب والوطن؟ كم تساوى لحظة تعذيب على يدى الجلادين؟ كيف نبيع تضحياتنا؟ وكيف أتقاضى أنا نسبة من ذلك؟ وعندما عاتبته على حدته وكنت حاضرا للحديث قال إن استلام التعويض هو صك غفران للفاشست الذين عذبونا وسجنونا، ويواصل عبدالله الزغبى زهده فى الثراء وإصراره على النضال المجانى دفاعا عن الفقراء.. حتى يرحل فقيرا ولكن شريفا.. بل أكثر شرفا من كثيرين الذين تاجروا بآلام السجن فى ظل شعارات شديدة الثورية.

طاهر عبد الحكيم

«وفيما كنا نتمشى معا مع غروب شمس الواحات عبر المساحة الممتدة لحوش السجن، وفيما كنا نتذكر لقاءاتنا الأولى ونضالاتنا المشتركة فى الزمان القديم، والتباعد التنظيمى بيننا، توقف طاهر فجأة وقال «إحنا نعرف بعض قبل كل الناس دول» ثم قال فى أسى «إحنا عاملين زى اثنين مختلفين فى الديانة وبيحبوا بعض جدا لكن ميقدروش يتجوزوا».

وطاهر هو الابن الرابع من بين ستة أبناء لناظر مدرسة يمتلك قطعة صغيرة من الأرض، فالتصق بقريته «القباب الصغرى مركز دكرنس» لأن ايرادها مكون أساسى لما يحتاجه الرجل للإنفاق على الأولاد وتعليمهم، ويمضى طاهر من الكتاب إلى المنصورة الابتدائية ثم المنصورة الثانوية يسافر كل يوم إلى المنصورة ويعود، حتى كبرت البنات وأصرت الأم على تعليمهن فانتقلت الأسرة من القباب إلى المنصورة، الوالد وفدى متعصب.. يشيع بتعصبه مناخا صاخبا والمفردات الصاخبة هى الوفد – أحزاب الأقلية – السراى – الاحتلال، فجأة دخلت مفردات جديدة فالابن الأكبر شوقى ميكانيكى طيران وأصبح عضوا فى حدتو وهبطت فى المنزل مفردات جديدة – الرأسمالية – الاشتراكية – الصراع الطبقى، ويعتقل شوقى فى معتقل سيوة ثم يفرج عنه ليجد نفسه مفصولا.. ويلتفت طاهر إلى الاشتراكية وينضم وهو طالب فى كلية الآداب إلى تنظيم صغير جدا اسمه «نواة الحزب الشيوعى المصرى» وعندما يتخرج يعمل مدرسا فى مدرسة سمنود الثانوية، وذات يوم قال لى زميل من رفاق حدتو هوفتحى نوفل، إن عضوا فى النواة يريد مقابلتى والتقينا، واتفقنا على عمل مشترك، لكن عدة أيام لاحقة أتت ومعها ثورة يوليو، ووقع خلاف فى المواقف فحدتو شاركت فى صنع الثورة وبالطبع أيدتها، والنواة عارضتها، وكنت فى هذه الأثناء خارجا من المعتقل وأتممت امتحان الثانوية العامة، وبدأت مع الرفاق نشاطا جادا وأتانى فتحى نوفل مرة أخرى يطلب مقابلة طاهر الذى حضر ومعه عبد الله

الزغبى وكان اللقاء ساخنا، وارتفع صوتنا حتى جذب أنظار الجالسين فى قهوة ميرفا فتقدم منا أحدهم وهو مصور اسمه محمد العقاد وكان أحد قادة مصر الفتاة أتى ليطلب منى العمل معا للمطالبة بالإفراج عن أحمد حسين وهنا التقط طاهر ما يوحدنا وقال لنا لكم ١٤ معتقلا لازالوا لم يفرج عنهم وهناك أحمد حسين فلنرفع شعار «افرجوا عن المعتقلين السياسيين» وبعدها بيومين أتى عبدالناصر وعدد من قادة الثورة إلى المنصورة وفى منتزه الكنانى عقد مؤتمر حاشد، وارتفع هتافنا بالإفراج عن المعتقلين وغطى على محاولات جمال للخطابة، وكان الضباط ونظامهم بلا خبرة فغضب عبدالناصر وانطلق بسيارات ركبه إلى كفر شكر، وأحسسنا نحن بالانتصار، واستمر التنسيق الحميم ليمضى عام ونكون بعدها فى معسكر واحد ضد الديكتاتورية العسكرية، وكانت زيارة من فتحى رضوان - وكان وزيرا - ويعقد سلسلة اجتماعات ومؤتمرات يبرر فيها حل الأحزاب، وتجمعنا معا كل رفاق حدتو وطاهر وعبدالله الزغبى وبكر الشرقاوى ومختار السيد وعشرات غيرهم وما أن بدأ فتحى رضوان حديثه حتى صرخ عبد الله الزغبى وبأعلى صوت «خنت ذكرى فريد» ثم «خفت ذكرى مصطفى» وهاج السرادق تحت وهج الهتافات وتطايرت الكراسى وتهدم السرادق، وبدأ الأمن فى القبض على عدد من الحاضرين وتسلل طاهر وأنا وعبده الله الزغبى معه من فتحة فى بقايا السرادق، وتمضى سنوات وتبدأ جريدة المساء فى الصدور برئاسة خالد محيى الدين ويستدعيه مسئوله السابق فى تنظيم النواة محمود أمين العالم ليعمل معه فى «المساء».. لكن شهر العسل بين الشيوعيين والحكومة لا يلبث أن ينتهى وفى يناير ١٩٥٩ تفتح المعتقلات أبوابها لتضم أكثر من نصف محررى المساء، كنت قد سبقته إلى السجن بسنوات عديدة ثم التقينا فى السجن لسنوات عديدة لتتعزز فيها صداقة حميمة، وبعد الإفراج الجماعى (أبريل ١٩٦٤) وصدور قرارات حل التنظيمات الشيوعية بيد أصحابها، كنا نلتقى لتتوالى جلساتنا الحميمة فى صالة فندق اكروبول بشارع البحر بالمنصورة، حتى أصبحنا زبائن دائمين هو وسعد عبداللطيف وعبدالله الزغبى وأنا، نتناقش وفى كل يوم نكرر ذات الكلمات حتى أصبحت بلا معنى، لم يكن قرار الحل هو المأساة الوحيدة لكننا كنا نشعر بالغربة الشديدة عن مجتمع هذا الزمان، وبعد فترة أعلن طاهر عبدالحكيم تحليله للموقف فقال عبارات ظللنا نحن الأربعة نتذكرها كلما التقينا «نحن نعيش زمن الفشل العظيم، فأمل الحزب الشيوعى تهاوى،

والتجربة الناصرية تمتلك عوامل تآكلها ويتكشف الأمر كله عن حلم يختلط بالكابوس، أو كابوس يختلط بالحلم»، وبعد فترة تفرقنا متواعدين على ضرورة اللقاء دوريا أنا إلى القاهرة حيث عملت بدار أخبار اليوم، وهو إلى القاهرة أيضا حيث عمل بالجمهورية د. عبد الله الزغبى إلى الإسكندرية ثم لحق سعد الساعى بركب من أتوا إلى القاهرة، وفى إجازة أحد الأعياد رتب طاهر لقاء فى الاكروبول، وما أن جلسنا حتى تلبست طاهر حالة من الوقار ثم قال فى حزم «ثم ماذا؟» وبدأنا فى حوار مضمونه أن يفعل كل منا شيئا.. عبدالله الزغبى بدأ نشاطا محموما فى التأمين الصحى الوليد بالإسكندرية بعد أن أصبح محاميا هناك، وطاهر أعلن أنه سيفضح التعذيب الوحشى الناصرى وانغمس فى كتابه «الأقدام العارية» وأنا تعهدت أن أحاول كتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وبعدها تكون النكسة، ثم رحيل عبدالناصر، ثم كامب ديفيد فتكون جلساتنا فى الأكروبول مآتم يتم فيها رثاء الواقع المرير، ثم وفى أحد اللقاءات كنت أنا وهو وحدنا فى الأكروبول مشاغل الحياة شغلت الآخران عن موعدنا، قال طاهر عبارة غريبة «أنا لم أعد أحتمل، بل لم أعد أحتمل بلدا يحتملها» ثم قال أنا سأرحل إلى وهم جديد هو القضية الفلسطينية لعله يتحقق ولو بأقل قدر»، ورحل طاهر إلى بيروت وانتمى بكليته إلى القضية الفلسطينية وانتقلت لقاءات متباعدة إلى بيروت، ومن بيروت سافر إلى باريس ليبحث عن اللغز الذى حيره طويلا وحيرنا معه، فحصل هناك على الدكتوراة عبر رسالة عنوانها «الشخصية الوطنية المصرية» وفيها يسجل انتقادات حادة لمحاولات كتابة تاريخ مصر ومنهجية هذه الكتابة ويقول «إن كتابة التاريخ دون الانطلاق من مصدر فلسفى لن تؤدى بنا فى أحسن الأحوال إلا أى رصد وتسجيل وسرد لوقائع ستبدو فى هذه الحالة وكأنها تفتقد إلى رابط بينها أو أى منطق يحكمها» ويقول «إن التعسف الأيديولوجى ينشأ فقط حينما يلجأ الباحث إلى إخفاء بعض الحقائق التاريخية أو إبراز بعضها على حساب البعض الآخر ليؤكد فرضيته التى بدأ منها» وهكذا تتبدى رؤية علمية تماما لإعادة كتابة تاريخ مصر والمصريين.

ويعود طاهر بعد اغتراب طويل، ليؤسس دار نشر واعدة أسماها «فكر».

ويحاول أن يجعل من هذه الدار منارة لفكر جديد، تؤسسه الماركسية ولكن وفق أسس جديدة تتلاءم مع العالم الجديد، لكن طموحاته تتصادم مع قلب أرهقه الأسى والاغتراب والجهد الذى لا يمل.. ويرحل، لكن كتاباته تبقى.

الدكتور مختار السيد (١)

لم يكن فى الأمر أية غرابة فقد أصبحت شيوعيا بشكل تلقائى ففى قريتنا جزيرة القباب مركز دكرنس شبان يتحدثون دوما عن الماركسية وإلى جوارنا عبد الله الزغبى، و«ميت السودان» «عبدالفتاح موافى» وميت الطوج «الشيخ عبدالسلام الخشان» وعلى الكوبرى الصغير الذى يربطنا بالضفة الأخرى للنيل كنا نلتقى فى مجموعة كبيرة فتحى مجاهد - محمد طه - السيد يوسف - حمدينو السيد وغيرنا كثيرون نناقش قضايا الصراع الطبقى كأنها خبز يومى.
«د. مختار السيد - فى حواره معى»

الأب بدأ فقيرا جدا وأنجب عشرة أبناء، وكانت معركته أن ينقذ أولاده من الفقر وأن يمنحهم تعليما جيدا، وبرأسمال قليل جدا، وإصرار شديد جدا امتلك ٢٣ فدانا، لكن جيش الأبناء كان يلتهم كل شىء، والفتى مختار مميز بين الجميع بشعره الأحمر وبشرة بيضاء بها بعض من النمش، ومميز أيضا بذكاء حاد وقدرة على الحفظ، كل صباح يركب القطار الفرنساوى إلى المنصورة حيث المدرسة الابتدائية ليعود فى المساء - والقطار الفرنساوى وسيلة مواصلات غريبة تتدحرج ببطء بين القرى إلى المنصورة وكنا ونحن صغار - نسابقه فنسبقه، وأحيانا كثيرة ينفذ رصيده من الفحم فينزل السائق والركاب يقطعون بعض الشجيرات والأعشاب والأوراق لتشتعل وتمضى بالقطار إلى وجهته، أى أن المسافة التى تقطعها السيارة فى نصف ساعة إلى المنصورة قد يقطعها القطار فى ساعتين أو ثلاث، ومع ذلك يستمتع الفتى بالمذاكرة فى القطار المزدحم ويتفوق فى الدراسة، ويلتحق بالمنصورة الثانوية، ويحاول الأب أن يوفر للابن بعضا من الوقت فيأتى به إلى شارعنا فى المنصورة «شارع القهوجى» وفى غرفة بالدور الأرضى فى بيت قمر يستقر مختار مع عدد من الطلاب، أبى وكل سكان الشارع استشعروا سخطا على هؤلاء الأولاد الأغراب

والعزاب والذين قد يجرحون حرمة الجيران، وترصدوهم وأنا معهم، كنا نشاهد الفتى ذو الشعر الأحمر يمرق كالسهم عيناه فى الأرض، وغرفته لا يفتح شباكها إلا نادرا. وعم المرشدى البقال المواجه للنافذة التى لا تفتح كلف من أبى بأن يراقب الأغراب، لكن الفتى يمضى ويذهب ولا يلتفت، وحتى لا يلقى بالتحية لعم المرشدى، ونجح الفتى فى الامتحان، فلم يرفع عيناه عن الأرض، ولم يتطلع إلى بلكونة رغم إغراء الفتيات المتألقات فيها، ولم ينظر حتى لسهير بنت أصحاب البيت والتى كانت واحدة من جميلات الشارع، ويمضى مختار ليقفز نحو التوجيهية، غريبا كما أتى فى يومه الأول، لكن قلبه كان هناك، فى المدرسة حتى التقى بكر الشرقاوى وتكونت مجموعة تواصل النقاش. هو وبكر وعبد الله الزغبى وطاهر عبدالحكيم، أنهكوا أنفسهم نقاشا وبحثا وقراءة وانتهى الأمر بالاتفاق على أن الحل هو الانضمام إلى تنظيم شيوعى.

ولكن أين هذا التنظيم لم يستطيعوا العثور عليه، وفجأة تفجرت المنصورة وشارع القهوجى بأنباء القبض على عشرات الشيوعيين من المنصورة وأحاطت الدهشة بهم، ودهش مختار إذ عرف أن ابن الحاج محمد الذى هو أنا من بين المقبوض عليهم. عبثا حاول مختار وزملاؤه العثور على خيط ليصل بهم إلى التنظيم دون جدوى فكل شىء انكمش والأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين، لكنه وما أن يخطو إلى أيامه الأولى فى كلية الطب حتى يجد الشيوعيين هناك وينغمس معهم رغم كل المحاذير، أبوه مات ثم لحقت به أمه، ويقبض عليه فى إحدى المظاهرات ليفرج عنه سريعا، ويستدعى مختار كل الأخوة ليقيموا معه فى القاهرة ويعيشوا بإيراد شحيح لما تبقى من أفدنة ورثوها عن الأب، وذات يوم شعر أنه مراقب من الأمن نصحه زملاءه أن يختفى سافر إلى القرية ليدبر مالا فالهرب يحتاج إلى مال، جدته أعطته كل ما تملك مائة جنيه، والمائة جنيه مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان، لكنه ما أن عاد إلى القاهرة حتى وجد رفاقا أكثر مسئولية فى التنظيم وهم هاربون فعلا، ورفاقا من الطلاب فى كلية الطب يتهددهم الفصل لأنهم لم يسددوا الرسوم الجامعية، والفتى الذى وهب حياته للفكرة وللمعتقد وجد لزاما عليه أن يهب المال لرفاقه الأكثر احتياجا وتبخر المال وهكذا مارس مختار أول طقوس التضحية دون ضجيج، واعتاد على ذلك دوما، أن يعطى دون ضجيج. واعتمد مختار على علاقاته مع أبناء قريته المقيمين بالقاهرة واختفى حتى انتهت الأحكام العرفية وعاد مختار إلى بيته وبعكس ما

كان فى مدينة المنصورة، كان يطل من البلكونة ليتابع ما يجرى فى الشارع ولمحت عيناه فتاة فى المنزل المقابل.. تعلق بها عن بعد ثم اكتشف أن أحد معارفه من الجيران يتردد على بيتهم، أبوها كان ناظرا لمدرسة الصنائع وكان يهوى الفن، واحد من تلاميذه كان مجنونا بالفن ويتردد على منزله، هذا التلميذ هو زكريا الحجاوى، أفشى له سره ووعده الحجاوى خيرا، زار بيت حضرة الناظر واصطحب «ثريا» إلى البلكونة وكان مختار فى البلكونة المقابلة، وقال لها هذا الشاب ذو الشعر الأحمر يهيم بك غراما، وباحت له بأنها كذلك تهيم به غراما، وأتى مختار إلى بيت حضرة الناظر وخطب ثريا إبراهيم، وفى فترة الخطوبة أعطاها كتابا عن الماركسية، وبعدها سألها هل قرأت الكتاب ترددت ثم قالت بصراحة قرأته عدة مرات ولم أفهم شيئا. وبدأ مختار فى شرح المفردات والجمل وهى تحاول جهد طاقتها أن تفهم، ثم أعطاها رواية «الأم» لمكسيم جوركى وأتت إليه مسرعة فى اليوم التالى مباشرة كانت متهللة ومتحمسة وتكاد أن تصرخ، قرأت الرواية الضخمة كلها، سهرت طوال الليل حتى التهمتها وصاحت عندما رأته أنا عايزة أبقى زى أم «بافل» وزى «بافل» نفسه، وبافل هو بطل الرواية، المناضل الشيوعى الذى قبض عليه وسجن.

وأصبحت ثريا سندا ورفيقة وزميلة وزوجة وأما.. واعتمد عليها مختار فى كثير من المهام، كثيرون كانوا يأتون إلى البيت يغلقون باب الصالون، هى دون أن يطلب إليها مختار تتسمر فى البلكونة لتراقب الشارع، وبدأ مختار يعتمد عليها يعطيها لفافة لتحملها إلى فلان، أو تأتى بلفافة من فلان، ذات يوم أعطاها لفافة وقال لها هذه لفافة مهمة جدا، اذهبى إلى محل أسترا فى التحرير، سيحضر رفيق خارج لتوه من السجن ومن الضرورى ألا يتصل به شخص معروف، كيف أعرفه؟ هو أسمر وله شنب، وجلست كل شاب أسمر تبتسم له ويبتسم لها، فتاة جميلة وشيك تبتسم لكل من يدخل، لكن أحدا لا يقترب منها، فجأة أتى شاب غير مبتسم أتى إليها مباشرة وفى حزم تسلم اللفافة متجهما ومضى متجهما، عرفت فيما بعد أنه فتحى خليل الصحفى فى روزاليوسف.

يومها عرف مختار أنها تستطيع أن تلعب دورا مهما كمسئولة اتصال، وبدأت تتقن فنون العمل السرى وفن الإفلات من المراقبة والتخفى وإخفاء الأوراق.. وأصبحت ذراعه اليمنى.

ونمضى مع مختار فى رحلته الجميلة.

د. مختار السيد (٢)

«حاول البعض أن يتفلسف، فأسمى مجموعتنا مجموعة «الحمر» للحفاظ على أمننا، وكانوا كلما سألهم أحد لماذا؟ يجيبون لأن زعيمهم شعره أحمر. ولم يكن الأمر صعبا أن يعرف الجميع بما فيهم الأمن من أننى صاحب الشعر الأحمر».
(د. مختار السيد- فى حواره معى)

وبعد هزيمة ١٩٦٧ تداعت قوى شيوعية عديدة إلى السعى نحو إعادة تأسيس الحزب، وتكونت مجموعات عدة منها مجموعة «السمر» لأن مؤسسيها كانوا فى الأغلب نوبيين ومعهم رفعت السعيد ومجموعة «الجرس» لأنها كانت تصدر نشرة اسمتها الجرس (محمود توفيق- سعد كامل) ومجموعة أخرى بلا اسم (نبيل الهلالى- فوزى حبشى- ميشيل كامل) ومجموعة رابعة وهى «مجموعة الحمر» (مختار السيد - عبد الله الزغبى- منصور زكى- نبيل صبحى) وسريعا قبض على عدد من المجموعة الثالثة واودعوا فى سجن القلعة فأسميت مجموعة القلعة. ثم قبض على مجموعة الحمر وأيضا إلى سجن القلعة.

وإذ نعود إلى ذى الشعر الأحمر فى بداية خروجه من السجن(ابريل ١٩٦٤) وبعد إعلان حل الحزب فقد مختار أية قدرة على التجاوب من متطلبات الحياة العادية، فتلقف عملا كطبيب مقيم على إحدى البواخر الملحقة بحفارات البترول فى البحر الأحمر. الإقامة مترفه إلى درجة عالية والمرتب كبير جدا والعمل ١٥ يوما للاقامة على المركب فى رفاهية لم يعتد عليها و١٥ يوما اجازة، لكنه فجأة شعر بنداء خفى للعودة إلى القاهرة والبدء فى إعادة تأسيس الحزب. الجميع يسألونه لماذا؟ فيجيب ثريا ومير(ابنته) وحشونى، أو يقول : سئمت الحياة الراقية والأكل الفاخر، لكنه عاد فى الواقع ليبنى للفكرة التى آمن بها حزبا يدافع عنها. ويعمل طبيبا فى مستشفى الموظفين فى امبابة براتب شهرى ١٧ جنيها وبدأ فى الوقت فى تأسيس مجموعة «الحمر»، وواصل فى نفس الوقت دراسته وحصل على

دبلوم جراحة وأصبح واحداً من أشهر الجراحين. وما أن اشتهر اسمه تهافتت عليه المستشفيات الاستثمارية وعرضت عليه راتبا مغريا. ورفض، فقد كرس نفسه لخدمة الفقراء الذين كثيرا ما يجرى لهم عمليات جراحية مجانا وأحيانا يسدد نيابة عنهم أجر طبيب البنج. وافتتح مختار مستشفى خاصا صغيرا كان يعمل فيه منذ السادسة صباحا ويعالج فيه فقراء الحى، ومن هناك إلى مستشفى امبابة العام. ليهب كثيرا من وقته للفقراء من المرضى. أما ما تبقى من وقت فهو لبناء الحزب. ويعرف سكان امبابة الطبيب الصديق للفقراء. كان يذهب لمستشفاه فى السادسة صباحا ليجد طابورا من المرضى فى انتظاره ثم يذهب إلى مستشفى امبابة العام ليجد المرضى ينتظرون حضوره ويرفضون الدخول إلى أى طبيب آخر ، أما وقته الآخر فيستهلك العمل الحزبى كل ما بقى لديه من جهد. وتأتى انتخابات مجلس الشعب، والارهابيون يحكمون قبضتهم على امبابة ويقيمون ما اسمى «امارة امبابة» وشعر الارهابيون بخطر هذا الطبيب فركزوا هجومهم عليه وعلى حزب التجمع الذى رشحه وبادلهم مختار هجوما بهجوم، وانتهز الأمن الفرصة ومنح الارهابيين الفرصة كاملة لمواجهته هو رفع شعار «الحرية للوطن- الديمقراطية للشعب الخبز للفقراء، فلما ركزوا هجومهم عليه وعلى حزبه تمسك بشعار «الدين لله والوطن للجميع» ووقع مختار بين فكى كسارة البندق، الجماعة الارهابية ترفع فى وجهه شعرات متأسلمة وترفع شعارات تكفيره، والحكومة ترفع فى وجهه سيف التزوير الفاضح. وسلب منه هذا الثنائى الشرس مقعدا كان يستحقه تماما، ويمضى الطبيب المناضل فى عيادته ومستشفاه فى امبابة واهبا تضحياته لمرضاه الفقراء، والنصف الآخر لبناء قاعدة تنضيمية واسعة لحزب التجمع. وفى حزب التجمع يصعد ليصبح عضوا فى اللجنة المركزية. وتمضى أيام ويكون مختار فى قريته جزيرة القباب ليتلقى مكالمة من حفيدة فاضل.. ويحدد معه موعدا، وأسرع ليلحق بالموعد لكن سيارة طائشة تقتحم عليه سيارة الفولكس.. ونفقد الطبيب المناضل. طبيب الفقراء والمناضل من أجل الفقراء..رحل ليترك لنا ولفقراء امبابة ذكرى عطرة. لم تزل باقية حتى الآن، وحتى الآن يتحدث فقراء امبابة عن حزب التجمع بأنه حزب الدكتور مختار أبو شعر أحمر.

سعد الساعى

البسمة السكرى تشع بها الملامح والعيون
وسنابل الآمال ترسمها القصائد والفنون
والأغنيات تهز جدران المنافى والسجون
ورفاقنا فى نشوة النصرالمظفر يضحكون
من أشعار سعد الساعى

عندما كنا صغاراً كنا نقيم مباريات الكرة الشراب فى ميدان سيدى البيا ع. تعلو صيحاتنا ونجرى ونلعب ثم فجأة نتوقف جميعا صامتين فالرجل المهيب عم عبداللطيف الساعى يمر عبر الميدان مرتديا جلبابه الأبيض والطاقية والمنشة فى يده قادما من بيته إلى الجامع ليصلى. وكنا نعاكس كل الفتيات ليس كما يعاكس الشباب الآن، وانما فقط بالابتسام والنظرات ولا شىء آخر.. إلا «روحية» الفتاة الأجمل فى الحى كله بعيونها الخضراء وشعرها الذهبى. فكيف نجرؤ على مجرد النظر لابنة عم عبداللطيف؟

عم عبداللطيف مدرس لغة عربية أتى من قريته «بطره» لكنه كان متعصبا للوفد فخاض معارك الوفد ضد حكومات الأقلية، ولما أتى الوفد للحكم نسيه الوفديون، وكرامته لم تسمح له بأن يستجديهم حقه فى العودة واكتفى بالعمل فى المدرسة الملكية الخاصة بأجر زهيد وأقام فى شارع ينحنى من ميدان البياع فى بيت عم عباس صاحب محل عصير القصب ووالد عبده الذى أصبح أحد أهم الكوادر الحزبية فى هندسة الإسكندرية. كان عم عبداللطيف لا يزال وفديا متعصبا حتى بعد نسيانه، ومنه سمعت وأنا صغير العبارة التى رسخت فى ذهنى «الافيال تتصارع والعشب يتكسر». تعرفت على الأب لكننى لم أتعرف على الابن سعد فقد كان مدرسا فى مدرسة الارستقراطية السكندرية «سان مارك».

وأخيراً تعرفت عليه ففى الإجازة الصيفية ذهب المسئول وأبلغونى بموعد مع مسئول جديد. الموعد الساعة السابعة صباحا وعشر دقائق فوق مشاية كوبرى طلخا دهشت من هذا الموعد لكننى ذهبت وفى الموعد بالضبط اندفعت قاطرة بشرية فى أول المشاية كتلة من العضلات ترتدى فانلة وشورت تندفع بسرعة مذهلة وعندما اقترب توقف ليمسح العرق الذى يغرقه وقال مبتسما «أهلا يارفيق» لم يلتقط أنفاسه فهى هادئة تماما وكأنه لم يكن يجرى. قال لى اسمى الحركى فهد، وطبعا سترانى كل يوم فى الشارع فلا داعى لأن أخفى اسمى. انه «سعد» ابن عمنا جميعا عبداللطيف الساعى سألته عن سر هذا الموعد فقال فى بساطة لا يوجد فى بيتنا أى ساعة، الساعات رفاهية لا تأتى للفقراء ولهذا أنزل مباشرة بعد دقات الساعة السابعة فى الراديو وآتى إلى هذا المكان جريا. تمشينا فى طلخا لنجلس فى ظل شجرة جميز قدمت له تقريرا عن نشاطنا وعملنا فى مجالات عدة ومنها جمع توقيعات على نداء السلام. هو تحدث طويلا استخدم مفردات رائعة واشعارا له وأخرى لأبيه انها تماما ذات اللغة التى كنا نسمعها من عم عبداللطيف ونحن ملتفون حوله واقفين فى انبهار وهو جالس على كرسى أمام محل عم عبدالمنعم المكوجى.

وفى حواره معى (الإسكندرية عام ١٩٦٥) قال «كان الفقر يطحننا وفرصة التعليم الجامعى تبدو مستحيلة ولهذا تعلق حلمى بالملاكمة، لعبت الملاكمة فى البداية على سبيل المشاكسة للأصدقاء ألاكمهم وأتغلب عليهم ثم أصبحت ضيفا دائما فى «نادى البحراوى» أتدرب يومياً وأهزم كل من ينافسنى، ثم صعدت بطلاً للدقهلية ثم بطلا لمصر فى وزن خفيف المتوسط وتطلعت للحلم الأكبر أن أصبح بطلا للعالم لكننى تعثرت فلا مدرب حقيقيا ولا قدرة على الاحتراف ولا وقت فأنا طالب ثم مدرس» دخل الجامعة بمعجزة فقد كان الأول فى مسابقة اللغة العربية فدخل الجامعة بمجانية كاملة وتفوق فى الجامعة وتخرج (١٩٤٩) بتقدير جيد جدا بمرتبة الشرف ورشح لبعثة فى الخارج ويتألق حلم الدكتوراه والاستاذ فى الجامعة لكنه اطفأ هذا الحلم فالنضال الحزبى يناديه والتنظيم فى محنة ويحتاج كل جهد. وطوال فترة الجامعة كان بطلاً للملاكمة والأكثر تفوقا فى الدراسة، وشاعر الكلية ومنغمسا بحماس شديد فى النضال السرى وكانت قوته الهرقلية تسعفه.

وذات يوم جمعنا ونحن فى المنصورة وبالمصادفة كانت لجنة القسم تضم ثلاثة من الملاكمين الشبان الذين تدربوا على يديه عبده عباس وعادل شراكى وعبدالفتاح موافى ثم

أنا وعدد آخر. كان سعد يحمسنا أن ننطلق فى عمليات توزيع المنشورات والكتابة على الجدران وجمع التوقيعات على نداء السلام فإذا حاول احد المخبرين القبض علينا نعالجه فورا بضربة فى «الجو» ويشير بقبضته إلى فكه، حاول الملاكمون ونجحوا ضربة فى الجو ويترنح المخبر ثم الجرى. وحاولت..أمسك بى عم مصطفى المخبر فجمعت قبضتى الهزيلة وضربته فى الجو كادت أصابعى أن تتكسر وكاد عنقى أن يلتوى فقد أمسك بى المخبر.. وإلى القسم وإلى أبى وإلى عقاب منزلى. عمل سعد فى مدرسة سان مارك لكنه اصطدم بكبير مفتشى اللغة العربية الذى اكتشف أن سعد يلقن الطلاب السياسة، وفصل وفى السجن كانت قوته إنقاذا للضعفاء منا فلويس عوض وفؤاد مرسى وعم محمود السكران لا يستطيعون تكسير البازلت هو ينط من مكان لآخر ليكسر لهذا جزءا من الطريحة ثم للآخر.. وهكذا ثم يعود ليكمل طريحته. وكان سعد محاضرا مبدعا وفى السجن نجح فى إدارة أكثر من دورة تثقيفية فاستحق اللقب الذى اطلقه عليه شاعرنا فؤاد حداد «سعد الساعى الكادر الواعى» وفى سجن الواحات ضبط الأمن رسالة من سعد لأبيه يقول فيها «يا أبى أن أياما مشرقة تنتظرنا رغم أحلك أيام الشقاء والقسوة التى نعيشها الآن» وتكون تكديره لعدة أيام.. وفى سجن المحاريق كتب سعد قصيدة تقترب من ألف بيت لم أزل أذكر منها.

نحن الوريث لمجد أحمس يوم رد الغاصبين
حمل اللواء وخلفه سارت جموع الزارعين

ويفرج عنا جميعا فى ١٩٦٤ فيعود سعد إلى الإسكندرية ليواصل نضاله. ويكون قرار حل الحزب صاعقة على الجميع وخاصة عم عبداللطيف ذهبت إليه فنظر إلى غاضبا والدموع تنهمر بلا حساب، أما سعد فقد وجدته تائها كطفل فقد أباه وأمه، أحلامه تخلت عنه وإنزوى فاقدا لكل مذاق، وجسده الهرقلى انزوى هو أيضا، لاحقه المرض ومرض آخر، وثالث ثم تكون الضربة القاضية بوفاة ابنه الوحيد شهدى وبموت الابن وحل الحزب لم يعد عند سعد أى مبرر للحياة ورحل. ترجل الفارس الشجاع الذى حلم طويلا بأن يتربع على عرش الملاكمة فى العالم.

محمود مراد

«زوجتى الحبيبة. بعد مزيد السلام وكثرة الأشواق، السلام عليك من ميدان الجهاد والتضحية، كان جميلا منك أن تتركى لى فى جيب البيجاما هذه الصورة العائلية وزجاجة الريحة.. اننى أتمرن بحماس شديدة على مقاتلة العدو، فأنا اتخيل أثناء التمرين أن العدو الغادر قادم للقضاء عليكم وأراكم تحتمون بى وأنا جاهز ومسلح، قبلاتى للأولاد وعرفيهم أن هذه البوسة من بابا الذى ذهب ليحارب الاستعمار».

(من رسالة ارسلها محمود مراد إلى زوجته خلال وجوده فى خط النار اثناء العدوان الثلاثى مؤرخة فى ١٧-١١-١٩٥٦).

كثيرون يجيدون الحديث عن نضالات وامجاد حققوها أو زعموا انهم حققوها، وكثيرون يعلو صوتهم «النضالى والثورى» فوق أصوات الآخرين، وآخرون يجيدون التنظير صحيحا كان أم خاطئا.. لكن محمود مراد كان غير ذلك تماما. خاض معارك نضالية فعلية وحمل السلاح عديدا من المرات وسجن مرات بلا حصر، وأقام نقاط ارتكازا للفلاحين فى وجه بحرى بحيث يمكن القول أنه واحد من آباء النضال الثورى للفلاحين المصريين، لكنه أبدا لم يتحدث عن نفسه، وحتى لم يرفع صوته بشعارات أو ادعاءات ولا حتى بوقائع صحيحة. عاش فى هدوء وناضل فى هدوء، حمل السلاح فى هدوء وسجن بهدوء، ودون أن تسمع منه أى فعل منسوب إلى نفسه حتى ولو كان صحيحا، وفى السجن سمعته وهو يتحدث عن خبرة العمل المسلح فى القنال.. تحدث طويلا عن خبرات غاية فى الثراء وعن كيفية الاحتماء بالجماهير وعن تعبئة قرى بأكملها لتكون رديفا للمقاتلين. وعن عمليات مسلحة غاية فى الشجاعة لكنه أبداً لم يذكر اسمه، وكأنه كان يتحدث من كتاب كتبه مؤلف مجهول.

.. الفتى نشأ فى أسرة فقيرة أو بالدقة شديدة الفقر فى مدينة طنطا، لكنه كان يغلى بالعداء للاستعمار وللقصر الملكى. لقمة الخبز شحيحة لكنه، بوعى فطرى ادرك أن الجوع

مصدره الاستعمار والملك الطاغية وفى إحدى المظاهرات فى عام ١٩٤٨ ينفلت بعيدا عن المألوف ويهتف «يسقط الملك» ويقبض عليه بتهمة «العيب فى الذات الملكية» وبقى فى السجن لفترة وتظل القضية معلقة فوق رأسه حتى قيام ثورة يوليو وقبلها كان الغاء معاهدة ١٩٣٦ والكفاح المسلح فى القنال، وتلقى دعوة من أحد كوادر حدتو (سيف صادق) كى يشارك فى كتائب الانصار، وبعد حريق القاهرة تبدأ حملات القبض على الفدائيين لكنه يتسرب بهدوء من بين ايديهم إلى حصنه الحصين طنطا ، وهناك يواصل عملا سريا نشيطا بين الفلاحين، ويتوالى صدور نشرة «صوت الفلاحين» صوت فلاحى بحرى (حدتو) وكان مراد خلف اصدارها طباعة وتوزيعا وتحريرا، ورويدا رويدا بدأ تحركات فلاحية وانشطة تعاونية وإنشاء أول دار نشر علنية للفلاحين «دار الفجر» كان الزمان صعبا بل شديد الصعوبة فقبضة ضباط يوليو كانت تعصف بمعارضيها وخاصة منظمة حدتو، لكن مراد ورفاق بحرى سيف صادق عريان نصيف وسعيد النحاس كانوا كتيبة شديدة النشاط وواسعة الانتشار. ويمكن القول أن هذه الكتيبة ومنها محمود مراد هى التى وضعت أسس البساطة الثورية، ولقنت الجميع كيفية اصدار مطبوعات ومحاضرات ونشرات بلغة فلاحية بسيطة جدا لكنها متقنة جدا وماركسية جدا.

وكالعادة وعندما يأتى عدوان ١٩٥٦ عرف محمود مراد طريقه إلى عشقه القديم.. الكفاح المسلح ضد الاستعمار، وهناك فى الإسماعيلية انضم إلى رفاقه فى الصفوف الأمامية استعداد المجابهة الغزاة. لكن مراد كان لا يكف عن التجوال فى القرى المحيطة، يزور البيوت بيتا بيتا شارحا وببساطة رائعة لماذا أتى الغزاه؟ ولماذا يتعين مواجهتهم؟ ويمزج ذلك كله برحيق جميل من الفكر الاشتراكى، وأصبح عم محمود واحدا من اساطير النضال الفلاحى المسلح فى القرى الأمامية. وتنتهى المعركة باندحار الغزاة وإذ تأتيه طفلة جديدة يسميها «انتصار» ويستقر محمود مرة أخرى فى حصنه بقرى الغربية، وتتوالى اصدارات «دار الفجر» متحدثة إلى الفلاحين بحديث ثورى بسيط يتسلل إلى عقول الجميع. لكن عبد الناصر يعود لينقلب على حلفائه فى المعركة ضد الغزاة، وفى أول يناير ١٩٥٩ يبدأ حملة ضارية ضد قيادات حدتو.. لكن محمود مراد وغيره من الكوادر الوسطى واصلوا نضالا سريا مريرا فى محاولة لمواجهة هذه الحملة، ويقبض عليه فى مارس ومن سجن القلعة يكتب إلى فتحية (زوجته) قائلا فى رسالة قام بتهريبها من السجن «زوجتى

الحبيبة بعد مزيد السلام اكتب لكم بعد هذا الفراق اللعين الذى لم يكن أحد ينتظره أو يتوقعه خاصة فى هذه الفترة التاريخية من حياة وطننا.. وفى نظرى أن هذا الاعتقال لا مبرر له» لكن الاحزان تتراكم فيأتيه نبأ اغتيال رفيق النضال محمد عثمان على يدى زبانية الأمن، ومن القلعة إلى الواحات، ليشهد واحدة من اسود مراحل التعذيب الوحشى. ومن الواحات إلى سجن مصر حيث قدم إلى المحاكمة ضمن ٤٧ متهما فى قضية «الحزب الشيوعى المصرى- حدتو». وإلى الإسكندرية ليواجه المجلس العسكرى العالى برئاسة الفريق هلال عبد الله هلال قائد سلاح المدفعية» وتنتهى المحاكمة التى دافع فيها عن نفسه ببساطة أغاظت الفريق، ويرحل بعد المحاكمة إلى سجن ابو زعبل حيث حفل الاستقبال الدموى الذى استشهد فيه شهدى عطية.. ويعود إلى الواحات ليبقى هناك حتى ابريل١٩٦٤. وعندما تلوح بوادر تأسيس منبر اليسار يكون من أوائل القادمين وبعد انتفاضة ١٦ و١٧ يناير ثم الموقف التجمعى الصلب الرافض لزيارة السادات للقدس، ثم كامب ديفيد تبدأ صدامات متكررة أو بالدقة مستمرة مع السادات .. ويكون مراد كما عهدناه فى المقدمة فيقبض عليه، ثم يقبض عليه ثم تتوالى مرات القبض والسجن والافراج ثم القبض والسجن والإفراج ست مرات فى زمن السادات وحده وقبلها كثير منذ العهد الملكى وعهد عبد الناصر ثم السادات.

ويكون مراد كعادته هادئا. يخفى تاريخ نضاله الطويل، ينطق بما فعله الآخرون أما عن نفسه فهو دوما صامت ومبتسم فهى قناعة عميقة توحى إليه أنه فعل ما يجب، ومهما فعل فهو لم يقدم ما يعتقد انه كافيا.

إنه نموذج المناضل.. البسيط.. العامل.. الفقير الذى لا يحب الزهو ولا الادعاء ولا الجمل الثورية. إنه ببساطة نموذج للثورى الشعبى البسيط.

مصطفى طيبة

وجاء يوم كنت فيه أنا المتهم سجينا والمحامى الذى دافع عنى سجينا والقاضى الذى حاكمنى سجينا هو أيضا.
مصطفى طيبة

الأب يجاهد بحثا عن خبز لسبعة أبناء وزوجتين. والفقر حاجز أمام طموح التعليم، وممكنات الأب تقف به عند حدود الشهادة الابتدائية، أما ما بعد هذا فهو رفاهية لا يقدر عليها، لكن الفتى مصطفى يلح.. ويتنازل الأب فيدخله مدرسة الصنائع. وبعد الدبلوم يعين مصطفى فى وظيفة إدارية فى وزارة الحربية. لكنه يتطلع إلى المزيد فيلتحق فى دراسة مسائية بمدرسة الفنون التطبيقية.

وكعادة شباب هذه الأيام كان قلقا وراغبا فى خدمة الوطن عبر أى سبيل فتنقل من الوفد إلى مصر الفتاة إلى الإخوان. وبالمصادفة وقعت فى يده عدة كتب لسلامة موسى وأعداد من «المجلة الجديدة» وإلتهب ضوء مبهر فى أعماق «مصطفى أفندى» واصل القراءة وواصل التجوال على الأندية الثقافية التى تكاثرت فى هذه الأيام.. تنقل بين ندوات «جماعة نشر الثقافة الحديثة» حيث استمع إلى محاضرات لمصطفى كامل منيب وسعيد خيال وابراهيم سعد الدين. و«دار الابحاث العلمية» حيث أنصت إلى شهدى عطية وعبد المعبود الجبيلى وعبد الرحمن الناصر ولطيفة الزيات و«نادى أم درمان» حيث يرتل محمد خليل قاسم وزكى مراد أشعارهما وحيث يخطب عبده دهب منددا بالشعار السائد «نيل واحد، شعب واحد، ملك واحد» ويرفع عاليا الشعار البديل «الكفاح المشترك ضد العدو المشترك.. وتلتقطه من هناك عيون يقظة تقوده إلى «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، ويتلقى توجيها من مسئوله بالعمل النشط وسط خريجى الفنون التطبيقية فهناك حركة نشطة تطالب بأن يمنحوا لقب مساعد مهندس ثم لقب مهندس بعد فترة، وبزيادة الرواتب وعبر نشاط جارف قام به هو ومجموعة

حزبية منها يوسف بدير محمد على وبمسئولية سيد سليمان رفاعى، أمكن تأسيس «رابطة خريجى الفنون التطبيقية»، ويقود مصطفى إضرابا ناجحا وإعتصامات عديدة فى مقر الرابطة، وتخضع الحكومة ويصبح مساعد مهندس. لكن هذا النجاح لا يمر بلا اهتمام من القيادة. فقد تم تصعيده إلى لجنة القاهرة ثم دعاه هنرى كورييل ليحضر اجتماعا للجنة المركزية يقدم فيه تقريرا عن خبرات تأسيس الرابطة وتنظيم الإضراب والاعتصام، كان قلبه يدق فهو فى حضرة القادة وكان القادة ينصتون فى انبهار وبعدها أصبح مسئولا عن لجنة المعز (القاهرة) وانغمس حتى أذنيه فى النضال الثورى. وفى ١٩٤٨ كان قد أصبح كادراً أساسياً فى منظمة حدتو. ثم بدأت المشكلات. حرب فلسطين- حملة الاعتقالات - الانقسامات ، وفى هذه الأثناء تم تصعيده إلى اللجنة المركزية، وفى هذا المناخ الملئ بالانقسامات والتربص بكل قول، والانفعال المرتدى ثيابا ثورية أعد الرفيق شكرى (مصطفى طيبة) تقريراً نادى فيه بضررة أن ينفتح الحزب ليس فقط على العمال والفلاحين والطلاب والفقراء وإنما أن يفتح ذراعيه للمهنيين وكل القوى الوطنية والديمقراطية فى المجتمع. وأطلق على هذا التقرير اسما هو «خط القوات الوطنية والديمقراطية» ونستمع إلى الرفيق شكرى «هذا التقرير نسخ منه عدد محدود ووزع بالكاد على المتبقين من عضوية اللجنة المركزية. لكن المناخ كان معصوب العينين والعقل كان متجها نحو الخصومة، وجرى تهييج للكادر ضد تقريرى. وفجأة أصبحت عدواً لغالبية من كادر تحركه نزعات برجوازية صغيرة تحركها شعارات متطرفة ومتشددة، والمثير للدهشة أن الذين أدانوا التقرير لم يقرأوه، لكهنم فقط سمعوا عنه من خصوم للفكرة. وفى مواجهة التقرير نشأت الدعوة لنقاء الحزب البروليتارى من أى وجود غير عمالى ورفع شعار.. ١٠٠٪ عمال (منظمة م.ش.م) والبعض تواضع فرفع شعار ٧٥٪ عمال (منظمة العمالية الثورية). ومن المعتقل يتلقى رسالة من هنرى كورييل تطلب إليه أن يترك وظيفته ويحترف فى العمل الحزبى. لكن ما يراه من صخب غير عاقل وخلافات غير مبررة وانقسامات لا تعرف العقل ولا التروى كل ذلك جعله يرفض أن يضع مصيره فى آيدى هؤلاء . ويغضب رفاقه فى المعتقل ويقررون تنزيله من عضوية اللجنة المركزية، ويجد الرفيق شكرى نفسه بين فكى كسارة البندق فالذين رفضوا تقريره اتهموه بالخيانة والذين قبلوه إتهموه بالضعف. وانعزل شكرى مع مجموعة صغيرة تمتلك كنزا حقيقيا هو «مطبعة» وسميت هذه المجموعة «مجموعة المطبعة».

ويعود إلى مصر، من فرنسا، فى هذه الأثناء شاب حصل على الدكتوراه وأصبح مدرسا بالجامعة هو د. فؤاد مرسى. قابله شكرى وطلب د. فؤاد أن ينضم إلى حدتو لكن شكرى قال له : أنا شخصيا تركت حدتو. وفترة من اللقاءات الفردية مع مصطفى ثم مع سعد زهران وجلس الدكتور مع مجموعة المطبعة: مصطفى طيبة – سعد زهران– داود عزيز– لمعى يوسف– طوسون كيرلس. وانبهر الجميع بحماس وقدرات الوافد الجديد. الذى كان قد أعد تقريرين مهمين إنبهر بهما كل من قرأهما «الصراع الطبقى فى مصر» و«ثورتنا المقبلة». ويمضى شكرى قائلا «تصورت وكذلك الدكتور فؤاد أن كل ماركسى سيقرأ هذين التقريرين سوف ينضم إلينا حتما. وكان ذلك صحيحا إلى حد ما. وفى أول يناير ١٩٥٠ أعلنا قيام الحزب الشيوعى المصرى، وأصبح فؤاد مرسى سكرتيرا عاما وأنا مسئولا للتنظيم وداود عزيز مسئولا للدعاية، وسعد زهران معنا فى القيادة الرباعية، ونجحنا فى إصدار مطبوعات أنيقة جداً ومنتظمه تماما فمجلة راية الشعب كانت تصدر كل خميس وبانتظام مثير للدهشة»، ويقبض على الرفيق شكرى ومعه مصطفى كمال خليل ومعهما المطبعة فى ١٨ يوليو ١٩٥٢، وبعدها بأيام تأتى ثورة يوليو. ومحاكمة عسكرية أمام مجلس عسكرى عالى يرأسه قائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن، وترافع عنه المحامى الوفدى الشهير محمود سليمان غنام الذى هاجم الحكم العسكرى هجوما عنيفا وبعد شهرين اوقفت المحاكمة فقد قبض على القاضى بتهمة تدبير انقلاب عسكرى جديد وقبض على المحامى بتهمة العداء للثورة، وأتى قاضى جديد هو اللواء فؤاد الدجوى ليحكم عليه بالسجن عشرة سنوات أشغال شاقة.. ويبقى مصطفى طيبة مسجونا حتى بعد أن ينهى فترة العقوبة ولا يفرج عنه إلا فى ابريل ١٩٦٤ مع باقى المسجونين، ويعمل مصطفى طيبة بقرار من خالد محيى الدين صحفيا فى دار أخبار اليوم عندما كان رئيسا لمجلس إدارتها: ويكتب الرفيق شكرى ما يشبه المذكرات فى جزئين «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته»، وفى الحوار الممتد معه لساعات أيام (مايو– يونيو ١٩٦٨) حكى آلاما كثيرة ورجانى إلا أدونها، آلام من بينها: ظلم الرفاق له– أبوه الذى قضى أيامه الأخيرة فى ملجأ العجزة حيث أفقر الفقراء، أخته التى ظلت مصابة بانهيار عصبى منذ القبض عليه وحتى نهاية الحياة. زوجته الايطالية التى ما أن علمت بالقبض عليه حتى أجهضت ابنه وطلقته. وتبدت دموعه وهو يقول لو كان ابنى حيا لكان قد أصبح شابا». وقال «كنت متماسكا رافعا

هامتى أمام خصومى الطبقيين لأكون قدوة لزملائى لكننى كنت أتمزق لإحساسى أننى عذبت أبى وأختى».

وتمضى الأيام ليرحل الرفيق شكرى حاملا أحزانه فى صدره الذى كان باتساع حلم الوطن بأسره.

سعد زهران (١)

ظللت تائها وسط أحداث جسام كانت تهز العالم والوطن مثل الحرب العالمية والنازية وصمود الاتحاد السوفيتي ودوره في انكسار هتلر.. حتى حضرت محاضرة في دار الأبحاث العلمية، وشعرت كأن حزمة ضوء مبهر قد أنارت أمامي الطريق.
(سعد زهران.. في حواره معي)

كثيرا ما يختلف الشيوعيون مع بعضهم البعض، خصوصا في ظل معارك مبهمة البدايات، غامضة النهايات، وكثيرا ما يختلط الصراع ضد العدو الطبقي بالصراع ضد «العدو» في التنظيمات الشيوعية الأخرى، وقد يقف البعض ضد إتجاه الريح لبعض الوقت، لكن سعد زهران حالة فريدة، حادة جدا وتقف بصاحبها دوما ضد إتجاه الريح، وحتى ضد ما يعتقد الإجماع أنه مسلمات لا يجوز المساس بها.

كان دوما النقيض للجميع، الجميع يتناقضون مع بعضهم البعض أما هو فهو النقيض المتناقض مع الجميع، تأمل معي عزيزي القارئ بعضا من مفارقات سعد زهران، يقول الجميع إن معركة كوبري عباس كانت مذبحة بكل المعايير، ويروي الكثيرون عن مشاهد الجثث التي تراكمت في مشرحة كلية الطب وفي مشرحة زينهم إلا هو، فسعد يؤكد كان هناك جرحى رأيتهم بنفسي في قصر العيني لكن لم يمت أحد. ويسألك متحديا هل لديك اسم واحد لواحد ممن استشهدوا؟، ويتحدث الكثيرون بزهو عن حركة الفدائيين في منطقة القنال عام ١٩٥١، أما هو فيفاجئك بأنها كانت حركة محدودة وبدائية جدا، ويزهو كل اليساريين في مصر والعالم العربي بالإنذار السوفيتي خلال العدوان الثلاثي (١٩٥٦) هو يؤكد أنه لم يكن إنذارا جادا بل تلويحا وهميا وأن الرادع الحقيقي كان الإنذار الأمريكي.

وفي جلسة صاخبة تحدث أحدهم بزهو عن انتصار أكتوبر فتأمل سعد وجوه الحاضرين وقال في ١٩٥٦ حاربنا ثلاثة أيام وفي ١٩٦٧ حاربنا ستة أيام وفي أكتوبر

حاربنا ١٣ يوما والمجموع ٢٣ يوما بينما ظلت حالة الحرب والأحكام العرفية معلنة ما يزيد على ٢٥ عاما، قليلون جدا هم الذين يقبلون هذا المنطق، أو حتى يحتملون سماع هذه التحليلات المخالفة للمنطق السائد، ويبقى سعد زهران مغردا على انفراد أو بالدقة يبقى هو وعدد محدود جدا من الرفاق محاصرين بهذا المنطق الحاد الذى يطلقه عبر كلمات مدببة وشديدة السخونة ومغلفة بسخرية قاتلة، ويبقى سعد زهران مصمما على أن يكون الصورة الأخرى، يبقى دوما فى الاتجاه المعاكس مستمتعا بسخريته من المجموع وبكونه فى أقلية الأقلية، لكنه كان على الدوام مسموع الكلمة، ويهاب الجميع منطقه.

هذا هو الرجل فماذا عن النشأة؟ الأب مدرس أولى ظل يرتدى الجبة والقفطان حتى نقل إلى الإسكندرية فارتدى زى الأفندية، الأسرة أسرة فلاحين وبعضهم عمال بناء، والشيخ عبدالقوى والذى أصبح فيما بعد عبدالقوى أفندى هو وحده الذى أفلت من هذا المصير، الولد سعد كان متفوقا أرسله أبوه إلى الفصول التجريبية التى كانت نواة للتعليم العصرى وضمت المتفوقين وحدهم فتفوق هو على المتفوقين وحصل على المجانية بما شجع الأب على الدفع به إلى بقية مراحل التعليم، كانت مدرسته فى الجيزة وبيتهم فى الشرابية والمسافة طويلة جدا يقطعها التلميذ الفقير سيرا على الأقدام فعرف القاهرة بأدق تفاصيلها وعرف المعاناة اليومية كى ينال حق التعليم، وذات يوم يذكره هو جيدا (١٧ نوفمبر ١٩٣٦) وكان فى نهاية المرحلة الابتدائية وقع له حادث أدى إلى بتر ساقه، الأب والأم جلسا طويلا يتناقشان حول مصير الولد، الأب اقترح أن يترك سعد المدرسة وأن يعمل ترزيا فهى مهنة لا تحتاج إلى وقوف كثير، لكن الفتى العنيد وقف كما ظل دوما ضد المنطق السائد والمعقول وتحدى الإعاقة، وفى مدرسة فاروق الأول الثانوية دخل سعد ينط على عكازه وسط طلاب أغلبهم من أبناء الأكابر، يستند دوما على عكازه لكنه يستند أيضا إلى تفوق دائم، فهو الأول فى سنوات الدراسة، لكن ما كان يوجعه حقا هو أن التفوق ليس كافيا وحده كى يحصل على المجانية، فلا يكفى أن تكون الأول وإنما من الضرورى أن تقدم «شهادة فقر» واعتاد سعد على أن يعيش وأن يتعايش مع العكاز ومع الفقر، وكما يقفز على العكاز يقفز عبر سنوات الدراسة متفوقا فيحصل على التوجيهية بتفوق «كان ترتيبه الأول على المدرسة والـ ٢٤ على القطر» ودخل كلية العلوم قسم رياضة وكان لم يزل ابن السادسة عشرة، لكن لا العكاز ولا الدراسة كانت تمنع الفتى من أن يفكر فيما يدور

حوله من أحداث فهى سنوات بداية الأربعينيات التى تعج بأحداث جسام، الحرب العالمية، هتلر وموسولينى والنازية والفاشية، الغزو الهتلرى للاتحاد السوفيتى صمود ستالينجراد ولينينجراد كل هذه الأحداث كانت تفرض عليه تفكيرا مستمرا وعميقا وأحيانا كان يصل إلى نتائج تخرج كما اعتاد دوما عن السياق العام.

وذات يوم دعاه أحد أصدقائه وهو فوزى الزميتى (تفوق هو أيضا فى كلية الطب وأصبح فيما بعد الطبيب الخاص للملك فيصل)، دعاه فوزى إلى محاضرة، وهناك فى دار الأبحاث العلمية استمع إلى المحاضرة الأولى، لتهيمن تماما على فكره وكأنها سكبت عليه أشعة ضوء لا تقهر، لكنه تحامل على نفسه وكبح جماح اندفاعه حتى ينتهى من امتحان نهاية العام، وفى ذات يوم الامتحان الأخير قفز على عكازه إلى دار الأبحاث العلمية، الغريب أنه لم ينس أبدا ومع مضى الزمان هذا التاريخ، كان يحكى معى والتاريخ يهيمن عليه «فى الساعة السادسة إلا الربع من يوم ٢٨ يونيو ١٩٤٤ دخلت إلى دار الأبحاث العلمية» وقال هادئا وجادا أنا أذكر التاريخ تماما لأنه بمثابة يوم ميلادى الحقيقى، ابتسمت وقلت له لعلك سمعت شعر كمال عبدالحليم..

عيد ميلادى الذى أذكره

يوم كافحت وأحببت الكفاح

يوم أصبحت شيوعيا له

أسرة أخرى ورأى وسلاح

نظر سعد زهران إلىّ بقرف قائلا أنا لا أحب كمال ولا أحب سيرته ولكن لا بأس بأن أتمثل هذين البيتين من الشعر فقط.

ونمضى مع سعد زهران فى حواره معى

سعد زهران (٢)

ذات يوم انهمكت فى العمل الحزبى. مضت ساعات الليل الأولى، وقررت أن أواصل وأن أبيت حيث أوجد، واستهوانى التفرغ التام للنضال يوم - اثنين- ثلاثة، أمى قلبت الدنيا ولم تجدنى. أخيرا اقنعنى المسئول (شهدى عطية) أن أعود للبيت . عدت، أغرقتنى أمى بدموعها. نمت ثم استيقظت لأجدها أخفت العكاز والساق الصناعية. ساعتها فقط أدركت أننى معاق- وأضربت عن الطعام أربعة أيام فأعادت لى أمى الساق والعكاز.

سعد زهران (فى حواره معى)

إنها أيام الانطلاق الثورى لليسار، اللجنة الوطنية للعمال - ٢١ فبراير- ٤ مارس وبروز كوادر وزعامات جديدة احتلت مكانة ما فى المجتمع، ومكانة أكبر فى التنظيم. سعد زهران يسجل كالمعتاد ملاحظة مهمة «كانت الانقسامات تعبيرا عن بروز قيادات جديدة ذات ثقل فكرى وجماهيرى وذات احترام كبير وسط القواعد التنظيمية بينما كانت القيادات الاجنبية غارقة فى عزلتها».

وتفجرت الانقسامات وبدأت بتكتل سيف وسليمان تحت اسم «التكتل الثورى» (شهدى وأنور عبد الملك). ويقول سعد «لم أكن أحب أنور عبد الملك ولكننى كنت معجبا اعجابا شديدا بشهدى واندفعت معه بكل قواى. الكثيرون أدانوا التكتل، أما أنا فقد اعتبرته مجرد فرز طبيعى بين كوادر جماهيرية لاتقود التنظيم، وقيادات معزولة عن الجماهير، والحقيقة أننى فى البداية كنت اتصور أن شهدى وعبد المعبود الجبيلى هما زعيما التنظيم، فلما علمت أن ثمة قيادات أخرى فوقهما، وانهما تمردا على هذه القيادات تمردت معهما. وأقرر صادقا ان انحيازى كان عاطفيا فقد قرأت الوثائق والوثائق المضادة ولم أفهم شيئا. وكان هذا حال الكثيرين».

ويمضى سعد زهران «انشغلت بعض الوقت بالدراسة والامتحانات لأعود فجد كل شيء قد تبعثر، شهدى سجن، المعتقلات فتحت، عشرات من الرفاق قبض عليهم، الانقسامات التى كان التكتل الثورى بدايتها تكاثرت بصورة مرضية، ولم أجد حولى سوى مجموعة صغيرة من الرفاق (مصطفى طيبة- داود عزيز- لمعى يوسف- طوسون كيرلس) وبدأنا فى الالتقاء معا.. لنحاول أن نبدأ من جديد. كنت آلح عليهم فى كل لقاء انه لا حركة ثورية دون رؤية واضحة محددة تحدد معالم الحاضر بوضوح، وترسم طريق المستقبل بوضوح أيضا. وكنت أكرر فى كل مرة أن لينين لكى يبدأ الثورة درس وبعمق واقع روسيا وتأمل فى مستقبلها وأصدر كتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» وأنه لا أمل لحركة ثورية فى مصر دون كتاب كهذا. وفى هذه الأثناء عاد د. فؤاد مرسى إلى مصر بعد أن حصل على الدكتوراه من فرنسا، وكان يتصور أنه سيعود ليجد فى مصر تنظيما قويا ومتماسكا لكنه وجد مجرد مجموعات صغيرة ومتناثرة ومحبطة. أما أنا فكنت أهيم على وجهى ولا أعرف ماذا أفعل».

المصادفة وحدها لعبت دورها. مصطفى طيبة سافر إلى الاسكندرية فى رحلة متعلقة بوظيفته فى وزارة الحربية وهناك التقى بالمصادفة رفيقا قديما كان مبعثرا هو أيضا وقال له أن ثمة «دكتور» عاد من البعثة فى فرنسا ولديه أفكار جديدة. وذهب مصطفى طيبة لمقابلته اعجب مصطفى بالدكتور وعاد ليبلغ سعد الذى أسرع إلى الإسكندرية، ويقول عن المقابلة «وجدت فى الدكتور ما كنت أبحث عنه، حتى الكتاب الذى حلمت به طويلا كان جاهزا وكان عنوانه بالضبط كما أردت «تطور الرأسمالية وصراع الطبقات فى مصر»، وعدت من الإسكندرية وأنا فى قمة الانبهار وبين يدى نسخة من الكنز، وعلى الفور بدأت بنفسى فى نسخ ثلاث نسخ بالكربون وبدأت أبشر بهذا «الانجيل» الجديد. وتجمع معنا بعض المبعثرين والحيارى وأسسنا تنظيم «الحزب الشيوعى المصرى» الذى اشتهر بين المنظمات الأخرى باسم «الراية» انتسابا إلى نشرة أنيقة ومطبوعة بالمطبعة وتصدر اسبوعيا كل خميس باسم «راية الشعب».

ثم يسجل سعد زهران مسألتين. الأولى أن الرفيق خالد (الدكتور فؤاد مرسى) كرس حملة عداء قاسية ضد منظمة حدتو باعتبارها الخصم الرئيسى. والثانية أنهم ارسلوه فى رحلة إلى باريس وحملوه كل الوثائق الجديدة وأفهموه أن الرفاق الفرنسيين سوف

يناقشون معه الوثائق ويطرحون أفكارهم فيها. وأن د. اسماعيل صبرى عبد الله سوف يرتب له الأمر. لكن الرفاق الفرنسيين لم يقابلوه وحتى تذكرة العودة رفضوا أن يدبروها له، فعاد ساخطا. ومدركا أن الأممية رفضت أن تزج بنفسها فى بحر الصراعات التنظيمية المصرية.

وكانت قيادة الراية من أربعة رفاق د. فؤاد مرسى (السكرتير العام) واتفق الجميع على الحفاظ على أمنه وعدم السماح لأحد بأن يتعرف عليه وداود عزيز (الذى لا ينسى سعد زهران فى كل حديث عنه أن يسجل احترامه له) ومصطفى طيبة وسعد زهران. وفى هذه الأثناء اسهم سعد فى اضراب المعلمين عام١٩٥١ وفى الاضراب عن تصحيح امتحانات الثانوية العامة وفى خضم الاضراب تعرف على مدرسة تغلى بالثورية اسمها سميعة وتزوجها. وفى كتاباته العديدة يقدم سعد زهران تصورا بائسا لمجمل الحركة الشيوعية المصرية فهم مجرد بضع مئات لا تشعر بهم مصر. اما ثورة يوليو فقد انفرد سعد زهران بتسميتها «نكبة يوليو» ويقول وبعد رحيل عبد الناصر بسنوات «إن عدائى لنكبة يوليو سيظل قائما أبدا ومهما تحدثتم عن ايجابياتها فوحشيتها وهمجيتها وتدميرها للشخصية المصرية يلغى أى دور ايجابى لها. صحيح أنها سجنتنى تسع سنوات لكن ذلك لا علاقة له بتقييمى لها فأنا اعتقد اننى لو كنت فى الاتحاد السوفيتى لكانوا اعدمونى تسع مرات فأنا اؤمن أن تدمير حرية الإنسان هو تدمير لكل شىء». وهو كعادته يضع لنفسه معايير مختلفة «فوحدة الشيوعيين تمت بإرادة ناصرية، ثم انقسمت بإرادة ناصرية»، ويبقى سعد زهران كما هو، كثيرون تقربوا من الناصرية أو حتى بالغوا فى تمجيدها، أما هو فقد ظل على خصومته ليوليو وكل تاريخها. فقرر الرحيل بعيدا عنها وبقى فى الجزائر ١٦ عاما وكان ينوى أن يبقى ابدا لكنهم طلبوا منه أن يرحل. فغادر غربته هناك ليأتى إلى غربة فى أرض وطنه ولعله كان يتمثل قول حافظ ابراهيم

فما أنت يا مصر دار الاديب

ولا انت بالبلد الطيب

ولكن حافظ ابراهيم اعتذر لمصر عن هذه القصيدة بألف قصيدة أخرى. أما سعد زهران فلم يعتذر بعد، رغم أنه أحب مصر أكثر من كثيرين.

وليم إفرايم طانيوس

كنت مديرا فى شركة كبيرة، وأتقاضى مرتبا كبيرا جدا، وأعيش فى فيلا أنيقة، فجاءة جاءنى قرار من الحزب، اترك كل شىء واذهب محترفا إلى المحلة ومرتبك سيكون ثلاثة جنيهات فى الشهر، وقبلت على الفور ودون تردد.
وليم إفرايم «فى حواره معى»

إنه ذلك الجيل الذى بنى مجد اليسار المصرى، القدرة على التضحية، والقدرة على الالتزام حتى ولو كان قرار القيادة غير منطقى أو حتى كان قرارا مجنونا.

الأسرة متوسطة اشتغل أغلب أفرادها فى محالج القطن وأحيانا فى الإتجار المحدود بالقطن، أما أبوه فقد تجول حائرا فى أكثر من مدينة بحثا عن رزق أكثر وفرة، فتنقل بين ملوى ونجع حمادى والمنيا وبنى مزار والقاهرة، حقق بعضا لا بأس به من المال لكن الأسرة كبيرة (٩ بنات وولدان) والعبء ثقيل والتنقل المتعدد أربك تعليم الأولاد، وفطن وليم وهو صغير إلى أن مستقبله رهن بأن يتعلم، وبالفعل حصل على شهادة الثانوية العامة الإنجليزية «المتريكليشن» بالمراسلة ثم دبلوم اقتصاد من جامعة لندن بالمراسلة أيضا، وبعدها أصبح جاهزا للصعود إلى مستوى اجتماعى مرموق. هو يتذكر أيامه وهو صغير فى عام ١٩٤٠ فى نجع حمادى كانوا يسكنون فى فيلا على النيل أو كما كان يسمونه الساحل، وفى المرسى كانت المراكب كثيرة والتجار أكثر والأنظار كلها مشدودة للحرب وتطوراتها يحضرون الجرنال ولا أحد يعرف القراءة ووجدوا فى وليم ضالتهم يجلسون جميعا فى صمت وهو يقرأ وبعدها تنفجر نقاشاتهم وخلافاتهم وهو يستمع ويستمتع، وعاش الفتى فى غمار السياسة، وكره الإنجليز كما كان يكرههم كل الذين يقرأ لهم الجرنال، ذات يوم قتل السكان جندياً إنجليزياً وحملوه على عربة كارو وهم يهتفون «رطل الإنجليزى بقرش»، وبالمصادفة وقع فى يده كتاب لسلامة موسى عن «الاشتراكية» وتعلق بالفكرة ويقول «كنت أحلم وأنا فى هذه السن أن أفتح محل بقالة وأبيع

للفقراء بدون ربح، وأن أتزوج طبيبة تعالج الأطفال مجانا، وفى القاهرة توظف وليم الذى أصبح يجيد الإنجليزية فى شركة كبيرة لبناء محطات الكهرباء، ذات يوم أعطاه قريبه لطيف فرج وكان طالبا بالجامعة كتابا عن الاشتراكية ثم كتابا عن الماركسية، ثم سلمه لطالب جامعى يتهب حماسا هو ضياء الدين بدر وبدأ يدرس الماركسية على يديه وأسعفته معرفته بالإنجليزية فى قراءة كتب عديدة، لكنهم تركوه هكذا لم يضموه إلى أى مجموعة أو خلية ولم يعرفه إلا عدد قليل جدا، فقد جعلوا من بيته مخزنا للمطبوعات الحزبية، وبقى هكذا حتى ١٩٥٠، وفى هذه الأثناء رقى لكفاءته ليصبح مديرا عاما وعاش حياة مرفهة، فيلا ومرتب وفير، وفى هذه الأثناء ضمه قريبه رءوف فرج «طالب طب - انتقل إلى سيدنى فى الستينيات ليصبح أحد أشهر أطباء استراليا» إلى منظمة الحزب الشيوعى المصرى «الراية» وفى هذه المنظمة ظل يعمل أيضا فى أشد الأجهزة خطورة توفير آلات الطباعة وتخزين المطبوعات وترتيب شبكة الاتصال، نجح وليم نجاحا باهرا، أقام شبكة اتصال دقيقة ومتقنة، واحد من الرفاق العاملين معه هو المهندس نعيم محروس وضع تصميما لمطبعة بسيطة جدا وشديدة الكفاءة، وذهبا معا إلى صاحب ورشة ميكانيكية فى شبرا هو عبدالعزيز خاطر حاولا خداعه طلبا منه تصنيع عدة قطع منفصلة صنعها وهو يبتسم وبعد أن أنجز المهمة سألهم «إنتوا بتعملوا مطبعة ليه؟» صارحوه أنهم شيوعيون وضحك قائلا: «متقولوا كده من الأول» وانضم عبدالعزيز خاطر وتخصص فى ابتكار مطابع بسيطة وجيدة الطبع، بل أصبح يمارس أيضا طباعة المطبوعات الحزبية، وذهب وليم إلى طنطا حيث هيأ مخبئا ماكرا للمطبعة، بنى حائطا يسد إحدى الغرف ثم ركب على الحائط المصنوع حوضا وحنفية وتحت الحوض باب سرى، وفى الغرفة السرية كانت المطبعة التى لم ينس عبدالعزيز خاطر أن يزودها بمواد عازلة لتقليل صوت الماكينة، ومع هذا النجاح المذهل وبرغمه أو بسببه سيان أتاه قرار حزبى، اترك عملك وبيتك واذهب محترفا إلى المحلة، ترك الوظيفة والفيلا، وأخذ زوجته وطفله سعد إلى غرفة محشورة فى حارة ضيقة فى بيت مهدم، المرتب عشرة قروش فى اليوم قرشان للسجاير وقرش ليستطيع أن يجلس على القهوة كى يبدأ علاقات اجتماعية تمكنه من تجنيد رفاق جدد، وسبعة قروش للسكن والطعام وكل حاجياته هو والزوجة وسعد، ومع هذا التفانى فى الكفاح صعد وليم إلى اللجنة المركزية، وأصبح أيضا مسئولا عن كل أجهزة الطباعة. وفى منشية البكرى كانت هناك شقة بها مطبعة صغيرة، كان هو هناك وكان عبدالناصر يخطب فى مؤتمر لعمال السكة الحديد وأتى صوته عبر الراديو

مهاجما «الشيوعيين العملاء» كتب بسرعة بيانا مختصرا يرد عليه، وطبعه على الفور ثم أسرع به إلى أحد الزملاء العاملين فى السكة الحديد هو غنيم مصطفى، سلمه البيان وأمره أن يوزعه فى مكان الاجتماع وفيما الخطب تتوالى وعبدالناصر على المنصة إذا بمنشور يلقى فوق رءوسهم يرد على ما قاله عبدالناصر فى ذات الاجتماع، رفاقه اعتبروه بطلا، أما هو فقد واصل حياة شديدة العذاب، هو احتمل برضاء، ولكن ما ذنب زوجته وطفله، ذات يوم أسرع إلى ملوى فى مهمة حزبية عاجلة ترك لزوجته كل ما معه من قروش غاب عدة أيام القروش نفذت والجوع كاد أن يفتك بالطفل لم يكن لديهم سوى حلة بها بقايا أرز مطبوخ من عدة أيام الزوجة أكلت هى وطفله وأصيبا بتسمم وعاد ليجدهما على وشك الموت، وفى نوفمبر ١٩٥٤ قبض عليه بعد أن كان قد استعاد وجود الحزب فى عديد من المناطق وإلى سجن القناطر، الزوجة جاءت لزيارته ومعها سعد، تعلق سعد فى عنقه ورفض أن يترك أباه، ضابط غليظ القلب انتزع سعد بوحشية وأصيب سعد من يومها بالصرع (سعد أصبح دكتور مهندس لكن هذه اللحظة المتوحشة لم تفارقه حتى الآن)، قبض مع وليم على اثنين من أقربائه د. رفقى والمهندس نعيم ومع كل منهما أوراق حزبية، هو ضبط ومعه أدوات طباعة ومطبوعات وأرشيف أى أنه مسجون، مسجون. فوقف أمام القاضى معترفا أنه شيوعى وأن المضبوطات تخصه، وحتى مضبوطات رفقى ونعيم قال إنه وضعها فى بيتهما دون أن يعلما بذلك وأفرج عنهما أما هو فقد حكم عليه بسبع سنوات أشغال شاقة، لكن المأساة لم تكتمل.. فقد شكلت لجنة للتحقيق فى أسباب الاختراق الأمنى للحزب، كانت هناك أخطاء أمنية كثيرة، لكن الاعتراف بها يهز مكانة القيادة ولم يجدوا سوى اتهامه بأنه عميل للأمن، كاد أن يموت حزنا، لكنه تحمل وظل مرفوع الرأس واثقا من نفسه، وفى عام ١٩٦١ انتهت مدة العقوبة ومن المفترض أن يفرج عنه لكن رجل البوليس السياسى حسن المصيلحى استقبله وقال له لماذا تبقى معهم وهم يتهمونك بأنك عميل؟ إتركهم واستنكر مبدأهم وأنا أفرج عنك، ورفض، فعاد إلى الواحات معتقلا، لكن زوجته لم تعد تحتمل وقررت الانفصال عنه فكانت لطمة أخرى، ومع ذلك ظل مبتسما، هادئا، مرفوع الرأس واثقا من نفسه حتى أفرج عنه عام ١٩٦٤ مع الجميع، وبعدها عمل مديرا للمكتب التجارى الرومانى فى شارع طلعت حرب ليمر عديدا من المرات كل أسبوع على مقر التجمع، يسأل ويشارك ويتبرع بالكثير.. حتى رحل.

محمد رشدى خليل

إن رشدى لم يمت.
سجنوه أمرضوه اعدموه فى الليمان
ثم عادوا وجدوه يحتوى كل مكان
ان رشدى لم يمت.
فهو فى صدرى وصدرك
هو فى قلبى وقلبك
(من قصيدة رثاء كتبها أحد رفاقه فى السجن)

البداية كانت على يد شقيقه د. فتحى خليل. وفيما كان فتحى فى معتقل هايكستب (١٩٤٨-١٩٥٠) كان رشدى طالبا فى المدرسة الثانوية. وكان قد بدأ نضالا واسعا وسط زملائه الطلاب فى شبرا. وفى عام ١٩٥٢ التحق بكلية الهندسة جامعة عين شمس. وهناك التقينا. كنت أنا طالبا فى حقوق عين شمس فى الدور الثانى من ذات المبنى وكنت مسئولا عن رابطة الطلبة الشيوعيين (حدتو) فى الكليتين. وأتانى جمال عبد الحميد وكان طالبا فى الهندسة ليبلغنى أن طالبا بالهندسة من تنظيم طليعة العمال يريد مقابلتى. والتقينا. قال فى بساطه جميلة أعرف أن قيادتك سترفض، وأن قيادتى سترفض أن نعمل معا عملا مشتركا، لكننى معجب بنشاطكم فى كلية الحقوق واقترح أن نعمل معا. وعملنا معاً. وفى هذه الفترة التهب المبنى حقوق وهندسة بأعمال ثورية شاركنا فيها الوفديون ومصر الفتاة وتشكلت الجبهة الوطنية الديمقراطية لطلاب حقوق وهندسة عين شمس. أنا اعتقلت فى أواخر ١٩٥٣ وهو اعتقل فى ١٩٥٤ عقب الاعتصام الشهير لطلاب الكليتين مطالبين بالديمقراطية وعودة الجيش إلى ثكناته. ويفرج عنه بعد فترة ليواصل دراسته ويواصل معها نضاله. وتألق رشدى خلال فترة العدوان الثلاثى (١٩٥٦) فقد أصبح أحد قادة حركة

المقاومة الشعبية فى شبرا ثم فى القاهرة، وأسهم فى تأسيس «الجبهة الوطنية المعادية للاستعمار». وفى ١٩٥٨ وعندما اتحدت كل المنظمات الشيوعية فى حزب واحد لعب دورا قياديا فى تثبيت هذه الوحدة. وأصبح أحد قادة منظمة الحزب فى القاهرة. ثم كانت حملة القبض الشرسة فى أول يناير ١٩٥٩ وأفلت رشدى ليواصل معركة تجميع الرفاق وإعادة تنظيمهم لمواجهة هذه الهجمة الشرسة. حتى قبض عليه ليرسل إلى معتقل العزب بالفيوم. ومن الفيوم إلى أسوأ سجون التعذيب الناصرى فى أسوأ فترات وحشيته. الضرب مستمر فى الجبل حيث يقوم المعتقلون بتكسير البازلت تحت وطأة العصى ثم الضرب عند ستلام الطعام ثم الضرب فى الزنزانة.. ونستمع إلى شهادة أحد المعتقلين «كان رشدى صبا فى الجبل مثل البازلت الذى يقوم بتكسيره لكنهم لم ينكسر وكان صلبا فى الزنزانة فما أن يغلق الباب حتى يبدأ فى إدارة حوارات حول المستقبل، وحول أهمية صيانة الوحدة. وذات يوم خطرت ببال الضابط حسن منير وسيلة منحطة لإذلال السجناء. اختار عشرين منهم وأوقفهم صفين كل صف عشرة وطلب من أفراد الصف الخلفى أن يضرب كل منهم زميله الذى يقف أمامه. وفيما الجميع يرفضون صامتين صاح رشدى بأعلى صوت «لا يمكن أن اضرب زميلى» وأنهال حسن منير عليه ضرباً ثم ساق العشرين ليحشرهم فى زنزانة واحدة. ويقول زميل هذه الزنزانة محمد سعده «كانت الزنزانة مترين فى متر ونصف ولا تكفى لنا ونحن مرصوصين وقوفا. واقترح رشدى أن يجلس اثنان ليرتاحا بينما يقف الباقون، وكان يختار الاكبر سنا والأقل احتمالا ليعطيه أولوية الجلوس أما هو فلم يجلس محاولا أن يحتمل من أجل راحة الرفاق الأكبر سنا أو المتعبين. زملاؤه فى هذه الزنزانة النازية يتحدثون. نجاتى عبد الحميد يقول : «كان رشدى خليل متماسكا يدعو الجميع للتماسك ويحشر نفسه على الحائط ليفسح سنتيمترات لزميل متعب». ومحمد سعده يقول «كانت الزنزانة رهيبة وبشعة واستمر رشدى واقفا أربعة أيام.. التبرز كان مشكلة مستعصية ورائحة البول تملأ الزنزانة».

اكرام محارب «قال عندما فتحوا باب الزنزانة خرج رشدى مثنى القامة ولم يفرد ظهره بعدها». وبعدها اشتد المرض برشدى، لكن الطبيب النازى هو ايضا واسمه أحمد كمال كتب تأشيرة تقول أنه متمارض يتظاهر بالمرض فعوقب بالضرب وهو مريض وعندما ارتفعت درجة حرارته إلى ما يقرب من ٤٩ درجة نقلوه إلى زنزانة الملاحظة. ومرة أخرى

يقرر الطبيب أحمد كمال أنه مصاب بالانفلونزا والعلاج نوفالجين، ولكن الحالة ازدادت سوءاً. وبالمصادفة مر على زنزانة الملاحظة طبيب آخر هو الدكتور أدمون فشخص الحالة بأنها تيفويد وكتب له علاجا. لكن أحمد كمال عاد ليلغى علاج التيفويد ويكتفى بالنوفالجين. وكأنه مصمم على تنفيذ أوامر بالحكم عليه بالإعدام. ويستمر الحال ثلاثة أيام حتى انهار الجسد الشاب والفتى، وارتفعت حرارته إلى ٤٠. ومع صراخ المسجونين حضرت يوم الجمعة سيارة بيك آب من سيارات الشرطة لتنقله إلى المستشفى. ألقوا به ممدا على أرضية السيارة زاعمين أنهم سيرسلونه إلى المستشفى.

ويحكى نبيل زكى أنه أفلت من الطابور ودخل عليه زنزانة الملاحظة ليودعه لكن رشدى وحتى وطأه الحمى قال له «أرجوك يا نبيل شوف الرفاق لو عايزين يبلغوا أى شىء للخارج يبلغونى وأنا سأبذل جهدى لايصال الرسالة. وحملت سيارة البوكس الفتى الشجاع ممدا على أرضية من الحديد. وأسرعت. والطريق من أبو زعبل ملئ بالمطبات ومع كل مطب يرتفع رأس الفتى ليعود فيرتطم بالحديد، مرة، مرات، عشرات المرات، وربما مئات المرات.. والسيارة لم تذهب إلى المستشفى ربما خوفا من تقرير طبى يصف الحالة، ولهذا ذهبوا به إلى سجن مصر. وألقوا به فى زنزانة وليس حتى فى مستشفى السجن. اغلقوا باب الزنزانة وتركوه هكذا حتى فارق الحياة. وهنا فقط عرضت الجثة على الطب الشرعى. ويقول تقرير الطبيب الشرعى الدكتور محمد نجيب فهمى والمؤرخ فى ٢٤-٧-١٩٦٠ «السجين محمد رشدى خليل توفى بسبب هبوط فى القلب سبقته حمى تيفوئيدية وكسر بعظام الجمجمة ونزيف على سطح المخ». وفى أعلى التقرير تأشيرة تقول «تخطر النيابة» بما يعنى الوفاة جنائية. لكن النيابة لم تخطر.

ويصل نبأ الاستشهاد إلى رفاقه فى السجن ويقف أحد الرفاق ليرثيه..

أن رشدى لم يمت
هو فى كل الملايين التى
حولى وحولك
فى المصانع فى المزارع
فى الشوارع
الملايين التى تزحف

قدما لا تنثنى.. لا تتوقف
هى كالامواج .. صف بعد صف
كلما ماتت على الصخرة موجة
عاجلتها الف موجة
نحن لن نبكى الشهيد
ليت من يبكى عليه ويواسى النائحين..
وللحزب يديه.. لنبيد الغاصبين

لويس إسحق

«فى كل معركة يكون هناك أول شهيد، ثم يكون هناك آخر شهيد، هذا هو لويس إسحق يفتح صدره أمام رصاص الغدر ليفتدينا جميعا.
فهل تنتهى المعارك الوحشية ليكون لويس آخر شهيد فعلا».
من خطبة رثاء ألقاها د. إسماعيل صبرى عبدالله
بعد لحظات من اغتيال لويس إسحق

الأب كان باشكاتب فى محلج كارتر بمنفلوط، كان صارما ومتشددا وهو نموذج لهؤلاء الموظفين المطحونين الذين شاهدناهم فى أفلام الأربعينيات وهم يخفون ضعفهم أمام رؤساء العمل خلف ستار من تشدد شديد القسوة فى البيت، الأم سيدة طيبة رحلت سريعا ولويس فى التاسعة، الأب انتظر ثلاث سنوات ثم تزوج، لويس يتحدى الفقر وزوجة الأب ويحصل على التوجيهيه من مدرسة الإرسالية الأمريكية بأسيوط ويؤهله تفوقه لدخول كلية الطب وأن يحصل على المجانية، الأب استجمع إرادة لا حدود لها فجمع قروشا أرسل بها لويس إلى القاهرة، لكن الموت ظل يعاند لويس فرحل الأب، وتجمع الأعمام الذين هم أيضا فقراء وقرروا اقتسام تبنى الأولاد، البنات أليس، لوريس، ايفون ذهبت كل واحدة منهن لتعيش مع أحد الأعمام، أما لويس فقد ظل يصارع الفقر ليبقى طالبا فى كلية الطب، لكنه وبرغم حصوله على المجانية خضع لإرادة الفقر، وعاد إلى المنيا وقرر وهو ابن السابعة عشرة أن يتحمل عبئ البنات الثلاث، خاله ساعده فى الحصول على عمل متواضع، محصل مياه ببلدية المنيا، وفوجئ بعقبة غريبة فهو لم يكمل بعد الثامنة عشرة الحد الأدنى للتوظف، وظل لويس يعمل لثلاثة أشهر دون مرتب حتى يبلغ السن القانونية. (هذه المعلومات وكل المعلومات اللاحقة حصلت عليها من الابن الروحى للشهيد الزميل أنور إبراهيم) وبعدها جمع لويس أخواته ونذر حياته لهن معاهدا نفسه ألا يتزوج بعد أن يتزوجن جميعا،

وبالفعل وبرغم السجن والاعتقال وبرغم الهروب والاحتراف نجح فى وعده.. البنات يتعمن ويتزوجن.. وعندما اغتالوه كانت الأخت الصغرى على وشك الزواج.

ونعود إلى الفتى محصل المياه، كان يدور طوال النهار، يدق الأبواب الفقيرة من خلف الباب يأتى صوت الزوجة، الزوج غير موجود، أو المبلغ المطلوب غير متوفر.. «وفوت علينا بكرة»، لكنه كان يمتلك صبرا كافيا كى يؤدى عمله، وبعد الظهر ينقطع للقراءة، وتظل عقدة حرمانه من التعليم تطارده فيقرأ ويواصل القراءة، كان يقرأ أى شىء يصل إلى يديه، لكنه ومع قدر ضئيل من الاستقرار الاجتماعى بدأ يخرج من شرنقة المنزل انضم إلى جمعية الشبان المسيحية، ولكن وجدانه المصرى دفعه إلى الانضمام أيضا إلى «جمعية الشبان المسلمين» ثم إنضم إلى حزب الوفد وأصبح عضوا باللجنة التنفيذية العليا للشباب الوفدى بالمنيا، ومع هذا ظل يواصل القراءة وذات يوم وبالمصادفة اشترى مجلة اسمها «الفجر الجديد» كانت بالنسبة له فجرا حقيقيا، مع كل سطر من أسطرها كان قدر من الظلام ينزاح ويستشعر أن إشراقه نور ساطع تحتل وجدانه، وتمسك لويس بشعاع الفجر الجديد وظل يتابع قراءتها دون أن يعرف من يصدرها وهكذا أصبح شيوعيا من منازلهم فلم تكن يده وهو فى المنيا قد تلامست مع الذين يصدرونها فى القاهرة لكنه بدأ يجمع حوله عددا من الأصدقاء ليصبحوا معه مجموعة شيوعية لا يعرف عن الماركسية إلا ما تقرأه فى الفجر الجديد. وأخيرا التحق بالركب الثورى وأصبح عضوا فى هذا التنظيم الذى كان يكمن خلف الفجر الجديد وهو «الطليعة الشعبية للتحرر».

انتمى، وظل طوال العمر منتميا، أفنى كل وقته وجهده منتميا لهذا التنظيم عضوا فكادرا فقائدا فشهيدا، وتتدافع الأحداث الثورية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وتصل إلى ذروتها فى ١٩٤٦، فينظم لويس مظاهرة ضخمة فى المنيا لم تكتف كالعادة بالهتاف بسقوط الاستعمار وإنما تعالى هتافها بسقوط الملك، والتقطت أعين الأمن هذا الفتى الهادئ جدا والمنظم جدا والمتمرد جدا، وعلى رصيف محطة ملوى قبض عليه متجها لحضور اجتماع حزبى لمجموعة من عمال المحالج وبقى بالسجن ستة أشهر ويأتى عام ١٩٥٠ ولويس فى السجن وتكون الانتخابات ثم الحكومة الوفدية التى أفرجت وبسرعة عن عضو اللجنة التنفيذية العليا للشباب الوفدى بالمنيا.

عاد الموظف الهادئ محصلا للمياه، لكن الأمن يزداد غباء كالمعتاد فيقرر أن «يمرمط»

هذا المشاغب وتقرر أن ينظموا له «كعب داير» فلا يبقى فى أى مركز من مراكز المديرية أكثر من عدة أشهر فمن المنيا إلى الفشن ثم إلى دير مواس.. وهكذا، ومبتسما وممتنا كان لويس يتقبل هذا النقل ففى كل مركز نجح فى أن يقوم ببناء تشكيل حزبى، ولم يدرك الأمن إلا متأخرا غباء فكرته.

وما أن يترك الوفد الحكم حتى يسرع الأمن بالقبض عليه حيث يبقى فى السجن أربعة أشهر، وأخيرا اهتدى الأمن إلى منفى بعيد جدا فنفى إلى وظيفة سكرتير بلدية الوداى الجديد، فاستقر فى مدينة الخارجة وكان الوقت هناك طويلا وممتدا وبلا نهاية فقرر أن يجدد حلمه القديم فانتسب إلى كلية الحقوق ومرق سريعا، وفى ١٩٥٨ أتى موعد الامتحان وكان كل ما يمتلكه جنيهان لكن واحدة من أخواته كانت منتسبة إلى كلية التجارة وتحتاج إلى الجنيهين كرسوم للامتحان، وكان عليه أن يختار، فاختار أن يحقق حلم أخته وقرر أن يؤجل حلمه لعام آخر ولم يكن يدرى أنه يؤجله إلى الأبد، وفى هذه الفترة تلقى قرارا بأن يحترف فترك الوظيفة (٢٦ جنيها) ليعمل محترفا مقابل ١٢ جنيها.

بالأمس قرر أن يضحى بكل شىء من أجل أخواته، والآن هو يضحى بنفسه وبالبنات من أجل الحزب، ومع كل هذا التفانى تم تصعيده إلى عضوية اللجنة المركزية، وفى غمرة نشاط محموم يأتى يناير ١٩٥٩ ويعتقل المئات من الشيوعيين ومعهم لويس فى سجن القلعة ثم سجن مصر ثم سجن الحدرة بالإسكندرية حيث نصبت المحكمة العسكرية الشهيرة، كان واحدا من ثمانية متهمين فى القضية امتثلوا لقرار القيادة بالدفاع عن الشيوعية وعن الحزب وإعلان الاعتزاز بعضوية الحزب، غضب الفريق هلال عبدالله هلال قائد سلاح المدفعية ورئيس المحكمة من هذا التحدى فصب غضبه فى حكم شديد القسوة عشر سنوات أشغال شاقة.

ومن الإسكندرية إلى سجن المحاريق بالواحات ليكون هناك رمزا للصمود الهادئ والعطاء الذى لا ينقطع.

وتبدأ الانفراجة ويقرر عبدالناصر الإفراج عن جميع الشيوعيين المعتقلين والمسجونين ودفعة دفعة يبدأ الإفراج، وتحلق فوق الجميع أضواء العودة إلى الأهل والرفاق والنضال، هو كان فى السابعة والثلاثين أختان من أخواته الثلاث تخرجتا وتزوجتا والثالثة توشك أن تتزوج، وآن له أن يهتم بنفسه قليلا.

لكن كمينا كان معدا لتفجير الخلاف مرة أخرى بين الشيوعيين وعبدالناصر فافتعل أحد ضباط السجن واسمه يوسف تمراز خناقة صغيرة ثم أشعلها أكثر فأكثر وبدأ التحام مروع، أدرك لويس حقيقة المؤامرة فهتف فى الزملاء إنها مؤامرة وطلب إليهم أن يسرعوا إلى العنبر لكى يفسدوا المؤامرة، واكتشف يوسف تمراز أن هذا الرجل خطر وأنه فهم المؤامرة فأطلق عليه رصاصة، وسقط الشهيد الأخير.

أنور إبراهيم

كنت فى السادسة عشرة عندما قدت مظاهرة لطلبة كلية الأمريكان الثانوية بالمنيا كنا فى هذه الفترة الساخنة من تاريخ مصر ١٩٥١ حملونى على الأعناق.. وفجأة وجدت نفسى أهتف.. يسقط الملك، ردد الطلاب الهتاف وشهق الرجال من فرط تهور هذا الفتى، أما الأمن فقد ترصدنى حتى احترقت القاهرة وأعلنت حكومة الوفد الأحكام العرفية واعتقلونى.

«أنور إبراهيم.. فى حواره معى»

الأب ممرض فى المستشفى الأميرى بالمنيا، الحياة جافة وفقيرة، ويزداد الولد أنور بؤسا برحيل الأم وهو تلميذ فى الثانية الابتدائية، ويحتضنه ابن عمه لويس إسحق، يهتم به، يلقنه أولا بأول أسرار الحياة، ثم يلقنه الماركسية ثم يضمه إلى تنظيمه «طليعة العمال» ويمضى الفتى أشهرا فى المعتقل حتى يسقط الملك الذى هتف هو بإسقاطه ويفرج عنه، لكنه يظل مطاردا من جانب الأمن، يسرع أنور فيتخرج من معهد متوسط ويعين مدرسا فى مدرسة ابتدائية أميرية اثنى عشر يوما فقط عملها كمدرس ثم بلغه اعتراض الأمن، ثم الفصل ليعمل فى مدرسة خاصة لفترة من الوقت، والأمن أيضا يطارده، ثم تأتى تعليمات التنظيم، مطلوب منك أن تحترف، وطبعا وافق فهكذا تعلم من أستاذه لويس إسحق، ترك المدرسة والأسرة والمنيا كلها ليقيم محترفا فى بنى سويف، ويتزوج وهو محترف ابنة عمه شقيقة لويس، فى يونيو ١٩٥٨ يتزوج وبعدها بستة أشهر فقط (أول يناير ١٩٥٩) يعتقل ويبقى فى أتون الاعتقال والتعذيب النازى حتى أبريل ١٩٦٤ وقبل الإفراج عنه بأيام يكون اغتيال أبيه الروحى لويس اسحق حمل جثمانه بين يديه صامدا متعمدا أن يطهر ثيابه وجسده بدماء أستاذه ورفيق دربه، يعود إلى المنيا ليفاجأ بعد أشهر بقرار حل الحزب، ويروى لى والدموع تملأ عينيه «كانوا قد قرروا حل الحزب، وكانوا يعرفون من يوافقهم

ومن يرفض الحل فتجاهلوا دعوة من يرفضون الحل لم يدعنا أحد، ولم يناقشنا أحد، ولم يسألنا أحد، ولم نعلم حتى بقرار الحل إلا من جريدة الأهرام» (فى حواره معى)، الحزب راح ولكن الروح الثورية المتأججة دوما تبقى، وثأر لويس لم يزل يغلى فى دمه فوهب نفسه لخدمة الناس فى المنيا، انضم لعديد من الجمعيات الأهلية «جمعية تنمية المجتمع» و«جمعية الشبان المسيحية»، ثم انتخب فى غفلة من الأمن عضوا بالمجلس المحلى، وعندما يأتى منبر اليسار يأتى أنور معه منذ اليوم الأول ويصبح أمينا مساعدا للحزب فى محافظة المنيا حيث أقام صرحا تجمعيا عاليا، وعندما تأتى انتفاضة يناير ١٩٧٧ يكون تجمع المنيا فى طليعتها، وتكالب الجميع للانتقام منه، فما أن قبض عليه حتى انطلقت ضده قوى عدة، الأمن وهذا طبيعى، لكن الرجل التجمعى الذى انتخب عام ١٩٧٥ عضوا فى المجلس المحلى، ظل يواجه الفساد والمفسدين حتى استجمع خصومه كل أصحاب المصالح، فساقوا ضده عشرات الشهود يتهمونه بأنه أحرق ودمر خلال المظاهرات».. وغيرها من تهم باطلة.. ويحكى أنور إبراهيم السبب «أصل الحكاية أننى فى أغسطس ١٩٧٦ طلبت فى جلسة المجلس المحلى للمحافظة إعلان أسماء الذين حصلوا على قروض من صندوق الخدمات قيمتها ٢٣٢ ألف جنيه، وكانت قروض بدون فوائد، ومضت عشر سنوات والقروض لم تسدد، وبرغم الإلحاح رفضت المحافظة إعلان هذه الأسماء فقط همسوا فى أذنى إنها شخصيات مهمة ولا يجوز المساس بها. لكننى صممت على طلبى، كذلك فجرت فى المجلس خسائر المجمعات الاستهلاكية، والنهب والفساد فى عمليات رصف الطرق وسوء الخدمة بالمستشفيات، وبدأت عمليات اضطهادى ومحاصرتى وتهديدى عبر مكالمات تليفونية من مجهولين.. وفى المكالمة أسمع عبارات مثل «أصل حوادث العربيات مفيش أكتر منها.. أو ممكن حد يخطف ابنك» وقد أثرت ذلك كله فى تحقيقات النيابة» (فى حواره معى) والحقيقة أن مراجعة ملف تحقيقات النيابة فى قضية ١٩٧٧ بالمنيا تكشف عن حوار حاد جدا بين المتهم أنور إبراهيم، والمتهم الحقيقى رئيس النيابة الذى تمسك بأقوال شهود زور وحاول أن يلفق له اتهامات باطلة، وكان أنور يكيل الصاع صاعين للشهود لزور ويحكى أسباب غضب كبار أثرياء المحافظة منه، والشىء الغريب أن الجميع كانوا يعرفون أن أنور كان حاضرا لاجتماع فى المجلس المحلى للمحافظة عندما حاصر المتظاهرون مقر المجلس محاولين اقتحامه وارتعد الحاضرون وتعالى رجاؤهم له أن يخاطب الجماهير كى

يفكوا حصارهم عن مبنى المجلس، وخرج أنور فهتفت الجماهير له فدعاهم للانصراف بعيدا عن مبنى المجلس وإلى التظاهر السلمى وحماية الممتلكات، لكن أحدا ممن أنقذ أنور رقابهم لم يتقدم للشهادة لصالحه، ويوشك التحقق أن يلفق له تهمة قيادة المتظاهرين لإحراق مبنى الاتحاد الاشتراكى وغيره من المؤسسات، لكن التلفيق لم يفلح فقد تقدم للشهادة مئات من المواطنين مستعدين للشهادة لصالحه.. ويفرج عنه (محاضر تحقيق النيابة فى قضية يناير ١٩٧٧ - المنيا - ملف القضية ص٣٧٥) يفلت أنور لكن روح الانتقام تطارده فيقبض عليه بتهمة تحريض المواطنين على مقاطعة استفتاء ١٩٧٨، يأتون بشهود زور لكن العشرات يبدون استعدادهم للشهادة لصالحه فيفلت أيضا.

ثم تكون فتنة طائفية مدوية فى المنيا حيث قام المتطرفون بذبح عدد من المسيحيين فى قرية التوفيقية وتوشك المنيا أن تتفجر بأحداث دامية، ونزل أنور إبراهيم بكل ثقله تنقل بين الأطراف، جمع الكبار من الجانبين ورجال دين من الجانبين ونجت المنيا من الفتنة، ولكن وياللغرابة ألقى القبض عليه بتهمة التشجيع على الفتنة، وفى هذه المرة ظل واقفا عدة أيام فى زنزانة مملوءة بالماء، وبعدها جاء ضابط كبير وقال بصراحة «الحقيقة إحنا عندنا تعليمات إن نخلص منك، وهناك اقتراح أن نلفق لك قضية مخدرات ولو احتجنا مائة شاهد حنلاقى» فتح الضابط باب الزنزانة وقال له روح بيتكم وفكر وأشوفك تانى بكرة، خرج أنور من الزنزانة إلى القطار إلى بيتى مع سليمان شفيق، حكى الحكايات كلها، تشاورنا واتفقنا على أن يسافر إلى العراق ليعمل هناك لبعض من الوقت، وسافر لأربع سنوات، لكنه عاد مريضا، سنوات السجن والتعذيب والتلفيق لم تنل منه لكن الغربة نالت منه، فعاد مصابا بأمراض غريبة، وإذ عاد إلى المنيا عادت المؤامرات ضده، فكر البعض بطريقة أخرى حاولوا إغراقه فى بئر الفساد «مرفق النقل الداخلى» لكنه أداره باقتدار ونزاهة وحقق ولأول مرة أرباحا طائلة، وهنا تجمع الفاسدون والمستفيدون القدامى وهددوه محاولين إخافته، فكتب فى مجلة«أهالى المنيا» رسالة لهم يؤكد فيها أنه لن يتراجع ولن يخاف وقال «إن مصدر الشعور الحقيقى بالأمان لأى مناضل هو الارتباط الحقيقى بالجماهير»، لكن المرض يتغلب عليه ويرحل لتكون جنازته عنوانا جديدا ومتجددا لرجل عاش حياته كلها فى خدمة الناس، آلاف من المشيعين فى المدينة والقرى المجاورة، تلاميذ المدارس، قساوسة وشيوخ، نساء بلا حصر.. جميعا ساروا معا ليشيعوا رجلا عاش خادما لهم.

الدكتور فخرى لبيب

فى عام ١٩٤٧ احترقت كنيسة فى الزقازيق وصمم الشباب المسيحى فى شبرا حيث كنت أسكن على إحراق مسجد. وداخل الكنيسة خضت حوارا طويلا مؤكدا أنها مؤامرة استعمارية تستهدف إلهاء المصريين عن النضال ضد الاحتلال بإشعال نيران التطرف المتبادل، كسبت الأغلبية إلى صفى أما الأقلية فقد هددتها بمنعها بالقوة من ارتكاب هذه الحماقة، وماتت الفتنة فى مهدها.

فخرى لبيب «فى حوارى معه»

الجد عامل خراطة فى السكة الحديد شقى كثيرا كى يعلم أولاده فأصبح أحدهم معاون تلغراف وآخر معاون محطة إلخ، أبوه أصبح معاون محطة أفنى حياته كى يعلم أولاده «عايزكم تبقوا أحسن منى» هكذا كان يكرر ونجح، فقد أصبح من الأولاد ضابط وطبيب ومحاسب وجيولوجى، فخرى هو الجيولوجى ترتيبه الثانى بين سبعة إخوة، تنقلت الأسرة مع الأب من بلدة لأخرى، وهكذا عاش فخرى متنقلا بين طما، أبوقرقاص، جرجا، الفيوم، أسوان وبلاد عديدة أخرى، تعلم كالمعتاد فى المدرسة الإلزامية وكالمعتاد حفظ القرآن مع التلاميذ دون أن يستشعر أى حساسية، يقول فخرى «كانت الوحدة الوطنية على أيامنا راسخة فى وجدان كل مصرى وكان المدرسون يلقوننا أن الدين لله والوطن للجميع»، والمدارس كانت زمان تمتلك مكتبات، قرأ فخرى فيها المقتطف والرسالة وكتب المنفلوطى. والمدرسون أيامها كانوا مدرسين حقا، مدرس التاريخ حكى لهم بحماس شديد أحداث الثورة الفرنسية «ومن فرط حماسه اسميناه ميرابو»، ومدرس اللغة العربية كان يستعيد معهم ذكريات ثورة ١٩١٩ ويقول فخرى «وكان أبى يستعيد هذه الذكريات معنا ويستعيد بحزن شديد ذكرى خالى الذى شنقه الإنجليز خلال أحداث الثورة، وحتى مفتش التاريخ جاء يوما إلى الفصل ودعانا أن يكون من بيننا أحمد عرابى آخر أو مصطفى كامل آخر»

ويقول «أدمنت القراءة وفى الفيوم حيث نقل أبى التقيت بصديق العمر عبدالله كامل وقمنا معا بتكوين جمعية القراءة كل عضو يدفع خمسة مليمات ونشترى رواية أو اثنتين ونتبادل قراءتها، أما مدرس الإنجليزية فقد كان إنجليزيا مترفعا ومتأففا على الدوام ولكى نغيظه كنا نستخدم الكلمة التى كان يرتجف كلما سمعها وهى «الاشتراكية» وكان يرد علينا الاشتراكية تعنى أن تأكل فى طبق واحد مع خادمك، ونرد عليه نحن فقراء وليس لدينا خدم، أما عالمى الآخر فهو المحطة، ألبس الجلابية وأذهب إلى أبى لأتفرج على عالم جديد ومتجدد ويأتى القطار بأهم شىء.. الصحف»، ثم نقل أبى إلى المحاميد «أسوان» حملت أوراقى إلى ناظر المدرسة الثانوية، الناظر رفض، ولا حيلة لى، وقفت بباب المدرسة من الصباح حتى انتهاء اليوم الدراسى والناظر يتابعنى وفى اليوم الرابع قبلنى مؤكدا أنه رفضنى لأننى محول من مدرسة أهلية ويخشى أن أسقط فى امتحان «الثقافة» فتسوء نتيجة المدرسة «ولكن مادمت متحمسا للتعليم فلابد أنك ولد شاطر، وفى أسوان التقيت مجموعة كانت تتحدث بشكل بدائى جدا عن الاشتراكية وانضممت إليهم وعلقت على جدار غرفتى صورة ستالين، وفى الجامعة كان منظر جنود الاحتلال فى شوارع شبرا يثير أعصابى وقررت أن أكون مجموعة لقتلهم وفاتحت أحد أصدقائى فى الكلية ودون ن يقول شيئا دعانى إلى اجتماع، وذهبت وجلست دون أن أدرى أين أنا، ولكننى سمعت كلاما جديدا تماما الماركسية، لينين، المادية الجدلية ولم أستوعب شيئا، فقط انتظرت أن يحددوا موعدا لنبدأ فى قتل الإنجليز، وانتقلت إلى خلية أخرى وشرح لى المسئول أنه ليست القضية أن نقتل إنجليزيا وإنما أن نحرك الشعب لنطرد الاحتلال، وأصبحت عضوا فى منظمة ايسكرا» وخاض فخرى نضالا متعدد الجوانب شارك فى تأسيس النادى المصرى - السودانى، وزع مجلة الجماهير، شارك فى لجان مكافحة الكوليرا وتوحدت ايسكرا مع ح. م، وفوجئ مع كل الأعضاء العاديين أنه أصبح عضوا فى منظمة جديدة هى «حدتو»، وبعد فترة حدث أول انقسام فى حدتو قاده شهدى عطية وأنور عبدالملك وسمع عن تكتل سيف وسليمان «سيف هو أنور عبدالملك وسليمان هو شهدى» ووجد نفسه مع كل رفاق قسم شبرا فى التكتل، لكن التكتل انفرط بالقبض على شهدى وتناثرت منظمات صغيرة ووجد نفسه مع مجموعة صغيرة معزولين عن الجميع، كان أحدنا عنده مخزن للكتب الماركسية والأجهزة الفنية. كان شعار «التعميل» يحلق فوق رؤوس الجميع، فكان يعود من

الجامعة ليلبس ملابس عمالية ويجلس على مقاهى شبرا الخيمة باسم «الأسطى مختار» وفى مقاهى امبابة باسم الأسطى عفيفى، «وبعد قليل تعلمت من التجربة أن دردشات المقاهى لا تحقق فعلا ثوريا»، انضموا إلى «العصبة الماركسية» لكن الماكر فوزى جرجس ضمهم وأخذ منهم مخزن الكتب الماركسية وآلة كاتبة ورونيو ثم استبعدهم. فخرى واصل وبإصرار، والحقيقة أننى لا أدرى من أين كان هذا الجيل يستدعى كل هذا الإصرار. وكون مع عبدالله كامل ومنصور زكى والشهيد محمد عثمان تنظيما سموه طليعة الشيوعيين، الأسطى منصور زكى قام وبقروش قليلة بتصنيع مطبعة يطبع عليها نشرات أنيقة، وأصدروا نشرة «الصراع» ونشرة داخلية «الطليعة»، ترجموا بعض كتب الرفيق ماوتسى تونج وطبعها منصور، وتأتى ضربة أمنية فيقبض على القيادة عدا هو، وفى هذه الأيام حقق حلم أبيه وتخرج فى كلية العلوم قسم جيولوجيا لكن طموحه تحطم فالمتاح الوحيد مدرس أحياء وصحة فى مدرسة جريس الابتدائية الحرة فى كفر الزيات، ويقول «التلاميذ الفقراء علمونى معنى الفقر الحقيقى كانوا يمشون طوال المشوار من قراهم إلى المدرسة حفاة وعلى أبواب المدرسة يلبسون الحذاء حفاظا عليه، وقلت لنفسى بدلا من أن أكتشف الخامات الطبيعية كجيولوجى سأحاول اكتشاف حقائق المجتمع كشيوعى، وفى غمار ذلك كله كنت أسعى بجهد شديد فى بناء المنظمة من جديد ونجحت فى ضم عناصر عمالية ومثقفة وفيما تنهض المنظمة قبض علىّ فى مايو ١٩٥٤ وحكم على بالسجن ثلاث سنوات.

وفى السجن شارك فخرى بجهد رائع فى توحيد خمس منظمات «حدتو – التيار الثورى – طليعة الشيوعيين – النواة – النجم الأحمر» وتكون الحزب الشيوعى الموحد وأصبح فخرى عضوا فى لجنته المركزية، وفى السجن تألقت قدرته الفنية أو بالدقة استعادها وكتب رواية «مذكرات مدرس»، وفى ١٩٥٧ يفرج عنه ويصبح محترفا ثوريا، وواصل معركة توحيد الشيوعيين ويقول «كنت أعتبرها معركة حياة أو موت».

ويفلت فخرى من حملة القبض الكاسحة فى ليلة أول يناير ١٩٥٩ ويتفرغ لإعادة بناء الحزب ويحقق نجاحات كبيرة، ثم يقبض عليه، وفى السجن تتبدى معادن الرجال، فتحت وطأة التعذيب الوحشى كان فخرى صامدا وشجاعا وقدوة، ويكتب فخرى «افتتح اوردى أبوزعبل كسجن للشيوعيين يوم ٧ نوفمبر ذكرى الثورة البلشفية وكأن عبدالناصر كان يريد

أن يعلن تحديه لنا» من كتابه (الشيوعيون وعبدالناصر) ويصمد فخرى ويصمد معه الرفاق، ثم يأتى قرار حل الحزب فى ١٩٦٤، وبعد فترة عين جيولوجيا وشعر بالحرج. الرجل الذى ملأ الشيب شعره يذهب مع بعثة جيولوجية إلى أسوان تحت رئاسة شاب صغير السن، وقرر أن يخوض التحدى، بأن يثبت جدارته، وأثبتها مسح الوادى من أسوان وحتى حلوان ويقول «وأصبحت دون أن أدرى أهم خبير مصرى فى الصخور الرسوبية» وتوالت اكتشافاته وجهوده العلمية وحصل على الماجستير ثم الدكتوراة التى حصل عليها وهو يوشك على الإحالة إلى المعاش، لكنه نجح فى أن يصبح واحدا من أشهر الجيولوجيين المصريين وأسس المركز الجيولوجى فى الفيوم، وسأله أحد زملائه أنت ترهق نفسك فما الذى يعود عليك من ذلك وفيما يستعد فخرى للإجابة رد مسئول أمنى كان حاضرا للنقاش قائلا «لأنه يريد أن يقول الناس أن الذى أسس هذا المركز فخرى لبيب الشيوعى»، ويحين وقت التقاعد لكن فخرى ليس من النوع الذى يتقاعد فانغمس فى العمل فى منظمة التضامن الأفريقى - الآسيوى ليصبح واحدا من أشهر الخبراء فى هذه الساحة، ونعود إلى نضاله السياسى فقد انضم إلى منبر اليسار منذ الوهلة الأولى ليصبح واحدا من قادته حتى أصبح عضوا بالمكتب السياسى، وظل يواصل الكتابة السياسية والترجمة (ولعل أجمل ما ترجمه رواية عريان بين الذئاب التى تحكى قصة م عكسدات النازى) وكتابة القصة وإعداد الأبحاث العلمية، وفوق هذا وذاك أسس فى مقر الحزب بالزيتون «ورشة الزيتون الأدبية» التى تحولت إلى منارة فكرية وثقافية يزهو بها اليسار، ويواصل فخرى، يواصل ولم يزل، يناضل بكل ما تبقى من جهد ليحقق حلمه القديم عندما عاند ناظر أسوان الثانوية ووقف أمام باب المدرسة مطالبا بحقه فى التعليم، وها هو الآن يصبح ولم يزل معلما لجيل كامل من الثوريين.

يا عزيزى فخرى.. سلاما وتحية، ودمت لمصر وللتجمع.

بهيج نصار(١)

بعد أن أصدرت كتابى الأول «الأساس الاجتماعى للثورة العرابية» والذى لاقى اهتماما لا بأس به. زارنى فى منزلى بهيج نصار، ومعه كتاب بالانجليزية لوالتر لاكور «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط »ودخل مباشرة فى الموضوع، وقال أمراً يجب تكتب تاريخ الحركة الشيوعية بدلا من أن تترك ذلك لهؤلاء المزورين وأشار إلى الكتاب الذى معه. وببساطه قبلت هذه المهمة وحاولت على مدى أكثر من عشرين عاما كنت طوالها وحتى الآن ممتنا لاختياره لى.

أتى بهيج من أسرة محافظة من أسر القاهرة العريقة، الأب تاجر والسكن فى قلب القاهرة القديمة. الدراسة الابتدائية فى مدرسة النحاسين والثانوية فى الخديوية . قدماه عرفت لآلاف المرات الحوارى الجميلة للحسين والنحاسين والدراسة والباطنية. وفى بداية دراسته الثانوية شارك فى مظاهرة ضد تصريح وزير خارجية بريطانيا الذى قال فيه «إن الوقت لم يزل مبكرا لكى تحصل مصر على استقلال كامل» هتف مع الجميع «يسقط هور ابن الطور» شىء بارد لمس رأسه التفت ليجد ضابطا بريطانيا يقتاده بمسدسه إلى منحنى تلقى فيه ضربات عنيفة من شوم الجنود.

يقول بهيج فى حواره معى «من هذه اللحظة عرفت أن المسألة ليست سهلة، بقيت وفدى الهوى، وطنى الميول ولكن بلا طريق محدد».

ويروى فى حواره كنت أحلق عند حلاق ينزوى محله الصغير فى ركن حارة متفرعة من شارع جوهر القائد. الرجل لا يتوقف عن الكلام مع الزبائن وهو لا يغير موضوع حديثه. كان دوما يتحدث عن المسكوف (نسبه إلى موسكو) الذين حولوا بلدهم بعد الثورة البلشفية إلى جنة للفقراء ويروى أساطيرا عن الاتحاد السوفيتى حيث لا فقر ولا ظلم، وفى مرات لاحقة تطور الحديث الذى يصاحب ضربات المقص فى شعره إلي انتصارات السوفييت فى

ستالينجراد ولييننجراد..واختزن بهيج ذلك كله ليدخل كلية الاداب قسم فلسفة وهو ممسك بالخيط الذى تلقفه من هذا الحلاق البسيط.

وفى ردهات كلية الاداب سمع لأول مرة عن الماركسية. ومع زملاء منهم مصطفى سويف ومحمد جعفر تردد على منزل أنور كامل فى شارع قصر العينى ليستمع إلى محاضرات عن الماركسية فهم الآن فى تنظيم اسمه «الخبز والحرية». وربما كان زميله أكثر صلة بأنوركامل، وربما كان على علاقة خفية مع معيد بقسم انجليزى هولويس عوض، أما هو فقد بقى على الحافة، لا هو إقتحم ولا خرج، كان لم يزل يحتاج إلى مزيد من الاستماع ليقرر. لكنه وبرغم كونه طالبا فى قسم فلسفة شعر بالفارق الهائل بين محاضرات مليئة بالغموض المتعالى على فهم البسطاء وبين ما يقوله أمثال حلاق حارته. وظل يتساءل كيف يفهم الحلاق وأمثاله هذه المحاضرات المعقدة عن عبقرية التناقض، وقوانين الجدل وفائض القيمة؟ وفيما هو لم يزل يبحث عن إجابة قبض البوليس على أنور كامل ومحمد جعفر وتوقفت المحاولة. ثم انتحى نحو لويس عوض فى جمعية الجرامفون ومحاورات هى أقرب إلى الفلسفة منها إلى السياسة. وفجأة بدأ طيف موج جديد يلوح فى الجامعة شبان أكثر بساطة وأكثر فعالية وأكثر انفتاحا على الجماهير من ابناء منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) كمال عبدالحليم ، جمال غالى، لطيفة الزيات» وما أن يضع قدمه حتى تفجرت حدتو إلى عدة انقسامات، وتداول الأمر مع عدد من زملائه (محمود العالم- عباس أحمد- أمين عز الدين) واتفقوا على المرور على جميع هذه الانقسامات لاختيار التنظيم الأفضل وقبل أن تكتمل دورة الاستماع تخرج فى الجامعة. أبوه صمم أن يحصل على وظيفة ثابتة ومعاش مضمون فعمل مدرسا فى مغاغة الثانوية لمدة سنتين ثم عاد للقاهرة ليعمل معدا لنشرة الأخبار والبرامج الاخبارية فى الاذاعة، وفور عودته التقى بمحمود العالم الذى ضمه إلى تنظيم صغير جدا هو نواة الحزب الشيوعى المصرى. كل الحماس المختزن فى وجدانه تفجر دفعة واحدة، وشوقه القديم لفعل شىء من أجل الفقراء اندفع فى نشاط متحمس لكنه يصف هذه الفترة «رغم حماسى الشديد كان التنظيم صغيرا جدا فأصبحت كمن يحاول الجرى فى غرفة ضيقة».

وكان فوزى جرجس يحاول أن يطبق حرفا بحرف تجربة لينين فى محاولة توحيد الشيوعيين عبر مجلة تنشر كل الآراء. فأصدر نشرة صغيرة جدا ، ورديئة الطباعة جدا

وقليلة التأثير جدا لتدير حوار من أجل الوحدة، وخلال هذه المحاولة قبض على قيادة التنظيم، ولأن زعيم التنظيم فوزى جرجس كان يمارس كل شيء عبر ما كان عند البلاشفة، حيث كان لينين يقول إن من يسجن من القاده يحل محله من هو فى خارج السجن بالضرورة، وبالضرورة أصبح محمود العالم وبهيج نصار مسئولين رغم أنفهما، العالم مسئولا سياسيا وهو مسئول تنظيمى، ويتسع العمل باتساع أفق القيادة لكنه لا يلبث أن يقبض عليه عام ١٩٥٣. وفى السجن التقى بالقيادة القديمة، وكان الخلاف ملتهبا بين فوزى جرجس وابراهيم عرفه ، وبما انه المسئول القادم لتوه من خارج السجن فهو بالمنطق الشكلى المسئول عنهما، ورغم أنفه مرة أخرى أصبح مسئولا عن اثنين من عتاة الشيوعيين يحاربان بعضهما البعض بضراوة. ويفرج عنه بعد شهرين (ضبطت عنده أوراق مخطوطه وقال الطب الشرعى انها ليست بخطه). خرج وهو يلتهب حماسا ضد الديكتاتورية العسكرية، وبعد اربعة اشهر فقط يقبض عليه من جديد. وفى خارج السجن كان محمود العالم وشهدى عطية يستعيدان زمالتهما القديمة ويعملان بجدية من اجل توحيد الشيوعيين وتتوحد خمس منظمات (حدتو- حدتو ت ث - النجم الأحمر- النواة- طليعة الشيوعيين) ويتأسس الحزب الشيوعى المصرى الموحد. ويأتى بالنبأ إلى السجن وافد جديد هو أنور عبد الملك. ويتوحد رفاق المنظمات داخل السجن ورغم ان حدتو كانت الأغلبية لكنها رشحت لتولى المسئولية بهيج نصار فيخوض من جديد معركة التوازن بين من لايمكن التوازن بينهم، تتوحد الكلمات لكن الارادات الفعلية تتعارض، ويفرج عنه ليجد ان قرارا قد صدر بفصله من الأذاعة وهو فى السجن ويعمل صحفيا فى المساء منذ أن أسسها خالد محيى الدين، ويتوحد الشيوعيون جميعا فى حزب واحد، ويكون بهيج عضوا فى لجنته المركزية لكن كارثة الانقسام تقع وتأتى معها حملة قبض طاغية حيث قبض على مئات الرفاق فى ليلة عيد الميلاد «١ يناير ١٩٥٩» وفى السجن الممتد هذه المرة يرتبط اسم بهيج بتقرير لعب دورا بالغ الأهمية فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية هو تقرير «المجموعة الاشتراكية» ونواصل مع بهيج رحلة نضاله.

بهيج نصار (٢)

لم أشعر بالخوف ولكن غمرتنى دهشة بالغة
بهيج نصار «فى تعليق على حادثة اختطاف قتلة يوسف السباعى له مع آخرين»

وكانت ثمة أفكار تختمر داخل الحزب تنظر ربما بإعجاب وربما بدهشة لما يفعله عبدالناصر فى مجال الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية ويعتبرها البعض من الرفاق إجراءات ثورية، وربما تمادى البعض فقال إنها اشتراكية، ومن هؤلاء كان عادل حسين وبهيج نصار ونسمتع إلى بهيج «قبيل حملة القبض (أول يناير ١٩٥٩) أتى عادل حسين ومعه مجموعة من الكراسات مغلفة بغلاف أخضر ولهذا اشتهرت خلال مداولات المحكمة باسم الكراسات الخضراء، وفى هذه الكراسات قال عادل إن ثمةتطورات اقتصادية واجتماعية مهمة، وإن لم تكن اشتراكية بالمعنى العلمى إلا أنها ثورية وتقدمية. واتخذها المحامون سندا للقول بأن المتهمين يؤيدون عبدالناصر، وأثناء وجودنا بالسجن أصدر عبدالناصر قرارا بتأميم شركة أبورجيلة للأوتوبيس، ولأنى كنت مسئولا عن منطقة الجيزة فى الحزب وتقع الأنشطة العمالية ضمن مسئوليتنا فقد أدركت القيمة الحقيقية لهذه الخطوة، ثم كان تأميم البنك الأهلى وبنك مصر ثم تأميم الصحافة، وتكونت داخلى قناعات بضرورة تفهم ما يجرى وإن كان قضاة المحكمة العسكرية لم يتفهموا هذه المواقف وعاقبونا بعقوبات قاسية»، ومع ذلك طرح الموضوع للنقاش فى السجن، وكلف بهيج بمسئولية إنجاز الحوار.. لكن زنانين سجن القناطر كانت مغلقة دوما باستثناء دقائق قليلة، وأعد ورقة، كتبت على ورق البافرة، كل زنزانة تناقش وتكلف عضوا منها بنقل رأيها فى كلمة أو كلمات خلال الطابور الذى يسير فيه الزملاء أربعات ويجرى ترتيب الأربعات لتبادل الآراء.

وأعد بهيج تقريرا بالنتائج فى ورقة، دخلت التاريخ تحت اسم «المجموعة الاشتراكية» كتب بهيج محاذرا، كتب بشوك السجن على شوك الوضع الشائك، فإذا كانت المجموعة اشتراكية أو ثورية أو تقدمية فلماذا نحن فى السجن؟ قال فى الورقة «لديهم أفكار اشتراكية لكنها اشتراكية ليست كاشتراكيتنا إنها إجراءات مهمة تقترب بهم من الطريق الصحيح لكنها ليست كاملة، إنها مجموعة تتبنى أفكارا وتمارس إجراءات اشتراكية وإن كانت ليست اشتراكية بالمعنى المفهوم»، وقامت الدنيا ولم تقعد، فالبعض أمسك بهذا الخيط الذى نسجه بهيج، والبعض إتهمه فيما بعد أنه وضع الأساس لحل الحزب، لكنه يكتفى دوما بأن يطرح الأفكار بصراحة وصرامة وقدرة على الابتكار ولك أنت أن تختار. غير أن البعض كثيرا ما يغلق عقله أمام أى جديد ويلوك بدلا منها اتهامات مبتذلة لعلها تجبر البعض الذى يفكر فى إغلاق عقله هو الآخر، ولم يزل بهيج وحتى اليوم يقدم لراغبى المعرفة وإعمال العقل أفكارا جديدة لعلها توقظ العقول المعطلة عن الفعل.

وعندما يفرج عنه مع الجميع عمل فى جريدة الجمهورية، وفى هذه الأثناء كان مشغولا بضرورة كتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية وكان صاحب الفضل فى تكليفى بالقيام بهذا المشروع المهيب الذى استغرق منى أكثر من ٢٥ عاما.

ويسافر بهيج إلى ألمانيا الشرقية مراسلا لوكالة أنباء الشرق الأوسط ثم يعود بعد فترة ليلعب دورا نشيطا وفاعلا فى المجلس القومى للسلام، وعندما عدت أنا من هلسنكى حيث عملت لفترة فى السكرتارية الدولية للمجلس العالمى للسلام، حل بهيج محلى ليبقى هناك زمنا طويلا، وهو زمن لم يضع هباء فهناك كان بهيج القلعة الأساسية لتعبئة الرأى العام العالمى وقوى السلام فى كل أنحاء العالم للدفاع عن الحق العربى وضد الحركة الصهيونية والعدوان الإسرائيلى وبهذا النضال استطاع أن يكون نائبا لرئيس لجنة التنسيق لدولية للقضية الفلسطينية بالتعاون مع الأمم المتحدة، وفى هذه الفترة ركز اهتمامه أيضا على دراسة مخاطر السلاح النووى الإسرائيلى على الأمن والسلام فى المنطقة، كما أصبح واحدا من أهم خبراء النشاط من أجل السلام ونزع السلاح النووى فى العالم، وبعدها يعود بهيج إلينا محملا بكل هذه الخبرات ويدهش إذ يجد أن البعض لم يزل منجذبا نحو السائد والمألوف وغير قادر على أن يفهم أهمية تعبئة الرأى العام العالمى لصالح القضايا المعاصرة، ولا السلام العالمى، ولا نزع السلاح النووى من منطقة الشرق الأوسط. ويعود

بهيج إلى محنة الكتابة والإلحاح فى الكتابة حول ما لا يهتم به هؤلاء الذين لا ينظرون إلا إلى ما تحت أقدامهم، ويتفجر بهيج إلحاحا على ضرورة التعامل مع العالم الجديد والذى يموج بثورة تكنولوجية تفرض عليه أن يكون قرية واحدة تتبادل التأثير.

.. لكننا ننسى حادثا بالغ الأهمية فى حياة بهيج، كان فى قبرص ليحضر ممثلا لمجلس السلام العالمى فى اجتماع لمنظمة التضامن الأسيوى - الأفريقى، ويطلق البعض الرصاص على يوسف السباعى ليسقط صريعا، ثم يختطفون عديدا من الحاضرين إلى طائرة لا تعرف إلى أين ستهبط ويكون بهيج ضمن المختطفين، أحد المختطفين سدد مسدسه إلى رأس بهيج، فتذكر كيف فعلها معه ضابط إنجليزى خلال المظاهرات الصاخبة عام ١٩٤٦ فانفجر غاضبا فى وجه الفتى الذى اختطفه، الفتى ورغم المسدس شعر بالفزع وربما شعر بالخطأ وبدأ فى حوار مع بهيج، الطائرة تسكعت. ليبيا هددت بإسقاطها إذا حاولت الهبوط وتسكعت الطائرة من مطار إلى مطار حتى هبطت فى جيبوتى لتتزود بالوقود ثم إلى قبرص مرة أخرى لينهمر عليهم رصاص كثيف وإذا بالفتى يحمى بهيج من الرصاص وعرف بهيج فيما أنها العملية الفاشلة التى خطط لها السادات لتحرير الرهائن فسقط قتلى كثيرون من الرهائن وفشل الهجوم غير العاقل.

ويعود بهيج إلى حزبه بعد فترة، ويعود إلى إلحاحه بضرورة التخلى عن الصيغ القديمة التى يمنع الانتماء إليها وترديدها بغير تعقل أى إعمال للعقل، يعود ليلح وليكتب محرضا على إعمال العقل.. دون ملل.. بهذا يستحق كل الاحترام وما هو أكثر من الاحترام.

مهدى الحسينى

كنا نقول إن الاتحاد السوفيتى قد انحرف تماماً عن قضية الاشتراكية، فى ظل قيادة خروتشوف. ونرفض أى تأييد لعبد الناصر.

مهدى الحسينى [فى حوار معه]

لست بحاجة إلى أن ابدأ معه من البداية . فالبداية تعرفونها الأب والأسرة وكل هذا معلوم فمهدى هو واحد من كتيبة آل الحسينى : عظيمة ، عادل ، مصطفى مهدى ، هانى . ولهذا قررت أن أختصر المسافة وأبدأ من حيث يريد القارئ أن يعرف ، وها أنا أعيد نشر محضر حوار أجريته معه فى ١٦ أكتوبر ١٩٨٥ .

* * *

س : هل لك أن تروى بعض خبراتك خلال نشاطك الشيوعى فى منظمة طليعة الشعب الديمقراطية ووحدتها مع منظمة وحدة الشيوعيين (و . ش) ؟

جـ : سأبدأ أولاً برؤيتى لمنظمة وحدة الشيوعيين .. وقائدها ومؤسسها إبراهيم فتحى ولكى تعرف حقيقة هذه المنظمة وهذا الرجل يكفى أن أروى لك واقعة قد تبدو طريفة لكنها كافية الدلالة .. فقد كانت وحدة الشيوعيين (و . ش) تصدر نشرة داخلية تنشر مقالات تمثل حواراً عنيفاً بين شخصين كامل وراشد . وفى حديث شخصى لاحق مع إبراهيم فتحى قال لى إن راشد هو نفس كامل وأن أصل المسألة يبدأ من أنه منذ تمرده على قيادة حدتو وتأسيسه منظمة وحدة الشيوعيين وهو طالب صغير السن وكانت المجموعة المحيطة به من مثل مرحلته السنية وكانت بحاجة إلى رمز تقليدى يواجه قيادة حدتو فأخترع لهم قصة وجود قائد شيوعى من الحركة القديمة وله خبرات كبيرة وأنه فى قيادة (و . ش) . وأختار له اسماً وكتب باسمه مقالات ودخل معه فى حوار .. واستمر متورطاً فى هذه الكذبة لفترة .

أما تنظيم وحدة الشيوعيين فاسمه دليل كاف على هويته فهو لا يتوجه إلى الجماهير ليقود نضالها ، وإنما يتوجه إلى الشيوعيين ليوحدهم وهذا فى أحسن الافتراضات .

وشخص آخر التقى به إبراهيم فتحى هو إبراهيم عامر وتلاقيا فى شئ أساسى هو حالة التباهى المبالغ فيها بالمعرفة والثقافة المجردة فاقتنصه ليقدمه على أنه راشد .

أما المجموعة الأخرى فقد كانت تنظيما جنينيا ولم تكن منظمة شيوعية بالمعنى المفهوم، وإنما كانت مجموعة من الكادر يجمعهم معاً الخلاف مع حدتو والخلاف مع الآخرين حول طبيعة الحكم فى مصر .

وكان القائد والمفكر لهذه الجماعة فوزى جرجس ، وكان فوزى جرجس قائداً لتنظيم نواة الحزب الشيوعى المصرى ، رفض وحدة الموحد مختلفاً حول أسباب قيامها والأسس التى تمت عليها وكيفية تمثيل النواة فى قيادة الموحد .

فقد تجاهلت النواة تمثيل القائد والمؤسس (فوزى جرجس) وقدمت إلى ل . م لموحدة ثلاثة غيره (محمود العالم - بهيج نصار - حسين غنيم) . وكان فوزى جرجس يرى أن الوحدة تمت بشكل علوى كاتفاق شكلى بين القادة وتواطؤ بين القيادات . وكان يتشكك فى عملية الوحدة وأنها محاولة لعملية تجميع أكبر عدد من الشيوعيين لتأييد عبد الناصر بلا قيد ولا شرط ، وأن الوحدة يجب أن يسبقها تحليل عميق للواقع المصرى سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .

وبعد الخروج من المعتقل إلتقت هذه المجموعة بقيادة فوزى جرجس مع مجموعة من غير الراضين عن التحول السياسى داخل الحركة الشيوعية عامة لصالح المؤسسة العسكرية الحاكمة ، والتأييد المطلق لعبد الناصر وتمجيد الحكم الفردى ، وكونتا تنظيماً جنينياً وتطلب الأمر وقتاً كافياً لوضع خط سياسى وتنظيمى واضح .

ولكن بدأت منظمة وحدة الشيوعيين فى الاتصال بهذه المجموعة وضغطت بشدة من أجل وحدة كل القوى المناوئة لخط حدتو ، بحجة تأسيس تنظيم ثورى حقيقى .

الكوادر الأساسية التى كانت ملتفة حول فوزى جرجس وهى تحديداً : (محمود المناسترلى - حمدى حمدان - حسنى تمام - فوزى محمد على - نجيب سرى - شعبان حافظ - محمود عزمى - مهدى الحسينى - محمود ماجد - نجاتى عزب - محسن الخياط - رمسيس لبيب) .

والعدد ليس كبيراً لكن فيهم نوعيات جيدة .

وضغط بعض هؤلاء وخاصة محمود المناسترلى وحمدى حمدان وحسنى تمام من أجل الوحدة مع و.ش واتفق فوزى جرجس متنازلاً عن موقفه الثابت بضرورة التمسك بشروطه المثالية لأية وحدة ، وجلس الطرفان وكشف فوزى جرجس كل أوراقه وقدم أسماء أعضائه وتم الاتفاق مع إبراهيم فتحى (و . ش) على كل شىء. حتى على اسم التنظيم وكان طليعة الشعب الديمقراطية وفى اللحظة التى تصور فيها الجميع أن اتفاقاً كاملاً ونهائياً قد تم ، هرب العريس فى ليلة الفرح هكذا فعل إبراهيم فتحى بالضبط ، ففجأة وبدون سابق إنذار وفى ذات اليوم المقرر لإعلان الوحدة وتأسيس طليعة الشعب الديمقراطية كانت أسماء ومواقع كل أعضاء مجموعتنا تعلن على المقاهى، فى حين أن فوزى جرجس كان حريصاً على أن يقوم بتكوين جماعة كاملة السرية وحتى عندما كان فى المعتقل لم يعلن أنه كون جماعة وإنما اكتفى بإبداء معارضته لوحدة الموحد .. وتورط فوزى جرجس فى اسم طليعة الشعب الديمقراطية وظل يعمل تحت هذا الاسم .

وهكذا هزمت المعارضة اليسارية لحدتو ، وهزمت عملية معارضه الارتماء فى تأييد عبد الناصر ، وتعطل التنظيم وأصيب كل شىء بالارتباك وكشفت كل الأوراق وعاجلتنا حملة يناير ١٩٥٩ .

وقبض على الغالبية ، وبقى خارج السجن عدد محدود . كان قليل العدد وإن كان شديد الإخلاص والحماس، وما لبثوا أن تساقطوا واحداً بعد الآخر وكان آخرهم رمسيس لبيب.

س : وماذا عن تجربتكم فى السجن ؟

جـ : عدم استكمال الخط السياسى والتنظيمى وعدم تحقيق حضور جماهيرى كاف أدى إلى عزلتنا عن الجماهير ، كما أدى إلى عزلتنا عن كادر الحركة الشيوعية ، كذلك كنا فى السجن معزولين عن مجمل الكادر.. وكانت أفكارنا تميل إلى الفكر الصينى مع بعض التحفظات ، وكنا نرى أن التأميمات ليست من الاشتراكية فى شىء وأنها شكل من أشكال سيطرة المؤسسة العسكرية على مقدرات البلاد ، وتصفية لنواة الاقتصاد الوطنى ، ونرى أن فى تأميم الصحافة محاولة لفرض وجهة نظر السلطة من خلال كوادرها الإعلامية المدربة على جماهير الشعب والسيطرة على عقولها وغسل مخ الشعب لصالح المؤسسة العسكرية .

وكنا نرى فى الاتحاد الاشتراكى مجرد امتداد لهيئة التحرير وجهاز لتصفية الديمقراطية ومحاولة إضفاء مشروعية للأجهزة البوليسية وعملائها فى صيغة تنظيم يدعى الاشتراكية .

وكنا نقول إن الاتحاد السوفييتى فى ظل قيادة خروتشوف قد انحرف تماماً عن قضية الاشتراكية ، وكنا نرفض كل الأطروحات السوفييتية وخاصة أطروحات سيميرنوف وبونيماريوف .

وكنا بطبيعة الحال نتناقض بشكل شبه كامل مع ما كنا نسميه طابور الحركة الشيوعية الرسمية (حدتو ـ الراية ـ ع . ف) وأدى هذا طبعاً إلى المزيد من عزلتنا عن الشيوعيين الآخرين فى السجن .

س : وماذا عن مسألة حل التنظيم ؟

جـ : إذا كانت المنظمات الأخرى قد حلت نفسها فإن منظمتنا قد تحللت . فور الخروج من السجن تباعدت العلاقات وكنا نكتفى باللقاء الشخصى الودى ونتساءل ماذا سنفعل؟ وكانت أوضاعنا الشخصية منهارة لا سكن ولا وظائف ولا دخل ولا علاقة فعلية بالواقع المصرى ولا احترام اجتماعى، ولا إمكانيات لعقد صلات فعلية مع الواقع .

وكان الوضع الجبار الذى أشاعه عبد الناصر يخيف الجميع وما لبث فوزى جرجس ومحمود عزمى أن اعتقلا بعد فترة وجيزة (فى عام ١٩٦٥) ولم يفرج عنهما إلا فى يونيو ١٩٦٧ وكان اعتقالا وقائياً يستهدف إخافة الجميع من مجرد التفكير فى بناء تنظيم .

هذا إلى جانب أن مناخ الحل كان مسيطراً على الوجود السياسى الشيوعى فى مصر ، وفقدت الكوادر الثقة فى بعضها البعض .

س : ما تقييمك لشخص فوزى جرجس ؟

جـ : فوزى جرجس فترة السجن الأخيرة أجهزت عليه والحقيقة أنه قد بذل جهداً كبيراً على مدى سنوات عديدة لكنه أحبط فى السنوات الأخيرة .

ويمكن القول أنه لم يكن يصل إلى المدى النهائى فى أفكاره ، كان لا يستكمل أفكاره ولا يكملها ، صفته الأساسية هى روحه الانتقادية لأفكار الآخرين ، لكن ذلك لا ينفى نزعته الإبداعية التى لا تكتمل أبداً ولا تصل إلى مداها ..

ويمكن القول إنه تتلمذ على صبحى وحيده ود. عبد الفتاح القاضى .

كما يمكن القول أنه رجل مخلص ، مثقف انتقادى ، ولكنه بلا نسق فكرى متكامل ولا نسق تنظيمى مؤهل للتوجه للجماهير.

أحمد على خضر

قاومت البطالة بأسلوب مبتكر، كنت أجمع عشرة عمال أو أكثر ندخل أحد المطاعم نأكل حتى نشبع ثم نعلن: لا نقود معنا، نحن متعطلون، ومن المطعم إلى قسم البوليس نهتف ويتجمع الناس حولنا فى مظاهرة ممتعة.
«أحمد خضر فى حواره معى»

عامل ابن عامل وجده عامل، أبوه تخرج فى الثانوية الصناعية ببولاق والتحق بعنابر السكة الحديد حيث كان الجد يعمل هو أيضا.

الأب وطنى متحمس، كان عضوا فى صفوف الحزب الوطنى، ثم خاض غمار ثورة ١٩١٩ وفديا، وشارك فى قيادة عمال العنابر إبان الثورة وبعد عودة سعد من المنفى عاد بعض العمال إلى العمل ورفض البعض، استمروا مضربين مطالبين بمطالب تخصهم كعمال (أجور أزيد - ساعات عمل أقل - رعاية طبية.. إلخ) وصمم على أفندى على قيادة المضربين فى العنابر وفصل من عمله فكيف يطعم الأولاد؟ أخذهم وسافر إلى السودان ليعمل فى عنابر السكة الحديد هناك، ويجد عملا مريحا، لكن الثورة تلاحقه فى السودان فيشارك هناك فى ثورة ١٩٢٤ فيفصل، ليعود بأولاده إلى مصر، ويجد عملا فى التفتيش الملكى بأنشاص، لكنه يحرض الفلاحين على المطالبة بحقوقهم فيفصل، ولا يجد عملا، سوى أن يعمل باليومية فى أى مكان، يوما يعمل وعشرة لا يعمل، ثم يجد عملا لائقا كرئيس لورش الصيانة بشركة غزل المحلة، وذات يوم وزع الشيوعيون هناك منشورا عام ١٩٤٨ قالوا فيه إن المناضل الشيوعى أحمد خضر قد أطلق عليه الرصاص ومات فى المعتقل، الأب أصيب بجلطة فى المخ أعجزته عن الحركة ومات، وكان الخبر كاذبا.

ونعود إلى الفتى أحمد، تخرج فى المعهد العلمى الصناعى قسم نسيج عام ١٩٣٧، تنقل هو أيضا بين مصنع وآخر وفى كل مصنع يحرض العمال ويفصل، وذات مرة كان

يقود إضرابا فى مصنع كسم وقبانى للنسيج فاقترب منه زميل له فى الإضراب ودعاه إلى مقابلة أحد الأشخاص يريد مقابلته كزعيم عمالى، والتقى مع حلمى حامد «ميكانيكى طيران» واستطالت النقاشات فى جلسات متعددة، فتح حلمى أمامه آفاق نضال جديد من أجل الطبقة العاملة ككل ومن أجل الشعب كله. وفى عام ١٩٤٣ أصبح أحمد شيوعيا، ويواصل أحمد معاركه العمالية بمفهوم جديد ويقود إضرابا جديدا فى مصنع «كسم وقبانى» فيصدر قرار بفصله فى سبتمبر ١٩٤٤ ويصدر القلم المخصوص «البوليس السياسى» قرارا بمنعه من العمل فى أى مصنع بشبرا الخيمة ويبقى ٢٥ شهرا بلا عمل فقرر العمال أن يتبرعوا بقروشهم لأحمد. وفى كل شهر كان يعيش على ما يتبرعون به «يخصم من التبرع خمسة جنيهات يتبرع هو بها للتنظيم، ولأنه بلا عمل كرس كل وقته للنضال العمالى ولتجنيد رفاقه من العمال وأصبح وعن جدارة واحدا من أهم الكوادر العمالية فى التنظيم (الحركة المصرية للتحرر الوطنى)، ولأنه بلا عمل فقد كانت فرصة أمام القلم المخصوص لأن يطارده بتهمة التشرد وألقى به فى حجز قسم السيدة زينب لكن العمال فجروا قضيته مطالبين بالتضامن معه، وكتب عبدالرحمن الشرقاوى عنه قصيدة اتخذها هو مقدمة لدفاعه عن نفسه. وفى جريدة «الوفد المصرى» كتب د. محمد مندور مقالا دفاعا عنه، وأثار النائب حنفى الشريف «وفدى» قضيته فى مجلس النواب ويحكم القاضى بالإفراج عنه مسجلا فى الحكم إدانة للبوليس. ويجد أحمد عملا فى المنيا مديرا لمصنع نسيج صغير (٢٠ نولا) ويكرس وقته لبناء قاعدة حزبية وعمالية فى المنيا ويبنى للتنظيم قواعد فى محلج هندرسون وعمال الأتوبيس وعمال الرى وفى جمعية الشبان المسلمين وجمعية الشبان المسيحية وتصبح المنيا على يديه قلعة للنشاط الشيوعى وفى ١٥ مايو ١٩٤٨ تعلن الأحكام العرفية وتحضر مجموعة ضباط من القاهرة لاعتقاله، كان فى المنيا بعيدا عن صخب الانقسامات، وما أن دخل من بوابة المعتقل حتى اكتشف أن حدتو قد تعرضت لانقسامات عدة سأله المنقسمون هل أنت مع حزب الطبقة العاملة أم مع حزب القوات الوطنية الديمقراطية ونمضى لنقرأ ما قاله أحمد «وطبعا قلت مع حزب الطبقة العاملة قلتها بحماس ودون أى تردد وهكذاانقسمت عن منظمتى التى تربيت وناضلت فيها وأصبحت عضوا فى تنظيم «العمالية الثورية» ثم قائدا فيه وفور الإفراج عن المعتقلين (عام ١٩٥٠) هرب جميع البرجوازيين الصغار بعد أن رفعوا أعلى الشعارات وأكثرها تشددا

وسافر كبارهم فى صفقة مع وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» إلى أوروبا فى منح لدراسة الدكتوراة رتبها الوزير لهم، ووجدت نفسى ومعى مجموعة صغيرة من العمال وحدنا، بعد أن تلقنت درسا مريرا مفاده أن الثورية ليست شعارات ولا تشنج وإنما هى الاستمرارية فى النضال (نقلا عن مخطوط كتبه أحمد خضر بناء على طلبى)، وبدأ أحمد من جديد مع زميلين فقط كانوا كل من تبقى من هوجة الانقساميين والباقون.. البرجوازيون الصغار هربوا، جلس الثلاثة وقرروا تأسيس تنظيم جديد أسموه «النجم الأحمر» ويخوض التنظيم معركة العمال المتعطلين بأسلوب مبتكر، جمعوا العشرات منهم يأكلون فى مطعم ولا يدفعون ويهتفون مطالبين بخبز أو عمل وينتهى الأمر بعلقة أو محضر، وذات يوم تحرك ومعه جيش من العاطلين توزعوا على أربعة عشر مطعما فى ميدان العتبة وما حوله وإلى قسم البوليس خرجت المجموعات لتلتقى معا وتلتف حولها جموع من المواطنين فى مظاهرة كبيرة إلى قسم الموسكى حيث محامون يساريون ينتظرونهم للدفاع عنهم، وتتفجر القضية على صفحات العديد من الجرائد وبدأ الحديث عن ضرورة «التأمين ضد البطالة»، ولكن كان للأمن رأى آخر فهذا الصوت المشاغب يجب أن يصمت، فقبض عليه وقدم للمحاكمة ودافع عن نفسه دفاعا سياسيا شجاعا أدان فيه النظام بأكمله مطالبا للطبقة العاملة بحقوقها داعيا لإقامة دولة العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، وفى السجن شارك بحماس شديد فى معركة توحيد الشيوعيين فى حزب واحد وكان أحد المساهمين الأساسيين فى بناء الوحدة، ويفرج عنه فى ١٩٥٧ ليصبح واحدا من أهم الكوادر فى الحزب الوليد ومسئولا عن القاهرة وشبرا الخيمة ثم مسئولا عن أسيوط وسوهاج، وفى مارس ١٩٥٩ يقبض علينا معا فى أحد اللقاءات ويحكم علينا معا بالسجن خمس سنوات ويفرج عنا معا فى أبريل ١٩٦٤.

وعندما يتأسس حزب التجمع يكون أحمد على فراش مرض طويل وتأتينى منه رسالة قال فيها «وأخيرا.. وبعد قيام حزب التجمع أعلن انضمامى إليه كحزب يدافع عن الشعب وعن الاشتراكية وسأظل بقية حياتى عضوا فى التجمع ومدافعا تحت رايته عن الاشتراكية وعن العمال». ويظل أحمد يراسلنى بالبريد كل عدة أيام يتابع ما يجرى ويقول رأيه ويجدد العهد حتى يرحل.

رزق مكارى

بدأت نشاطى السياسى فى جمعية سرية إرهابية هدفها ضرب الجنود الإنجليز وتأنيبهم بسبب إهانتهم للمصريين.
رزق مكارى
«فى حواره معى»

نحن إزاء مناضل من نمط خاص، يوحى بأن اليسار قد مد أصابعه إلى كل الاتجاهات وكل الفئات ليختار منها الأفضل والأكثر إخلاصا لهذا الوطن.

رزق مكارى عندما التقيته فى السجن كان لا يكف طوال الليل عن الغناء بالترانيم الكنسية فقد كان خارج السجن شماسا يقود بصوته الجهورى من يؤدون الترانيم حتى اعتبر قائدا للشمامسة.

الأصل مهيب فالجد الأكبر «المعلم غالى» كان ملتزما لمنطقة منفلوط، ومن ثم كان واحدا من كبار السادة فى كل منطقة أسيوط وما حولها، وعندما أتى محمد على إلى الحكم أصدر الأمر تلو الأمر للملتزمين بجباية ضرائب تلو ضرائب حتى تمرد البعض منهم.

قال المعلم غالى لم يعد فى أجساد الفلاحين قطرة دم. غضب محمد على ونفاه مع غيره من الملتزمين الرافضين إلى دمياط، وهكذا فقد المعلم غالى كل شىء بدأ من جديد باع مصاغ زوجته واشترى قطعة أرض وتحول إلى مزارع.

واحد من أعمامه ترك دمياط وشارك أحد الشوام وافتتحا معا دارا للسينما الصامتة فى بركة الرطلى بالظاهر، ونجح المشروع فانتقل الجميع إلى القاهرة ليعملوا فى ميدان السينما، ومن السينما إلى المضاربة فى بورصة القطن ثم إلى تأسيس «شركة أتوبيس الوطن» وحصلوا على امتياز تشغيل خطين وأصبح المعلم مكارى والد رزق واحدا من الميسورين ويكمل رزق «لكن البورصة أكلت كل أموال أبى ثم سحب إسماعل صدقى

امتياز شركة الأتوبيس ليعطيه لشركة إنجليزية وأصبحنا بلا دخل، واضطررت إلى ترك المدرسة الثانوية، اشتغلت صائغا وأتقنت المهنة وأتقنت لغة الصياغ التى يتعاملون بها مع بعضهم وهذه اللغة أفادتنى جدا فخلال العمل السرى كنت ألقنها لزملائى لنتخاطب ونتراسل بها، لكن الأزمة الاقتصادية لاحقت سوق الصاغة فتركت المهنة لأعمل كاتب حسابات فى محل بالتربيعة، وفى عام ١٩٣٧ وفيما كانت مصر كلها تغلى ضد قوات الاحتلال فاتحنى أحد أصدقائى بعد أن وجدنى أشتم الإنجليز وأتوعد جنودهم السكارى الذين كانوا يروعون المصريين بأنه عضو فى جمعية سرية هدفها ضرب الجنود الإنجليز عقابا لهم على ذلك، وأن الجمعية لها اسم سرى هو جمعية «حدوة الحصان»، وبدأت أنا ومجموعة من الجمعية نجوب شوارع حى الفجالة والظاهر المظلمة لنصطاد الجنود الإنجليز ونضربهم ضربا موجعا، وفى هذه الأثناء التحقت بشركة توماس كوك ثم عملت مديرا لسينما متنقلة للترفيه عن الجنود الإنجليز فى ميدان القتال بالصحراء الغربية، وشكلت مجموعة صغيرة من المصريين العاملين معى وبدأنا فى تنغيص حياة الجنود الإنجليز.. كبشة ملح زيادة فى حلة الأكل، شوية رمل فى العجين وهكذا، وفى أحدى الإجازات عرفنى صديق لى بمن سماه «الأستاذ يونس» (هنرى كورييل) وتحدثنا طويلا ودعانى لمقابلات أخرى وأحضر لى بيانات ومحاضرات وكتبا ولم أنم طول الليل قرأت وقرأت وكأن طاقات ضوء مبهر تغمرنى وأصبحت عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، احتضنت الكتب والأوراق وفى خيمتى فى الصحراء بدأت فى حفظ صفحات كاملة منها تماما كما كنت أحفظ صفحات كاملة من إنجيل لوقا كل ليلة. وهكذا قسمت سهراتى فى الخيمة بين حفظ الإنجيل وحفظ الكتب الماركسية وبعدها قابلنى مراد القليوبى وكان رئيس نقابة عمال السينما وأصبح مسئولى وأعطانى بيانات وزعتها على أصدقائى، وعندما انتهت الحرب عدت إلى القاهرة لأعمل مفتشا فى شركة أتوبيس النجوم الثلاثة وكان مسئولى الرفيق علام (محمد حسن جاد - برق) وكانت الخطوة الأخرى الأهم فى حياتى حضورى مدرسة الكادر وكان المحاضرون فيها محمد شطا - أحمد شكرى سالم - كمال عبدالحليم، وبدأت عملا نقابيا وشيوعيا واسعا فى الشركة وكان مالكها سويسريا اسمه رودلف بليس ويملك معها شركة الشمال للنقل بالفناطيس وشكلت نقابة لعمال الشركتين لكن مالك الشركة فزع وفصلنى من العمل ولم يتركنى العمال فقد ظلوا لأمد

طويل يجمعون قروشا يقدمونها لى كل شهر حتى وجدت عملا، ثم شكلت نقابة لعمال النقش والزخرفة، ويتفرغ المقدس رزق مكارى كما كان يحلو له أن نناديه للعمل النقابى فى إطار منظمة حدتو ويسهم فى تشكيل اللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات العمال ضمن ممثلى شركات الأتوبيس.. ويدخل السجن كالعادة ويفرج عنه ليدخل السجن مرة أخرى وثالثة.. وفى ١٩٥٩ يقبض عليه مرة رابعة ليحاكم بخمس سنوات أشغال قضاها فى الواحات، ويخرج مع الجميع عام ١٩٦٤.

يخرج وحيدا وبلا عمل، وحيدا لأنه عندما قبض عليه أول مرة قرر ألا يتزوج حتى لا يعذب أسرته ويتعذب هو لعذابها ويقول لى «تزوجت الحزب والنضال والسجن وخرجت لأجد نفسى وحيدا تماما ما تبقى من الأسرة تفرق أو تباعد وتفضلت الحكومة فعينتنى كمساريا، وجدت زملاءى القدامى وقد أصبحوا موظفين كبارا وحاولت أن أعوض ذلك بالنضال الحزبى لكن قرار الحل جاء صاعقة لى، لم أتزوج فقد تزوجت الحزب وأصبح الحزب أبى وأمى ومستقبلى وضاع كل شيء وعندما تأسس منبر اليسار قررت أن أبدأ مرحلة نضالية جديدة»، وعندما أحيل للمعاش عمل معنا فى المقر المركزى، وذات يوم أتى مبتسما كان قد رفع قضية ليطالب فيها بتعويض عن فترة الاعتقال وحصل على التعويض، قال ببساطة أخذت التعويض وقسمته إلى ثلاثة، الثلث لتجهيز مقر التجمع بالزيتون والثلث للمقر المركزى والثلث الباقى لى.

وظل المقدس يعمل معنا مناضلا سياسيا فى قسم الزيتون وموظفا متطوعا بالمقر المركزى حتى رحل.

شحاتة النشار (١)

فى المدرسة الابتدائية، شعرت بمذلة الفقراء، كان المشرف يجمع الذين لا يسددون المصروفات ويضربنا بعصا غليظة أمام الطابور وهو يقول «يا ولاد الـ ... مادام فقرا وشحاتين بتتعلموا ليه؟» ويتكرر هذا المشهد يوميا تقريبا، حتى كرهت المدرسة وكرهت التعليم أصلا.
(شحاتة النشار فى حواره معى)

فى كثير من الأحيان، وعندما أقف أمام رجل صلب الإرادة بحيث يفرض نفسه فرضا على تحديات الحياة ويقهرها، أعود بالذاكرة إلى كتاب جميل قرأته فى مطلع الشباب عنوانه «الإنسان يصنع نفسه»، والكتاب يتحدث عن قدرة الإرادة والعمل على تخليق الإنسان وتمكينه من تحدى الصعاب.

ويأتى شحاتة النشار ونحن نجلس معا لأستمع منه إلى تجربته وتاريخ حياته ليجسد هذه الإرادة التى لا تقهر، وتجسد أمامى صبيا مبروم الجسد يرتدى جلبابا باليا يتشعبط فى الأوتوبيسات والتراموايات مناديا على بضاعة فقيرة يلح بها على فقراء لينتزع من هنا مليما أو مليمين ثم اتخيله بعد ذلك ثريا يمتلك مصانع ويديرها بعقل وفكر اشتراكى.

ونعود إلى بداية الحكاية

الأب عامل معمار فى واحدة من أفقر قرى الغربية، تموت الأم وشحاتة فى الثامنة من عمره وتضيق الحياة بالرجل ويجمع أولاده ليرحل بهم إلى القاهرة ليقيموا فى غرفة فقيرة فى حى فقير هو البغالة. يعمل يوما ويتعطل أياما. داخ الأب حتى الحق ابنه فى المدرسة التى اوجعت فقره وجعلته يكره التعليم. ونستمع إلى شحاتة «ذات يوم كنت اتسكع فى حى السيدة فشاهدت ولدا يزاملنى كل يوم فى طابور الإهانة والمذلة. كان يدخل القهاوى ويستوقف المارة ليبيع فيما يشبه الاستجداء المناديل. فى البداية شعر الولد بالخجل لكننى

شاركته وصرنا نلح على الزبون معا كى نوفر قرشا أو قرشين نشترى بهما سندوتشات أو ندخل السينما. وذات يوم أخذت من الولد زميلى ستة قروش كاملة كان حلمى كله يتركز فى أن اشترى فطيرا. أختى كانت تحلم كل يوم بصوت مسموع من الجميع نفسى ادوق الفطير. لكننى فكرت بعقلية التاجر لماذا لا أجرب نفسى فى البيع؟ ذهبت إلى محل «عوف» بالحسين، كان الرجل يعرفنى من كثرة ترددى مع زميلى. با ع لى دستة مناديل، بعتها كلها فى ساعة واحدة ، والستة قروش اصبحت تسعة، ذهبت واشتريت دستة ونصف» وفى اصرار لا يعرف التردد، قرر أن يمتلك رأسمالا وأن يشترى فطيرا لاخته. با ع، ثم با ع ثم با ع وتنقل من حى إلى حى.. وفى ضربة من ضربات الحظ تحولت الستة قروش فى يوم واحد إلى ثمانين قرشا، اشترى الفطير وعاد مسرعا إلى البيت واستمتع بمذاق البهجة فى عيون أخته وكل الأسرة وارتمى لينام بعد يوم مرهق. الأب عاد ليجد الفطير والثمانين قرشا. رفص شحاته برجله فأيقظه لينهال عليه ضربا وهو يصيح «سرقت مين يا ابن....» وحكى شحاته حكايته التى لا تصدق. لم ينم الأب ولا شحاتة، أخذه الأب مشيا إلى الحسين. صليا الفجر معا وانتظر حتى يفتح «عوف» المحل. وسأله الأب فوجد اجابة عوف مشجعة «ابنك ليس لصا بل هو تاجر شاطر». وابتهج الأب وفى الطريق قال شحاتة «لن أعود للمدرسة وسأستمر فى بيع المناديل من أجل اخوتى» لعل الأب كان ينتظر هذه الكلمات فقد وافق على الفور والدموع تملأ عينيه. نحن الآن فى عام ١٩٣٧، هو الآن فى الثالثة عشرة من عمره. واستغل شحاتة اليوم بأكمله فى القفز من تراموای إلى تراموای ومن قهوة إلى أخرى ومن رصيف إلى آخر. وذات يوم عرض عليه «عوف» فانلات مستوردة وكسب فى الدستة عشرين قرشا فأصبح لدى شحاتة مبلغ من المال. وهكذا وهو الذى بدأ بستة قروش يستطيع أن يبدأ مشروعا حقيقيا ببضع عشرات من الجنيهات، وجاءت الحرب. وتوقف استيراد الفانلات وانفتح امامه باب آخر للرزق فى كامبات الانجليز. صديق من ابناء الشارع الميسورين اسمه محيى الدين صادق كان أبوه وفديا، بدأ يلقنه أن حل مشكلات مصر لن يأتى إلا على يدى الوفد وأن الاستعمار لا يريد الوفد- سارا معا إلى حلوان حيث يوجد الكامب ليضربا عساكر الانجليز بالطوب وبعد المشوار لمرهق اكتشفا استحالة ذلك. وأصبح شحاتة وفديا. لكن لقمة العيش تستدعيه فسافر مع صديق سودانى للعمل فى «كامب» قرب السويس. كسب مالا لا بأس به. لكن السؤال المرير لماذا

يوجد فقراء جدا واغنياء جدا؟ يظل دوما يؤرقه. وفى إحدى زياراته للقاهرة التقى صديقه محيى الدين صادق. وجده وقد تغير فقد قال له نحن يجب أن نساند الفقراء، لكن قيادة الوفد كلها اغنياء. ولهذا لابد من وجود حزب للفقراء والحزب موجود لكنه سرى.

وأصبح شحاتة على الفور عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م) واعطاه صديقه كتاب «الرأسمالية تعنى الحرب» لكن تعليمه المحدود.وصعوبة الاسلوب حالا دون فهمه لموضوع الكتاب، لكنه شعر بضوء خافت يتسلل إلى قلبه.. إنه ضوء الفكر الماركسى.

وانضم شحاتة إلى خلية مسئولها أحمد الهنيدى والاعضاء ابراهيم عرفة (ميكانيكى طيران)، عبد الله الثقفى (طالب بالأزهر) محمد سعيد (نجار) وعامله فى محل صيدناوى بالعتبة لم يعد يذكر اسمها.

وفى خلية كهذه تفتحت امامه آفاق معرفة واسعة ونضالا اكثر اتساعا، ونستمع إليه يقول «فى أول اجتماع للخلية سمعت محاضرة ممتعة وسهلة عنوانها «تطور المجتمع» تأملت تطور المجتمعات وأيقنت أن العالم سيتجه حتما إلى الاشتراكية، وشعرت بأننى أكاد أن اطير فرحا، فقد عرفت حقيقة وضعى ومستقبلى ومستقبل اسرتى ابى واخوتى ومستقبل بلدى. ومضيت فى طريق النضال إلى اقصى مدى، دون أن أتوقف عن عملى كتاجر.

وإلى لقاء لنكمل مسيرتنا مع مسيرة مناضل صنع نفسه.

شحاتة النشار (٢)

ظللت طوال حياتى ماركسيا مخلصا لماركسيتى، ثم أصبحت رأسماليا ناجحا إلى حد كبير، ولم أستطع حتى الآن أن أفسر لنفسى وللآخرين كيف جمعت بين الاثنين.
«شحاتة النشار فى حوارى الأخير معه - قبل رحيله بأسبوعين»

نجح شحاتة فى التجارة، فالتجارة شطارة، افتتح محلا صغيرا فى العتبة، وظل يناضل فى صفوف حدتو بكفاءة وشطارة وفى العمل السرى أيضا كان واحدا من أنشط العناصر الجماهيرية فى القاهرة، شارك بحماس فى تنظيم مظاهرات ١٩٤٦، وفى لجان مكافحة الكوليرا، وكثيرا ما جمع جيرانه التجار وزبائنه من صغار الباعة ليكنسوا الشوارع وينصحوا الفقراء بنظافة بيوتهم خوفا من انتشار العدوى بالكوليرا، كانوا يجمعون المواطنين ليجرى تطعيمهم ضد الوباء سريع الانتشار، ثم بدأ فى مهمة لم يفكر فيها أحد، تأسيس رابطة للباعة الجائلين، كان واحدا منهم منذ أيام طفولته، هم الآن زبائن فى محله وهو يعلم مدى معاناتهم من رجال الشرطة الذين يطاردونهم ويعلم أنهم لا يجدون من يعترف بهم ولا بحقهم فى انتزاع لقمة الخبز التى عرف هو مدى المعاناة فى انتزاعها، ناقشهم وأتوا بباعة آخرين من مختلف الأصناف وأخيرا جمع جمعا غفيرا منهم وأسس «رابطة الباعة الجائلين»، وهو فوق هذا وذاك يكتشف أهمية أن يقرأ وأن يتعلم لكى يصبح جديرا بوضعه فى التنظيم، ولكى يستطيع أن يشرح للقادمين الجدد إلى التنظيم والذين استطاع أن يجمع منهم الكثير، حقيقة الماركسية وحقيقة الأوضاع الاجتماعية وكيفية النضال لتغييرها، ويحكى لى «كنت أعود كل مساء مهدودا ومرهقا.. فالعمل فى المحل مرهق، والنضال اليومى أكثر إرهاقا، لكننى كنت أمضى ساعة أو ساعتين فى قراءة الكتب الماركسية، أم شوقى زوجتى سألتنى إيه الحكاية، وإيه الكتب اللى بتقراها، وأخيرا فاتحتها، قلت لها أنا شيوعى، وأجهدت نفسى فى اكتسابها إلى صفى، هى أنصتت

باهتمام، وقالت يعنى إنت بتدافع عن الفقراء؟ وماله شد حيلك، ولما قلت لها إننى فى تنظيم سرى وقد أسجن قالت ببساطة «متخافش وربنا معاك مادام بتدافع عن الغلابة» ثم قالت «أنا معاك على الحلوة والمرة» وأصبحت بعد هذا الحوار مطمئنا على أم شوقى والأولاد، والحقيقة أنها ظلت دوما سندا لى فى كفاحى وشريكا نشيطا فى العمل السرى، وقد توالت فترات سجنى وفى كل مرة كانت أم شوقى أكثر صلابة وأكثر عطاء، وأكثر نشاطا خاصة فى مظاهرات العائلات.

وتتوالى فترات السجن..

١٩٤٩ قبض عليه ليبقى فى السجن ثلاثة عشر شهرا.

يخرج من السجن فى منتصف ١٩٥٠ ليقبض عليه ١٩٥٢ ويحكم عليه بثلاث سنوات سجنا.

وبعد أن يخرج شحاتة يواصل عمله المزدوج التجارة والنضال، وينجح فى المجالين وينتقل بمحله إلى مكان متميز فى أول شارع السد، وهناك يصبح تاجرا مرموقا. وكان المحل محطة اتصال مهمة لكل من يريد إبلاغ التنظيم بأمر مهم، وفى عام ١٩٥٩ يقبض عليه مرة أخرى ليعيش فترة التعذيب الوحشى ويصمد رجلا مثل كل رفاقه ويبقى حتى ١٩٦٤.

وتمتلئ جعبة شحاتة بذكريات السجون ويروى لى بعضها فى حواره معى وهو يضحك كثيرا ويأسى أكثر.. ومما قاله لى «فى سجن مصر التقيت مع عديد من أصناف السجناء السياسيين وكان هناك المقبوض عليهم فى قضية اغتيال أمين عثمان.. كمال يعقوب، عبدالعزيز خميس، أنور السادات.. وذات يوم شاهدت أنور السادات وهو يتمسكن للشاويش قائلا: أبوس رجلك يا شاويش، واحتقرته وظللت أحتقره، وعندما أصبح السادات رئيسا شعرت بمهانة مريرة.

ويمضى حكاياته لتروى بشاعة التعذيب الوحشى فى سجن أبوزعبل وعندما استشهد شهدى عطية وحضرت النيابة للتحقيق كان الضباط يهددون الجميع لمنعهم من الإدلاء بشهاداتهم، وكانوا يقولون لهم ستذهب النيابة بعد ساعة، وسنبقى نحن لنحاسبكم. وكان شحاتة واحدا ممن تحدوا هذا التهديد وأمام النيابة حكى كل شىء عن التعذيب اليومى واصفا وحشيته وعن أسماء الضباط الذين شاركوا فيه، وعن كيفية استشهاد شهدى وختم أقواله قائلا لوكيل النيابة أحملك مسئولية الحفاظ على حياتى بعد هذه الشهادة.

وحكاية ثالثة خلال عملية ترحيل جماعى للسجناء إلى سجن الواحات، ربطوا كل ثلاثين سجينا فى سلسلة واحدة اسمها الحجلة الضابط يونس مرعى توقع أن تكون محطة «المواصلة» مليئة بالمسافرين فأمر سائق القطار أن يتوقف قبل المحطة بمسافة قصيرة حتى ينزل السجناء لكى لا يهتفوا وسط المواطنين مطالبين كالعادة بالحرية والديمقراطية، هو كان فى الحجلة الأولى وفيما هم ينزلون تحرك القطار وسحب من نزلوا ولم يزل بقية المربوطين معهم داخل القطار الذى سحبهم ليصاب الكثيرون بكسور ورضوض مخيفة أطلق الحراس الرصاص لتنبيه قائد القطار، وعندما توقف القطار كان جسده قد تلقى كسورا عديدة ورضوضا شديدة القسوة، ونجح شحاتة فى أن يقنع أحد الحراس بأن يحمل رسالة لأم شوقى وصف فيها ما حدث التى جمعت العائلات وتزعمتهم فى مظاهرات حاشدة.

وبعد عام ١٩٦٤ خرج ليؤسس مصنعا صغيرا جدا، ثم كبر المصنع رويدا رويدا، ثم أسس هو والرفيق محمد الزعفرانى جمعية تعاونية لأصحاب مصانع التريكو، الأمن اعترض عليهما، أتيا معا إلى خالد محيى الدين الذى توسط لهما فأسسا جمعية تعاونية أخرى ونجحا وأصبحا من أكبر صناع التريكو فى مصر، ويبقى شحاتة دوما تاجرا شاطرا قادرا على إقناع الزبون بأى شىء ويظل أيضا مناضلا شجاعا.. حتى كان حل الحزب، وبعد تأسيس التجمع جاء ليكون معنا.

وأظل كلما التقيته أتذكر الكتاب القديم «الإنسان يصنع نفسه»، ولقد صنع شحاتة نفسه فأحسن صناعتها وظل متألقا ينجح فى المجالين معا.. حتى رحل.

سعد رحمى

ليس قلبى هو الذى يوجعنى، وإنما يوجعنى غياب الحلم الذى ظللت أعيش من أجله سعد رحمى «فى حوار معه قبل رحيله بقليل متحدثا وهو مريض جداً عن انهيار الاتحاد السوفيتى»

الأسرة إقطاعية، الأب اميرالاى بالجيش أحيل إلى المعاش، فقد كل ثروته ولم يبق له سوى الكبرياء الاقطاعى، كان صديقا لهيلاسى لاسى وعندما غزا الإيطاليون إثيوبيا، قرر تشكيل تنظيم عسكرى للسفر إلى هناك لمحاربة الإيطاليين. تركته أعين الاحتلال البريطانى حتى أنفق كل ما يملك على التدريب والتسليح والسفر إلى السودان مع مجموعته، ثم صادروا سلاحهم وأعادوهم إلى مصر، كان الأب وفديا وأنجب «توأم» ولد (سعد) وبنت (صفية). وسعد كان يتحدى المناخ الارستقراطى ويعيش حياة بوهيمية فى الملبس والتصرفات. وفى السنة التوجيهية التقى بزملاء فى المدرسة السعيدية هم حمدى عبّد الجواد – فؤاد عبد الحليم– أحمد شوقى الخطيب، قرأوا معا المعذبون فى الأرض لطه حسين واقتربوا من التعاطف مع الفقراء ثم أحضر لهم حمدى ديوانا عثر عليه بالمصادفة. ديوان إصرار للشاعر كمال عبد الحليم، سألوا عنه، هو شيوعى فأصبحوا شيوعيين مثله، انضم مع حمدى إلى تنظيم القلعة (مصطفى هيكل) صعد سريعاً فقد أصبح قائدا ثوريا فى كلية الطب. كان صيف ١٩٤٦ ملتهباً، القلعة اتحدت مع ايسكرا ثم انضم الجميع فى إطار الحركة الديمقراطية للتحررر الوطنى(حدتو) انهمك سعد فى العمل الثورى.. وزع مجلة الجماهير فى كلية الطب وفى الشوارع المحيطه بفيلا الأسرة فى حى الروضة واشترك فى لجان مكافحة الكوليرا. وجاء الصيف وسافرت الأسرة جميعا إلى المصيف إلا هو فالدراسة تتواصل فى كلية الطب. تحدى المألوف. جمع الأثاث الأرستقراطى فى غرفة داخل الفيلا لتكون مقرا لرابطة الطلبة المصريين، ولجان مكافحة الكوليرا. وكان الهول

عندما عاد الأب ليجد الفيلا فى أيدى شبان يتحدثون عن الثورة، وفى الإجازة أصبح سعد عضوا فى لجنة فرع مصر القديمة بحدتو. وكان مسئوله آمال المرصفى (أصبح فيما بعد واحداً من الضباط الأحرار). ومع العام الدراسى عاد لموقعه التنظيمى فى كلية طب قصر العينى وكانت خليته مكونة من يوسف أدريس - صلاح حافظ- محمد يسرى أحمد. وهو مع موجة الانقسامات هو إنساق إلى آخر مدى جمع عدداً من الطلاب وأسس تنظيماً سماه «نحو منظمة بلشفية» (ن.م.ب) ويقول: كنا ثوريين لكننا أصبحنا مجانين واتسم فعلنا بالصبيانية. كنت أصدر نشره مطبوعة طباعة رديئة، اكتبها كلها بنفسى واطبعها بنفسى وأوزعها بنفسى وكانت مليئة بشعارات مجنونة وجمل صبيانية كلما تذكرتها أخجل من نفسى» (من حوار معه أجرى ٥-٩-١٩٨٣) بعدها انضم إلى منظمة أكثر جنونا (م ش.م) ترك كلية الطب واحترف وسافر إلى الاسكندرية لتفرض عليه أعمال وشعارات صبيانية. وبعدها أفاق من الجنون، ترك الجنون وعاد معتذراً إلى حدتو. ترك الكلية والأسرة والفيلا وأصبح محترفا وأرسل إلى الصعيد فأصبح فارسا ونجح فى بناء منظمة قوية فى عديد من الأماكن- أهمها الفيوم والمنيا وأسيوط ويقول «كنت لا أنام ولا أتعب فثمة شعور يؤنبنى أننى ارتكبت اخطاء ولابد أن أكفر عنها» وكثمرة لهذا النضال أصبح عضوا فى اللجنة المركزية. وإذ يتفجر الكفاح المسلح عام ١٩٥١ شكلت حدتو كتائب الانصار للكفاح المسلح وكان هو وسيف صادق وعبد المنعم الغزالى قيادتها. ويؤسس هناك ركائز حزبية قوية، ويأتى حريق القاهرة يناير ١٩٥٢ وتعلن الأحكام العرفية ويختفى ويقبض عليه فى مارس ١٩٥٢ ويسجن حتى مارس ١٩٥٦. وفى سجن القناطر التقينا ونسجنا معا ذكريات جميلة. ويخرج ليواصل النضال ويأتى العدوان الثلاثى. وتستدعيه معشوقته القديمة بورسعيد التى حارب فيها الاحتلال عام ١٩٥١. وسافر هو ومجموعة من رجال حدتو وهناك خاضوا معارك نضالية ومسلحة وجماهيرية، وفيما كان محافظ بورسعيد يستعد لتسليم المدينة رافعاً العلم الأبيض حشدوا جماهير غفيرة منعته من ذلك. ويتواصل النضال حتى يندحر العدوان. ويعود ليواصل معركته مع حزبه مسئولا عن منطقة الإسكندرية. ويخوض سعد بكل قوته معركته من أجل توحيد الشيوعيين، بذل جهدا فوق الطاقة وعندما توحد الحزب فى ٨ يناير ١٩٥٨ أصبح عضوا فى لجنته المركزية. وحاول أن يكون عنصرا فاعلا فى بناء وحدة حقيقية، رفض الانحياز لأى طرف وتمسك بمحاولة التقريب بين طرفين

لا يرغب أى منهما فى التقارب. وغضب منه الطرفان لكنه صمم إلى موقفه المبدئى. وعندما وقع الانقسام لم ينقسم مع رفاقه القدامى، فغضبوا منه، ولكن من بقى معهم تشككوا فيه ورفضوا مواقفه المبدئية..

ويحكى فى حواره معه «كنت اشقى بابتعادى عن رفاقى القدامى. وكنت أشعر بغربة مع من بقيت معهم، كانوا يتحاشوننى ويخفون عنى أسرارهم ويعتبروننى لغما قابلا للانفجار». وتنتهى فترة سجن مريرة امتدت من يناير ١٩٥٩ وحتى ابريل ١٩٦٤ كان فيها رمزا للرجولة والمواقف المبدئية والصلابة فى مواجهة التعذيب الوحشى فى سجون الناصرية.

ويحاورنى قائلا «انتهت فترة التعذيب لتحل محلها فترة العذاب» الحزب تقرر حله. حاول أن يرفض الاقتراح لكن القرار كان بأغلبية كاسحة. وتحول المناضل الثورى إلى موظف صغير بالثانوية العامة، ويشقى كثيرا ليدبر شئون معيشته. ويسد النقص فى الدخل بالاشتغال بالترجمة لكنه وجد نفسه مرغما يترجم وفقط كتبا ماركسية.. فإزداد فقراً.

ومن جديد يعاد تأسيس الحزب الشيوعى فينضم إليه ويصبح عضوا فى مكتبه السياسى. ويقيم فى موسكو فترة وجيزة عمل فيها مراسلا لكن التعاسة الأبدية تلاحقه فكانت دعوة البريسترويكا.. وجد الطوفان يغمر حلمه الأبدى دولة العمال والفلاحين. وعاد من موسكو مريضا. قال الأطباء هو يرفض الحياة. جلست إلى فراشه حاولت أن أنتشله من وهدة الرغبة فى الموت. فقال بصوت واهن «كنت أعيش من أجل حلم. الحلم مات، ومهما عشت فإنه لن يعود. دعنى أموت. ومات.

محمود مرسى خلف

بسهولة شديدة انتقلت من الطريقة البيومية إلى الطريقة الماركسية، ومن صناعة الأحجبة وفك العمل إلى صناعة الثورة.

محمود مرسى «من حواره معى»

اسم العائلة «الهوارى» منح رجالها مهابة خاصة، رغم الفقر الشديد، فالأب عامل بسيط فى مجلس بلدى الفيوم، الجد كان يمتلك فدانين لكنه عاش كما يزعم محمود ١٥٦ عاما تزوج خلالها تسع زوجات وأنجب ثمانية عشر ابنا وبنتا، واقتسام الفدانين بين هذا الجيش من الورثة يعنى لا شىء لكل منهم، وكالعادة ذهب محمود إلى الكتاب فى السادسة من عمره ومعه أخوه الأكبر «سبع سنوات» الأخ حفظ القرآن وختمه أما هو فقد حفظ ثلث القرآن ثم إلى المدرسة الإلزامية متفوقا بفضل ما حفظ من قرآن، وبعد تخرجه كان يحلم بأن يدخل مدرسة المعلمين ليتخرج بعد خمس سنوات «معلما» قد الدنيا، لكن الأب لا حيلة له مع الفقر والمدرسة فى بنى سويف ولا قرش واحد فائض وحسم الأب أمره وأرسل الولد محمود ليعمل فى محل خاله الجزمجى الشهير فى الفيوم، رغم أنفه ذهب الولد وأصبح جزمجيا، كان يعشق القراءة يصحب معه المصحف يقرأ فيه فى أى وقت فراغ، وحتى وهو فى الطريق كان يلتقط أى ورقة مكتوبة ليقرأ ما فيها، أصبح جزمجى شاطر وكان أجره ١٥ قرشا فى الأسبوع خصصها جميعا لشراء ما يقرأ، وكان يقرأ وفقط تقريبا فى الكتب الدينية التى قادته إلى التصوف وأخذ عهدا على شيخ الطريقة البيومية، وبسرعة مذهلة حفظ الأناشيد والأوراد وتفوق على الجميع وأصبح واحدا من أبرز شيوخ الطريقة البيومية فى الفيوم، وناداه الجميع وهو لم يزل صغيرا الشيخ محمود، لكن الشيخ تعلقت أبصاره بجارة له غاية فى الجمال ولم يجد سبيلا لمغازلتها وهو شيخ محترم سوى إقامة حلقة ذكر فى بيته، والتفت حوله الحلقة ووقف فى الوسط منشدا وهى واقفة فى زحام المتفرجين من الجيران

متى يا كرام الحى عينى تراكم
واسمع من تلك الديار نداكم
أمر على الأعتاب من غير حاجة
لعلى أراكم أو أرى من يراكم

كان ينشد وهو يتطوح وعيناه عليها ولعلها فهمت رسالة سيدنا الشيخ، لكن محبوبته تموت وهى بعد صبية صغيرة فينطوى قلبه على حزن عميق وينغمس أكثر فأكثر فى الكتب الدينية وكثير منها يختلط مع حديث كثير عن السحر، ثم انتقل إلى مايسمى بـ «كتب الأعمال السفلية»، ثم قرر أن يجرب نفسه كتب حجابا لفتاة تحلم بالزواج فتزوجت على الفور فصدق نفسه وصدق الناس، وذاع صيت الشيخ محمود، وفى عام ١٩٤٧ التهبت مصر وتحول سيدنا الشيخ إلى قراءة الصحف والمجلات، وفى حقل السياسة تراوحت أفكاره ما بين الوفد والإخوان، الإخوان لم يستطيعوا اجتذابه فظلت مشاعره تتجه نحو الوفد، فالناس مع الوفد وأبوه أنصفه قانون الإنصاف فقفز مرتبه من ١٨٠ قرشا إلى ثلاثة جنيهات، كان بائع الجرائد جابر بريقع يحضر له كل يوم لفافة صحف وذات يوم حضر مع اللفافة ورقة خضراء عنوانها «ميثاق استكهولم من أجل السلام» وسأله تحب توقع على دى يا سيدنا الشيخ؟ كان قد قرأ فى الصحف أن الشيوعيين هم الذين يجمعون هذه التوقيعات ووقع على الفور فالصوفية تنزع إلى سلام النفس وسلام الإنسانية وقرر أن يجمع توقيعات أتباعه من الصوفيين وفى اليوم التالى حضر بياع الجرايد ومعه الأستاذ حلمى رمضان المدرس. كان محمود قد طلب مقابلة من أحضر هذه الأوراق من مصر واستجاب جابر، ومباشرة قال الشيخ: أنا عايز أقابل حد من الشيوعيين علشان أفهم إيه حكاية ميثاق استكهولم ده، فحاول حلمى رمضان أن يفض الاشتباك بين الشيوعية وحركة السلام وظل يلف ويدور لكن الشيخ الذى تعود على قراءة كتب العلم السفلى وأبو معشر صمم على طلبه وبالفعل قابله سعد رحمى لم يفتح سعد أى موضوع فقط ناوله نشرة الكفاح السرية على غلافها صورة الملك فاروق وعلى رأسها حذاء بدلا من التاج «كان فاروق لم يزل ملكا».

ويقول الشيخ محمود «سألت سؤالا أو سؤالين من قبيل إرضاء الذات لكن الإحساس الصوفى أشعرنى أننى دخلت عالم الوجد الصوفى ولكن من باب الشيوعية. أنشأ عديدا

من لجان السلام فى الفيوم ونقابة لصانعى الأحذية وأصبح رئيسا لها وعندما أسس خلية لحدتو فى قرية العجميين حيث يعمل الجميع فى صناعة أقفاص الجريد والمقاطف شكوا له من استغلال التجار لهم فأسس محمود جمعية تعاونية لهم، ورويدا رويدا أصبح الشيخ محمود زعيما فى الفيوم، وانتهج أسلوبا جديدا فمع أى حدث يصدر الشيخ محمود بيانا يطبعه فى مطبعة صديق له يشرح فيه وجهة نظره ويعطى معلومات عن الحدث ويوقع «محمود مرسى خلف درب الطباخين» ورويدا رويدا أصبح الشيخ الشيوعى زعيما ففى درب الطباخين حيث يسكن عديد من الخلايا وكذلك فى قرية العجميين وفى عديد من القرى المحيطة وأصبح رفاقه يشكلون أغلبية مجلس إدارة نقابة المعلمين وكثير منهم تطوعوا للعمل كمتطوعين فى الإسعاف وتأتى حركة الجيش ويلتقى معهم الرفيق هاشم «محمود توفيق» ويتسع النشاط أكثر فأكثر، ولكن التصادم مع الثورة أتى بعد الإصرار على مطالبة حدتو بالديمقراطية مسئول الاتصال «كان كمساريا فى الأتوبيس بين القاهرة والفيوم» أحضر لفافة بها منشور عنوانه «تسقط الديكتاتورية العسكرية» ويوزع المنشور بحماس ثم يكون القبض عليه والسجن ثلاث سنوات، قبلها كان قد طلق زوجته، أبوها قال له إما أن تطلق الشيوعية أو تطلق ابنتى، وانتظر محمود حتى يسمع فقالت الزوجة نفس الشيء فطلقها هى ولم يطلق المبدأ.

وبعد الإفراج عنه واصل مسيرته، وأثناء العدوان الثلاثى جمع الشيخ محمود كل الرفاق لينضموا إلى الحرس الوطنى، وتدربوا، لكن أعين الأمن كانت تترصدهم، محمود فتح محلا لصناعة الأحذية، استعاد مهنته القديمة وظل يواصل النضال، وظلوا يراقبونه وذات يوم استعاد عزيمته الصوفية كانت الشمس حارقة وخرج من الدكان فى عز الظهر ومشى.. مشى.. مشى أربع ساعات تلفت فلم ير المخبر الذى كان يراقبه، بعدها جاءه مخبر آخر، قال إن زميله أخذ ضربة شمس ويرقد فى المستشفى واتفقا على ألا يلاحقه المخبرون بشرط أن يقدم لهم تقريرا عن تحركات وهمية ليقدموها لحضرة الضابط، وبعدها اكتشف محمود الحقيقة فالمخبرون أبلغوا بعضهم البعض أن الشيخ محمود يسلط عليهم بعض أدواته فى العالم السفلى وأصبحوا يخافون منه، وفى أول يناير ١٩٥٩ يقبض عليه ومحاكمة عسكرية وثلاث سنوات أخرى.. ومن السجن إلى المعتقل، ويفرج عنه ليتولى وظيفة صغيرة فى مجلس مدينة الفيوم.. ويأتى التجمع فيأتى محمود ليواصل نضاله فى صفوفه.

د. لويس عوض

تتلمذت بشغف وتلذذ على يدى سلامة موسى لأنه كان يتحدث وبشكل مباشر عن الاشتراكية، ولأنه كان مثلى من دراويش مصر الفرعونية.
د. لويس عوض (فى حواره معى)

هو واحد من أبناء الصعيد الجوانى كما كان يحلو له أن يصف نفسه كلما لامه أحد على عناده، ولد فى قرية شارونة (مركز مغاغة فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤) وكان أبوه موظفا لدى الإدارة الإنجليزية فى السودان، ولأن الأب فى السودان فلم يجرؤ أحد على تسمية الابن إلا عندما يقرر الأب، ولهذا قيد فى سجل المواليد فى ٥ يناير ١٩١٥ وهذا تاريخ ميلاده الرسمى، خمس سنوات قضاها فى السودان مع أبيه، لكن الأب كان يعانى من مصريته وهو يتوظف عند الاحتلال البريطانى بالسودان، فألقى باستقالته وعاد لمصر، ويتذكر لويس أيام طفولة غائمة فى السودان «أقامت أسرتنا صداقات حميمة مع الأسر المصرية المسلمة، وفى أعيادنا وأعيادهم نتزاور ونتبادل هدايا من الكعك والغريبة والمنين فيما يشبه الطقوس» (لويس عوض – أوراق العمر – ص١٧) «وفى مدينة المنيا تستقر الأسرة فقد باع الأب كل ما يملك وباعت الأم مصاغها وبنى منزلا متواضعا» ويتحدث لويس عوض ربما عن نفسه بالذات ولكنه ينسب الأمر إلى أسرته كلها فيقول «ونحن آل عوض لنا بعض الخصائص النفسية المشتركة منها أننا لا نكذب، ولا نعرف الكذب حتى للمجاملة أو لتجنب الحرج أو الخروج من المأزق، ومنها أننا عاطلون من الذكاء الاجتماعى، وهذا ما يجعلنا نعيش فى عزلة نسبية مهما كانت دائرة معارفنا واسعة» وكان لويس كذلك بالفعل، وكان يبرر صراحته المباشرة وهجومه المباشر وعدم إتقانه فنون مثقفى زمانه فى الالتواء والمجاملة والتبرير بأنها «عادة وراثية» لكن ذلك تسبب له فى صدامات ومعاناة بل وعذابات لم يكن مستعدا لها، وهذه الصراحة كانت مثارا لخلافات حتى مع والده فقد تقدم

عريس لأخته مينرفا، وكان جلفا وجاهلا وابن بقال، ورفض الأب فليس لهذا الجلف ابن البقال أن يتزوج ابنة موظف سابق ومحترم، ولكن لويس وهو فى سن السادسة عشرة يصرخ فى والده «هذه أفكار دقة قديمة، وفوارق طبقية سخيفة. المهم أن تقرر مينرفا بنفسها ما تريد» ومن مدرسة الفرير إلى المنيا الابتدائية الأميرية إلى المنيا الثانوية وفيها سمع الكثير عن الاحتلال والإنجليز، وما أن تلقن بعض دروس الكيمياء حتى أقام فى المنزل معملا كيماويا صغيرا مع أخيه فيكتور ليصنعا بارودا ومتفجرات لقتل الإنجليز، لكنهما لم يقتلا أحدا، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن فى المنيا أى إنجليز.

الأب كان شخصية هادئة، يشرب كل يوم زجاجة نبيذ كاملة ويستمتع بإدخال ابنيه فى امتحانات يومية إما لحفظ قصائد من الشعر الإنجليزى أو العربى أو حتى آيات من القرآن الكريم.. هو يشرب ويستمع ويصحح ثم يعطى الفائز قرشا، ويتمشى لويس بالجلباب والشبشب ليشترى جرنال البلاغ من محطة السكة الحديد بهذا القرش.

ولأن أباه قال له يوما إن الشيوعية تعنى أن المال يكون مملوكا للجميع على قدم المساواة، فقد أثار ذلك خياله بحثا عنها، لكنه ينتظر حتى يصل إلى السنة الثالثة بكلية الآداب حيث أعاره أستاذه برين ديفيز كتاب رأس المال ويقول «فقرأت أجزاء كبيرة منه وأيضا عدة كتب لباكونين وكروبتكين.. وكان أستاذى برين ديفيز فابيا»، ولعل لويس قد ظل متأثرا به طوال حياته، وفى الجامعة كان ثمة أستاذ شيوعى متحمس هو الدكتور هولواى «وتحدث معى كثيرا عن المادية الجدلية وأعارنى عديدا من الكتب مثل: دياليكتيك الطبيعة وضد دوهرنج وعشرة أيام هزت العالم، وشرح لى أسباب الصراع بين ستالين وتروتسكى ولا أغالى إذا قلت إن هولواى كان من أعظم المؤثرات على فكرى وثقافتى فى هذه الفترة الخطيرة من نموى النفسى والثقافى حين سقطت أمامى كل التخوم بين الثقافات والحضارات وكل الحواجز بين الأزمنة والأمكنة» لكن لويس وبرغم إعجابه بالفكر الماركسى وبأستاذه هولواى تعلق أيضا بأستاذ آخر هو البروفسور سكيف «وكان أستاذى سكيف يمقت الاشتراكية بل يمقت كل مذهب يقيد فردية الفرد وحريته فى الاختيار الدائم».

وأعجب لويس أيضا «بفردية الفرد» وحقه فى التحليق الدائم بين الأفكار والآراء المختلفة فظل على الدوام متمردا يقبل بالاشتراكية وحتى بالماركسية ويرفض التقيد بالولاء

الفكرى لها بل وينتقد أحيانا بعض مفرداتها وأساليب تطبيقها، ويمنى نفسه بأن يكون ليبراليا لكنه لا يلبث أن يتمرد على الليبرالية المطلقة، وتتضاعف معاناة لويس عوض من هذا الموقف المركب بسبب من صراحته وصرامته فى عرض أفكاره دون تردد ودون حرص، ويضاف إلى هذه الصراحة صراحته فى ضرورة الانتماء المصرى الفرعونى، وضرورة دراسة الحقبة القبطية فى تاريخ مصر، فتعرض لويس لهجمات عديدة وفجة. ويقول «لكن أكثر ما يوجعنى هو أن ينسب هؤلاء المهاجمون لى أفكارى إلى قبطيتى وليس إلى مصريتى أو حريتى فى التفكير»، وفيما كان يعانى من مزيج فكرى معقد ماركسى ليبرالى فرعونى قبطى يأبى إلا أن يزيد أموره تعقيدا فيرفض فكرة العروبة فى زمن ناصرى كان يضحى حتى باسم مصر فى سبيل إعلاء نغمة العروبة واختار لويس عوض أن يقول وبأعلى صوت إذا كنتم تريدون «وحدة» فلتكن وحدة مع السودان، وعرضه ذلك إلى هجمات قاسية مليئة بالبذاءة بعضها يتهمه بأنه مسيحى متطرف وآخر يعايره بأنه «أحول» وثالث يتهمه بأنه «عميل» وتتوالى الضربات ليس من كتاب مهووسين بالولاء للنظام فقط وإنما من النظام نفسه فقد فصل من الجامعة بتهمة الشيوعية (١٩٥٤) ثم سجن ١٩٥٩ بتهمة رفض العروبة والقول بفرعونية مصر، وفى السجن تعرض لتعذيب وحشى لم ينسه طوال حياته.

وفى آخر حوار طويل معه (١٩٨٢) قال «كنت من أشد المؤمنين بوحدة وادى النيل ربما بسبب سنوات طفولتى هناك وربما بسبب رفضى لفرض فكرة العروبة علينا فرضا، حتى كان انفصال سوريا عن دولة الوحدة فأصبحت أرفض شكل الوحدة وأكتفى بالحلم بأنواع من التقارب الأقل مجازفة لكننى وحتى أوائل الستينيات ظللت أحلم بمصر قائدة لكيان سياسى اقتصادى كونفيدرالى اسمه اتحاد جمهوريات وادى النيل أما الآن فأنا لا أعرف ما أريد».

عبدالرحمن الخميسى (١)

كسروا يراعى ولكنى حفرت على
جدران مصر أناشيدى بأظافرى
وحيث هم صلبونى كلما بزغت شمس
رأى الناس فيها لون أشعارى
عبدالرحمن الخميسى

هذا الفتى الجميل حيرنى، لم أعرف كيف أبدأ معه أو أكتب عنه، فعبدالرحمن الخميسى الذى تألق فى السماء المصرية كواحد من أكبر وأشهر مثقفيها كان متعدد المهن ومتعدد الكفاءات، وتمضى به المهن غريبة بغرابة الرحيل، فقد بدأ كصبى بقال ومضى فى مهن عديدة كمسارى أتوبيس - شاعر - كاتب قصة - صحفى - مؤلف موسيقى - ممثل - مخرج سينمائى - مخرج مسرحى - كاتب مسرحى - كاتب سيناريو، وفى كل هذه المهن كان رائدا وناجحا ومتألقا، وهو فوق هذا كان واحدا من أشهر الحكائين فى زمانه يسيطر على كل جلسة بروح شديدة المرح، قاسية السخرية.

والفتى بدأ حياته ضحية لزواج فاشل فبعد عام واحد من ولادته تزوج الأب من زوجة أخرى وطلق أمه التى أسرعت فتزوجت بآخر وتاه الرضيع بين أب لا يريده وأم لا تريده فنقلوه من بورسعيد إلى قريتهم منية النصر - دقهلية ويظل الخميسى حتى آخر أيامه ورغم كل ما حقق من مجد يشعر بمرارة السنوات الأولى ويكتب عنها أشعارا مريرة..

أيها الماضى ألا تعرفنى
شد ما ألقاك قد أنكرتنى
أنت فى قطعة كفنتها
بسنينى وطواها زمنى

أنت بنيان أقمنا فوقه
حاضرا.. يا ليته لم يكن

وفي سنوات الفقر والضياع اشتد حقده على الأغنياء لكنه اكتشف سلاحا جديدا لمحاربتهم، وإذ كانت أسرة الحديدي هي رمز هذا الثراء في قريته فقد حاول إقناعهم وهو لم يزل طالبا في المنصورة الثانوية أن يتبرعوا له ليقيم مسرحا وناديا ثقافيا، رفض الإقطاعيون التبرع لهذا الولد، وجد قطعة أرض خالية وفي المساء جمع الشبان الفقراء وهاجموا المدافن الفخمة لكبار الإقطاعيين، انتزعوا منها كل شيء الأبواب والشبابيك والأرضيات.. وفيما يفككونها كان يصيح ويصيحون معا «أحياء الفقراء أهم من موتى الأغنياء»، وهكذا كانت بدايته النضالية مع الفقراء ضد الأغنياء، وفي الإجازات الصيفية كان يجمع الفلاحين ليقرأ لهم «سيف بن ذي زين» و«أبوزيد الهلالي» وتأبى المرارة والفقر إلا مطاردته، مات الأب، ثم ماتت الأم ولم يعد يجد من يعوله، فعمل صبي بقال ثم كمساري أتوبيس، لكن الفن يلاحقه ويفرض عليه إرادته فيعمل مؤلفا لاسكتشات تمثيلية وغنائية لفرق مسرحية فقيرة تجوب القرى والموالد ويجوب معها مرددا لما عشقه وظل يعشقه طوال حياته، يؤلف الاسكتشات ويغنيها ويلعب دور المهرج الذي يضحك الجماهير، ثم هاجر إلى القاهرة ليمتهن مهنة غاية في الغرابة يكتب مقالات وقصص وروايات وأغنيات ينشرها المشترون ليضعوا عليها أسماءهم اللامعة ويعود هو بالفتات، ويقول: «وطوال فترة صعلكتي القاهرية وحتى بعد أن أصبحت شهيرا عشت ملتحفا بمحبة دائمة مع الأب الروحي للرومانسية المصرية د. إبراهيم ناجي لكن رومانسيته كانت مليئة بالحنان أما رومانسيتي فقد كانت مليئة بالحزن والألم» (محضر نقاش معه أجرى في ١ نوفمبر ١٩٧٢ في بغداد) وأقلب في رومانسيته وأقرأ..

وارتياحي إلى الظلام.. ويأسي وحنيني إلى السكون الرهيب
وهروبي من الحقيقية بالليل.. فأترع بخمرة الوهم كوبي

وأقرأ في مقدمة ديوانه الأول «أشواق إنسان» «هذا الديوان كل قصيدة فيه مسقية من وجداني، مورقة برحيق ألمي، بدموع يأسي أو فرحي، متوردة بدمي»، إنه الألم القديم المترسب في أعماقه والذي دفعه إلى أن يقول وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره

علام أضحك يا ويلاه من زمني وشاطئ فوقه الأهوال ترتطم

لكنها ضحكة البركان قاذفة — من قلبى النار أذكى أصلها الألم
إنى أقول لهذا الظلم فى صلف — اشرب دمائى واثمل أيها النهم
هيهات تبلغ إذلالى وتخضعنى — إنى قوى عتى ثائر برم

وتظل كلمات «إنى قوى عتى ثائر برم» تغلف كل معايير حياته، ويمضى الفتى إلى يافا حيث يجد عملا مستقرا ومرتبا مجزيا فى إذاعة الشرق الأدنى كان يذيع النشرات والبرامج ويؤلف ويخرج ويكتب قصائد ويقدم نقدا أدبيا، قال لى ذات يوم فى لقاء معه فى موسكو «لو جمعت أعمالى فى يافا لصارت هرما، كنت أعرف أن محطة الشرق الأدنى يديرها الإنجليز لكننى وجهت أغلب برامجى ومسرحياتى الإذاعية ضد الخطر النازى والفاشى وأرضيت ضميرى وسكت الإنجليز، لكن الحركة الوطنية تلتهب فى مصر فى ١٩٤٥ وهى تلتهب ضد الإنجليز فيقذف بكل شىء المرتب الكبير والمسكن الفخم والاستقرار المريح ويعود إلى عشه القديم، لكنه يأتى هذه المرة ومعه اسم لامع، وتثقله المسئولية عن زوجه وأولاد، ويجد موقعا صحفيا مميزا فى صحيفة الحوادث الوفدية ويطلق لقلمه العنان فتغلق المجلة ويحاولون القبض عليه فيهرب إلى الفيوم، وعندما تهدأ الأمور يعود ليتألق اسمه من جديد فى عديد من الصحف والمجلات.. وبعدها يلتحق بالصحيفة الأكثر شهرة وهى «المصرى» ويصبح واحدا من أبرز محرريها بل واحدا من أكثر الصحفيين والكتاب المصريين شهرة وإبداعا، ويلمع أكثر وأكثر على صفحات المصرى عندما ينشر «ألف ليلة وليلة» بعد أن أعاد صياغتها بأسلوبه العصرى الرشيق.

ونواصل رحلتنا مع هذا الفنان المناضل الذى ظل يشدو دوما «إنى قوى عتى ثائر برم».

عبدالرحمن الخميسى (٢)

سيناء كانت لنا أمانا
فكيف أصبحت لنا الهوانا
من قصيدة طويلة للخميسى
أدان فيها كامب ديفيد

فى العدد الماضى تركنا الخميسى وهو يطرق أبواب الشهرة ليصبح واحدا من ألمع الكتاب والصحفيين عندما تألق على صفحات جريدة المصرى التى كانت الصحيفة الأكثر شهرة ويروى الخميسى فى حوار معه «بدأت علاقتى بالمصرى وتوزيعه عشرة آلاف نسخة، فلما بدأ نشاطى فيه زاد توزيعه للغاية، فأطلق أحمد أبوالفتح يدى فى إدارة التحرير فألحقت بالعمل عددا من الصحفيين الشبان منهم عبدالرحمن الشرقاوى - يوسف إدريس - حسن فؤاد ولعلك تلاحظ أنها اسماء يسارية وهكذا وعبر علاقتى بهم وبغيرهم بدأت علاقتى بمنظمة حدتو» (حوار معه أجرى فى ١٩٧٢/١١/٢ فى بغداد) ويمضى الخميسى «لكن بداياتى السياسية كانت مع الحزب الوطنى، ومع سطوع نجمى كصحفى أصبحت عضوا فى اللجنة الإدارية العليا للحزب ويمكن القول إننى كنت آنذاك وطنيا متطرفا»، وسألته بشكل مباشر كيف أصبحت شيوعيا؟ فأجاب «فى عام ١٩٥٠ دعيت للانضمام إلى المجلس المصرى للسلام فوافقت على الفور خاصة أن سكرتيره العام كان يوسف حلمى وكان معى فى اللجنة الإدارية العليا للحزب الوطنى، وجاءت أحداث ١٩٥١ وتكاتفت أمور شتى، منها مصر الملتهبة بحماس وطنى جارف تبحث عبره عن طريق للخلاص ثم هناك علاقتى بالمثقفين اليساريين وخاصة حسن فؤاد، وبدأت القراءة فى الفكر الماركسى وكأن طاقة ضوء تألقت فى ذهنى وامتزج فى نفسى حس الشاعر الرومانسى مع عشق الوطن والأمل فى مستقبل سعيد لشعب بلادى.. وضمنى حسن فؤاد إلى حدتو».

وفى هذه الأثناء يموت الرفيق ستالين، وتصدر حدتو عددا خاصا من نشرتها السرية «الكفاح» وفيه مقال موقع باسم خالد محمد خالد وعنوانه «طبت حيا وميتا يا رفيق، وإلى جواره مقال بعنوان «وقفة الخشوع يا رفاق» والتوقيع حنفى، ولأن أسلوب الخميسى المتميز معلوم للكثيرين فقد عرفوا أن «حنفى» هو الخميسى وتأتى ثورة يوليو وتلتهب شرارة الصدام الأولى عبر كتابات الخميسى فى «المصرى» فيصدر مجلس الثورة قرارا بمنعه من الكتابة فيكتب بلا توقيع وينتهى الأمر بإغلاق المصرى، ويقبض على الخميسى.. وعن رحلة السجن يقول الخميسى فى حواره «استدعانى عبدالناصر من السجن وبدأ اللقاء بعتاب هادئ من عبدالناصر، عاجبك كده قلبت الدنيا علينا وانت اللى حركت جريدة المصرى ضدنا. وتسببت فى إغلاق المصرى وفى سجن كثيرين»، وفى مجرى الحوار سألته «لماذا أمرتم بفصلى من المصرى قبل إغلاقها فأجاب ببساطة السفارة الأمريكية هى اللى طلبت وحمل الطلب إلينا يوسف صباغ»، ويمضى الخميسى وتعلو نبرته الخطابية ونحن فى بيته فى بغداد ويقول «كنت أغلى من قبول الرضوخ للسفارة الأمريكية واحتدت كلماتى واحتد عبدالناصر، وانتهى اللقاء والغريب أن عبدالناصر أنهاه بسؤال «مش عايز حاجة؟ فقلت لأ، وأعادونى إلى السجن» ويبقى أن أروى أنا حكايتى معه، فيما الرجل يتألق كاتبا هو الأكثر شهرة نجحت حدتو فى أن تقوم بتهريب عديد من كوادرها الأساسيين من معتقل روض الفرج، أحدهم ضياء بدر قفز دون احتراز فكسرت ساقه التقطه لرفاق وضعوا ساقه فى الجبس ولكن أين يضعوه هو؟ وتقرر أن يأتوا به عندى فى شقة أقمت فيها أنا ومحمود العطار فى دير الملاك، ولأننا اضطررنا لترك القاهرة بعد انتهاء العام الدراسى كلفت أن أنقله إلى بيت عبدالرحمن الخميسى، أخذت ضياء فى تاكسى وتركته فى التاكسى أمام العمارة التى وصفوها صعدت إلى الشقة التى حددوها، طرقت. فتح الباب وأطل الخميسى الذى لا تخطئه العين، قلت ما أمرونى أن أقول «خالى حنفى موجود» وصعقت عندما جاء الجواب مندهشا «حنفى مين يا ابنى؟ كررت السؤال وكرر إجابة مشحونة بأداء تمثيلى أفزعنى فقررت أن أهرب وفيما استدير لأقفز على السلم جاءت ضحكة صافية «تعالى يا ولد» وصعدت بضياء والخميسى يقول «يا ابنى انت لسه صغير على الحاجات دى»، ونعود إلى السجن الوحشى والعذاب والتعذيب ويخرج الخميسى من السجن ليتألق وبلا حدود فى كل مجالات الفن.. يكتب مقالات ومسرحيات وأفلام

وسيناريوهات ويؤلف مقطوعات موسيقية ويخرج أفلاما ومسرحيات.. ويقول «كنت أكتب القصة والسيناريو وأخرج الفيلم وأعد الموسيقى التصويرية مؤكدا أن الفيلم بقصته وإخراجه وموسيقاه هو وحدة واحدة ككتاب لا يمكن أن يكتبه كاتبان، ويعلق الناقد الشهير عميد الإمام على فيلمه «الجزاء» أن الخميسى قد أكد لنا أن الفيلم المرتبط بالقضايا الوطنية يمكنه أن يحقق نجاحا شعبيا كاسحا. ويكون اكتشافه المثير لسعاد حسنى وتدريبه لها على التمثيل والغناء والرقص محققا لذات النجاح، وفى هذه الأثناء يتزوج من فاتن الشوباشى لكنها لا تلبث أن ترحل فى حادث حريق، ويخيم حزن كثيف على الخميسى ليعالج مأساته ممتزجة بمأساة وطنه وشعبه فيكتب قصائد من نوع..

«فاتن
إنى أمضى نحو الوحدة
فوق جواد الظلمة
فالوحدة خيمة معتزل
مغترب القلب»
ثم يمضى
كنا نغلق باب البيت علينا
نصنع من أحلام فؤادينا
دنيا أخرى تتفتح كالورد
أمام الثورة فى العالم
دنيا أخرى
لا يأكل فيها السلطان لحوم رعاياه
أو يقتل عسكره فى وهج الشمس رعاياه

ويأتى السادات وتأتى كامب ديفيد وتكون قصيدته عن سيناء فيطرد من الجمهورية ويصدر قرار بالقبض عليه فيفلت إلى بيروت ومنها إلى بغداد ثم إلى موسكو ويبقى ماركسيا حتى آخر قطرة من حياته

هذا الطريق عرفته، وقحمت فيه رماحه
وصخوره ذاقت دمى، لكن عشقت كفاحه

ويرحل الفارس الفنان، وتأتى فى منتصف الليل مكالمة من موسكو «الخميسى توفى ووصيته أن يقيم التجمع مأتمه ويتلقى رجاله العزاء وأن يقام له مدفن فى المنصورة حيث مراتع صباه ويوصى أن يتولى رفعت السعيد تنفيذ هذه الوصية».

ونحنى رأسنا احتراما وننفذ الوصية

صلاح حافظ (١)

سأله مأمور سجن الواحات متهكما «متى ستنتصر الحياة»؟ تعقيبا على عموده الدائم «انتصار الحياة» فرد ضاحكا ها هى تنتصر ألسنا ننتصر الآن على الصحراء وعلى الثعابين التى تملأ المكان وعليكم وعلى من أرسلوكم.
(من حوار بين صلاح حافظ ومأمور سجن الواحات)

منذ أن كنت فى الثانوية تعلقت بالعمود الدائم الاستقرار على صفحات مجلة روزاليوسف واعتدت كل اسبوع أن احتفظ به وتراكمت كشاكيل عديدة ملصوق على كل صفحة منها «انتصار الحياة».. واكتشفت أننى لست وحدى، فقد كان العمود مبهرا فهو يتحدث بمعلومات عن علوم الطبيعة والتشريح والحشرات ثم يعجنها وبمهارة شديدة الرشاقة مع قضايا السياسة وهموم الحياة، وكنت كلما ابديت اعجابى بهذا العمود لاحت ابتسامة ماكرة على شفتى الرفيق المسئول. واكتشفت بعد فترة أنه كان يعرف أن صلاح رفيقنا لكنه طبعا ممنوع من البوح بمثل هذه المعلومة، من المدرسة الثانوية إلى الجامعة ومنها إلى السجن، وهناك التقيت مع صلاح وعشنا معا زمنا تعددت فيه اقاماتنا لكنها جميعا فى السجون.

صلاح الشاب دوما والمبتسم دوما والهادئ دوما حكى حكايته ونحن نتمشى فى ساعات الغروب فى سجن جناح بالوادى الجديد ثم أكملنا الحوارات بأخرى وهو رئيس تحرير مجلة روزاليوسف.

الأب تعلقت كل آماله وهو الموظف البسيط المقيم بالفيوم بأن يصبح صلاح طبيبا، والأب يلح ويواصل الإلحاح ، وصلاح يستجب ليس عن رغبة وإنما لمجرد الاستجابة لرغبة الأب. ويحصل بالفعل على مجموع كبير جدا فى امتحان التوجيهية (الثانوية العامة) ويدخل كلية الطب. ويدرس الطب بملل ويقول «كنت اتجرع علوم الطب كدواء مرير، لكننى

كنت كمريض يعرف أن الدواء مهما اشتدت مرارته فهو ضرورى ويتقبل أبى أخبار نجاحى المتفوق بارتياح يدفعنى إلى مقاومة نزعاتى الأخرى وهى كتابة القصص القصيرة والعمل الصحفى وحتى الغناء» ويصمت صلاح ثم يقول «الا تتفق معى أن صوتى جميل؟» وبالفعل كان صوته جميلا ومفعما بالحنان وبه أمتعنا فى أكثر الزنازين وحشة وظلمة ، ونشر صلاح أول قصة قصيرة ويتلقاها الأب بفزع وغضب وثار فى وجه صلاح وهدده. فدراسة الطب لا تحتمل شريكا آخر. هنا تمرد صلاح ورفض التوقف عن الكتابة ورفض الأب أن يرسل أى نقود.. وترك صلاح كلية الطب ليعمل فى معسكرات الانجليز بالتل الكبير وهناك التقى بفنان عاكسته حياة الموسيقى والالحان فعمل هو ايضا فى «الكامب» بالتل الكبير وهكذا امضى صلاح ليالى طويلة، وهو يستمع إلى عزف محمد الموجى على العود ويغنيان معا ويتقنان معا فنون الأداء، وبدأ كل منهما يبنى أحلامه المستقبلية فى غمار الموسيقى والعزف على العود والغناء. لكن الأب لا يمل من البحث عن ابنه ويمسك به متلبسا بالعمل كصنايعى فى الكامب الانجليزى. ولأن الأب قليلا فى المفاوضات مع الابن. وقال «إكتب قصصا ولكن واصل دراستك بتفوق فى كلية الطب. وفى الكلية من جديد تلاقى ثلاثة كل منهم يكتب القصة ويبحث عمن ينشرها «صلاح حافظ- يوسف إدريس- محمد يسرى أحمد». ويجيبنى صلاح عندما سألته من هو محمد يسرى أحمد؟ فيقول «كان الأفضل منا نحن الأثنين فى كتابة القصة القصيرة، كان كاتبا أكثر من رائع، لكننا ونحن نكتب القصة، ونبحث عن جريدة أو مجلة لنشرها عثرنا على خيط دفعنا إلى منظمة حدتو ومع بداية الضغوط البوليسية على الشيوعيين. كان محمد قد تخرج وآثر السلامة وسافر إلى السودان». ويؤكد «كان أرقى موهبة منا وكانت قصصه رائعة فعلا، تفوق على وعلى يوسف إدريس بمراحل كثيرة، واعترفنا له بالزعامة، لكنه وفيما يبدو اطفأ شعلة الإبداع فى داخله بتخليه عن القضية، نحن أنا ويوسف صقلنا موهبتنا فى خضم نضال ثورى، فأنت لا تستطيع أن أن تصبح فنانا حقيقيا إذا لم تكن تدافع عن قضية».

وفى إحدى أمسيات سجن المحاريق (بالوادى الجديد أيضا) جلسنا فى زنزانة مغلقة جمعت صلاح وحسن فؤاد وعدداً من الرفاق وأنا منهم. وكان الجميع يعرفون أن الرسام حسن فؤاد هو الأب الروحى لقسم «الأدباء والفنانين» فى منظمة حدتو، وكنا نعرف أن عديداً من ألمع الأسماء التى سطعت فى سماء الكتابة الصحفية. والقصص والمسرح

والكاريكاتير والرسم التشكيلى قد عبرت طرق الفن وطريق النضال معا على يد حسن فؤاد. ويحكى حسن فؤاد وهو يضحك وصلاح حافظ يسبقه فى الضحك فى عام ١٩٤٨ كنت أعمل سكرتيرا لتحرير جريدة المسائية وكان رئيس التحرير كامل الشناوى ودخل شاب نحيل، متردد، خائف يحمل فى يده كومة أوراق ، وقال فى خجل أنا كاتب قصة ومعى عديد من القصص أريد نشرها، ولأن الصحف كانت تعانى من كثرة المترددين الراغبين فى نشر ما لا يستحق النشر، فقد قال كامل الشناوى لى شوف الواد ده عايز ايه». تأمل حسن فؤاد قصة فأعجبته والأخرى فأذهلته. وكان حسن فؤاد يمتلك الموهبة والرغبة فى اكتشاف كل من يمتلك قدرة على الإبداع وفى تنمية قدراته الإبداعية وفى فتح طريق النشر أمامه. فأمسك بالفتى النحيل ولم يتركه. ودفع به إلى ميدان الصحافة وظل يدفعه من جريدة لأخرى «النداء» ثم «القصة» ثم «روزاليوسف» حيث تألق عموده الرائع «انتصار الحياة» وظل صلاح محافظا على وعده لابيه يكتب ويتألق ويدرس وينجح مقتربا من أن يصبح طبيبا. لكن للحياة منطقها. فصلاح انتقل من خلية كلية الطب إلى قسم «الأدباء والفنانين» فى حدتو وهنا عاش مع كبار المبدعين فى مختلف المجالات.. وهناك ايضا مارس نضالا منحه الأمل فى نضال أكثر وأكثر.. وكان صلاح قد وصل إلى مرحلة البكالوريوس، يوسف إدريس تخرج ومحمد يسرى أحمد تخرج وسافر إلى السودان، وهو يجد نفسه وقد أصبح كاتبا مشهورا بفضل عموده الرائع وينغمس أكثر فأكثر فى الكتابة وأكثر كثيرا فى النضال السياسى لينزوى أمل أبيه.. لكن الأب يصمم والابن يماطل.. حتى تمضى الحياة كلها بالأب والحياة كلها بالابن دون أن يحصل على البكالوريوس . لكن الأب ظل مصمما حتى آخر نسمات الحياة بأمله. فهو يمطر ابنه فى سجن جناح ثم المحاريق برسائل بريدية والعنوان «الابن العزيز الطبيب والنطاسى البارع الدكتور صلاح حافظ» ويبتسم صلاح معتذرا لأبيه.

لكننا لم نزل فى ساحة صلاح حافظ فإلى لقاء معه.

صلاح حافظ (٢)

فى أحد اجتماعات اللجنة المركزية المؤقتة طرح أحد الجالسين أن شخصا ما اتصل به وقال إن جهة أجنبية ما ترفض الافصاح عن نفسها مستعدة لمنحنا تمويلاً ضخما بشرط أن نصعد من هجومنا على جمال عبدالناصر.. ورفضنا بالاجماع وبعدها طلبت سيجارة من أحد الجالسين، واكتشفنا جميعا أنه ليس معنا سجائر وليس معنا مليم ومع ذلك صممنا على قرارنا بالرفض لأى معونة أجنبية.

صلاح حافظ (فى حواره معى)

وجاءت ثورة يوليو. وكان بعض قادتها وخاصة عبدالناصر معجبين بهذا الصحفى الشاب صاحب «انتصار الحياة» ولم يكونوا قد اكتشفوا انتماءه الفكرى، وفتحوا أمامه صفحات مجلة «التحرير» وكان يرأس تحريرها أحمد حمروش (وكان أيضا ضمن الضباط الشيوعيين فى الجيش) ويتألق صلاح أكثر فأكثر لكنه هو وحدتو ما لبثوا أن تعالت مطالباتهم بالديمقراطية، وتغلق مجلة التحرير وتبدأ الحملات الشرسة ضد حدتو وتتوالى حملات القبض وفى أغسطس ١٩٥٣ كانت أوسع حملة قبض فى تاريخ الحركة الشيوعية، لكن حدتو واصلت رغم الحملات المتتالية ثم كانت حملة كبيرة أخرى فى ديسمبر ١٩٥٣ شملت عشرات من الكوادر ومنهم آخر من تبقى من أعضاء اللجنة المركزية (أحمد طه - محمد خليل قاسم) وأعضاء عديدين من التنظيم ومن رابطة الطلبة الشيوعيين وتنفس عبدالناصر عميقا فقد تخلص من هؤلاء الذين أرهقوه بالمطالبة بالديمقراطية لكن صلاح حافظ (الرفيق دبوس) التقى رفيقين آخرين محمود توفيق وإبراهيم خلاف وشكلوا معا ما سموه اللجنة المركزية المؤقتة.

وكان محمود توفيق وإبراهيم خلاف محترفين ومختفيين عن أعين البوليس أما صلاح فقد وجد نفسه عبئا عليهما بمهنته كصحفى فى روزاليوسف، يعيش علنيا ويذهب للجريدة يوميا بما يهدد أمن رفيقيه، وببساطة اختفى وترك المهنة التى أحبها والتى ضحى من أجلها بمواصلة

دراسة بكالوريوس الطب وضحى برضاء الأب واتخذت اللجنة المركزية المؤقتة خطأ شديد التشدد فى مواجهة العسف الناصرى، وكلما ازداد النظام تعسفا كلما إزدادوا هم تشدداً، وبرغم كل شىء نجحت القيادة الجديدة فى توسيع نشاطها وزادت من عضوية حدتو وجمعت كثيرين من الأعضاء القدامى وأصدرت عديدا من المطبوعات، لكنها كانت فى هذه المرة الأكثر أناقة وجمالا انها لمسات الصحفى الفنان. ونجح الرفيق دبوس ولأول مرة فى اصدار نشرة «الكفاح» مزينة برسوم كاريكاتيرية وبورتريهات وقفشات لاذعة وتمادى الخط السياسى فى التشدد حتى وصل إلى فكرة الكفاح المسلح ضد الدكتاتورية العسكرية، ويروى صلاح فى حواراته معى وهو يضحك «أصدرت قراراً للرفاق بشراء سلاح أو جمعه من أى مكان وكانت الحصيلة تقريبا لا شىء وذات يوم أتى كمال القلش إلى أحد الاجتماعات ومعه طبنجة محلية الصنع، كان شكلها بائسا ولكن المشكلة الأكبر أن كمال نسى أو لم يجد ذخيرة للطبنجة ومع ذلك ظللنا نحلم بالكفاح المسلح» ويصمت ثم يقول «المشكلة اننا كنا مفلسون تماما، وكنت أبعث من حين لآخر إلى زملائى فى روزاليوسف بواحدة من «انتصار الحياة» وتأتينى منهم قروش هزيلة وأسأل نفسى هل أرسلها إلى زوجتى وابنى شريف وابنتى المولودة حديثا تحية أم أشترى طعاما لى وكام علبة سجاير، وأرسل النقود لزوجتى واعيش «خرمانا» حتى ألتقى رفيق وأطلب سيجارة وأخرى ثم ثالثة. وفى هذا الوقت حاولت جهة أجنبية أن تدفع لنا مالا طائلا نظير تصعيد نضالنا ضد عبدالناصر، وقررنا ان نصعد نضالنا وأن نرفض أن نمد يدنا لأى جهة أجنبية وعشت خرمانا»، وأخيراً طالتهم يد الأمن ولكن بعد أن استقام عود حدتو من جديد، وفى المحكمة كان الرفيق دبوس يتألق وعاد صلاح حافظ الهادىء المبتسم واللاذع فى آن واحد ولقن القضاة دروساً فى الوطنية والديمقراطية وحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات اشغال شاقة ومن سجن إلى سجن حتى التقينا فى الواحات وفى السجن كان صلاح الأكثر تألقا يلقى محاضرات، يدرب الرفاق على الكتابة والعمل الصحفى ويمتع السجن كله بأغان جميلة ونكت رائعة وكان فى نفس الوقت يعكف على كتابة رواية طويلة أسماها «الرحلة» لكن المأمور الذى أغاظه صلاح بقوله نحن ننتصر عليكم وعلى من أرسلوكم ظل يتلصص على صلاح وفيما هو يتم روايته اقتحم الخيمة فجأة وأخذ المخطوطة وأسرع بها إلى مبنى الإدارة وقبل أن يلحق رفاق يسترضونه ليحصلوا على الأوراق كان قد أحرقها. ولم يغضب صلاح ودخت عليه لأواسيه فوجدته قد أحضر كشكولاً وبدأ فى كتابتها من جديد وقال وهو يبتسم إشكر نيابة

عنى هذا الرجل فأنا سأكتبها أفضل مما كانت. وقد كان. أتم الرواية ونسخناها على ورق البافرة وتم تهريبها إلى الخارج. لتطبع بعد فترة طويلة ولتتحول إلى فيلم بذات الاسم وبعد فترة نقلونا إلى سجن جديد «المحاريق» فى الصحراء أيضا لكنه مبنى من عنابر وزنازين. وأوامر ونواه وذات يوم وبدون مناسبة أتى المأمور ورجاله وضربوا الجميع ضربا مبرحاً ووحشياً. وأغلقت الزنازين بعد حفلة تعذيب وحشى بعدها استفسر أحد الزملاء من المأمور «لماذا؟» فأجاب ببساطة «أبداً لقيت نفسى زهقان فقلت أتسلى». كان المأمور قد ترك زوجته وطفليه الذين أتوا لزيارته فى الاستراحة الخاصة به والولدان وجدا علبة دواء للضغط فابتلعا ما فيها وأوشكا على الموت وأتى المأمور باكيا. ولم يجد سوى صلاح وعدد من الأطباء أسرعوا وأنقذوا الطفلين وأصبح المأمور شخصا آخر بعد سهر صلاح أياما مع الطفلين حتى شفيا تماما. وذات يوم جاءته مع إحدى الزيارات رسالة تقول كامل الشناوى التقى عبدالناصر وطلب من الرئيس الافراج عن صلاح.. وتباسط الرئيس وقال حاضر ياسيدى سيخرج علشان خاطرك وبعد أشهر ونحن فى الانتظار للإفراج الذى لم يأت جاءت رسالة بالبريد من كامل الشناوى تقول فى تهكم «ياولد يامجرم مش عيب تخرج من السجن وماتقوليش» وعرفنا فيما بعد الحكاية فقد التقى كامل الشناوى الرئيس ثانية وقال له: ياريس حضرتك نسيت موضوع الافراج عن صلاح فرد عبدالناصر خرج. وحاول كامل بك أن يقول أنه لم يخرج لكن عبدالناصر شخط فيه «بقول لك خرج». وسكت كامل الشناوى.

ويخرج الجميع فى ١٩٦٤ ونلتقى معا فى «أخبار اليوم» وتتوثق علاقاتنا أكثر.. وتفرقت سبلنا هو إلى رزواليوسف وأنا مطروداً مع من طردوا بعد إبعاد خالد محى الدين من أخبار اليوم، وفيما نبدأ فى إصدار الأهالى كان صلاح أول اسم يخطر ببالنا ابتسم صلاح وقال بصراحة لو لم تعرضوا على كنت سأغضب جداً، لكننى أعتذر فأنا ملتزم ومرتبط باسم روزا. وفيما كنت سجينا بعد أحداث يناير ١٩٧٧ نشر صلاح مقالا ساخنا جدا دفاعا عنى، وغضب السادات وبعد الافراج زرته لأشكره فثار غاضبا غضبا مجنونا كيف تشكرنى يابنى آدم. وحاولت ان أصالحه لكن لا جدوى فقد غضب ولم نتصالح إلا على فراش المرض. زرته قبل رحيله بيوم ضحك واهنا وقبلنى وقال حقك على. وشد على يدى قائلا شدوا حيلكم. ورحل.

محمود المناسترلى

كنت ضابطا فى السجن الحربى، وكلفت من قيادة ثورة يوليو أن استعد لاستقبال الضباط أعداء الثورة. وبعدها بفترة وعندما انقلب عبد الناصر على حلفاء الأمس من الشيوعيين. أخذوا منى مفتاح الزنازين وادخلونى فى زنزانة واغلقوا الباب على. وهكذا تحولت من سجان إلى سجين.

محمود المناسترلى (فى حوارى معه)

عندما أتى محمد على باشا إلى مصر، أتى معه عدد من الضباط لعل أشهرهم كان حسن باشا المناسترلى الذى أصبح واحدا من صناع العسكرية المصرية، وأصبح بالضرورة كقائد كبير فى جيش الوالى مالكا كبيرا وارستقراطيا مرموقا. ويتوالى مسلسل العسكرية فى الأسرة فابن حسن باشا هو محمود فؤاد بك المناسترلى ويتمرد الحفيد محمد بك كمال المانسترلى على النزعة العسكرية، فقد تغلبت عليه نزعات رومانسية دفينة. تخرج من مدرسة الزراعة العليا ولم يتوظف فالأصل ألا يتوظف الارستقراطيون ليعملوا فى مكان واحد مع ابناء الفلاحين، واكتفى كمال بك بالعناية بزهور حديقة القصر الرائع الذى يعيش فيه والمتربع حتى الآن فى أجمل بقعة من نيل القاهرة عند مقياس الروضة، وأمضى وقته بين زهوره والعزف على العود والرسم والقراءة فكان وباختصار ارستقراطيا حقا . أما الابن محمود فيمرح فى ربوع هذا القصر الفخم ويدخل المدرسة الناصرية مدرسة ابناء الذوات فى هذا العصر. وتصاب الأم بالربو ونصح الأطباء بأن تعيش فى حلوان حيث الجو جافا، وفى مدرسة حلوان الثانوية التقى محمود ارستقراطيا آخر هو أبو بكر حمدى سيف النصر ابن وزير الحربية وهو ايضا من اصل تركى وذا قرابة بالاسرة المالكة. والطالب محمود يعيش كأى ارستقراطى خلى البال يلعب الهوكى والملاكمة وكرة القدم ثم يهوى بعد ذلك جمع طوابع البريد وتربية العصافير الملونة، وعندما

حصل على شهادة الثقافة وطلبت الكلية دفعة استثنائية بشهادة الثقافة تقدم وقبل على الفور فجده مؤسس المؤسسة العسكرية المصرية ووضعه الارستقراطي يرشحه ،هو رياضي مرموق وفوق هذا وذاك هو وساطة حمدي باشا سيف النصر وزير الحربية، ويتفوق محمود في الكلية ويتخرج ويكون ترتيبه الأول على الدفعة ويوزع على السلاح الذي اعتاد أن يضم ابناء الارستقراطية «سلاح الفرسان» وتأتي حرب فلسطين فيحارب بشجاعة لفتت إليه الانظار لكنه عاد ككثير من ضباط الجيش ممتلئا غيظا وسخطا على فساد الأسلحة وفساد القيادات وفساد التخطيط العسكري. وأصبح وضعه قلقا فلا الهوكي يغريه ولا زي الفرسان المغري يستهويه، أما وضعه الارستقراطي فقد أصبح عبئا عليه، وفيما هو مغلف بالحيرة أتاه صديق العمر أبو بكر حمدي سيف النصر بمصباح علاء الدين. جلسا معا جلسات طويلة حيث عرض عليه فكرا جديدا ورؤية جديدة لمستقبل مصر وشعبها وحلولا مقنعة للمشكلات الاجتماعية، حتى فساد الأسلحة وفساد القيادات العسكرية وعجزها فك طلاسمه ونسبه إلى نظام اجتماعي فاسد بأكمله، وباختصار أصبح سليل الارستقراطية العريقة اليوزباشي محمود المناسترلي شيوعيا وعضوا في قسم الجيش التابع لمنظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو). وحافظ محمود على هذا السر فوضعه كضابط وصرامته العسكرية التي ورثها عن أجداده فرضت عليه أن يخفي سره حتى على زوجته خالدة (ابنة خالته وحبيبته منذ فجر الشباب) وحتى على أخيه ابراهيم الذي يعرف الجميع إنه كادر أساسي في حدتو. ويبقى العسكري عسكريا حتى صدر له قرار بأن ينضم إلى تنظيم الضباط الأحرار والاجابة تمام= يا افندم، وانضم إلى مجموعة الفرسان تحت قيادة خالد محيي الدين.

وفي أحد الاجتماعات عرض خالد محيي الدين مشكلة وهي أن منشورات الضباط الأحرار التي كانت ترسل بالبريد إلى ضباط الجيش في مختلف الأسلحة كان الأمن يصادرها فقد اكتشف أن العناوين تكتب بالآلة الكاتبة تلافيا لأن يتعرف خبير الخطوط على اسماء الضباط الذين كتبوا العناوين والمطلوب هو أن يتطوع ضابط غير معروف بانتمائه للاحرار بكتابة العناوين بخطه وتطوع محمود واثنان من الضباط الشيوعيين، وكانت المهمة خطيرة لكن اليوزباشي كان يفيض حماسا وجرأة. ثم يكلف من حدتو بالحصول على أسلحة وذخيرة تحتاجها كتائب «الأنصار» التي شكلها التنظيم للقتال في

منطقة القنال ضد الاحتلال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ثم طلب منه تدريب الرفاق فى كتائب الانصار وفعل كل ذلك بكفاءة وحماس وسرية تامة. وتأتى ليلة ٢٣ يوليو (١٩٥٢) وهو ضابط فى السجن الحربى ويكلف من قيادة الثورة بتأمين السجن استعدادا لاستقبال أعداء الثورة، ثم تتراكم مساحات التباعد بين حدتو وثوار يوليو. اعدام خميس والبقرى، القبض على عدد من الرفاق، ويفاجأ محمود برفاق من قيادة حدتو فى زنازين السجن الذى يقوم بالعمل فيه وفكر فى أن يستقيل أو أن يطلب نقله لكن امرا من القيادة الحزبية أتاه بالبقاء ليكون همزة وصل بين الرفاق المسجونين عنده ورفاق الخارج. وتأتى هبة مارس ١٩٥٤ ويقف مع ضباط الفرسان تحت قيادة خالد محيى الدين ويجاهر بمساندته لهم ضد مجموعة جمال عبد الناصر، وعندما يمسك عبد الناصر بزمام الأمور يصدر قرارا بإحالة اليوزباشى محمود المناسترلى إلى الاستيداع، ثم أخذوا منه مفتاح زنازين السجن الحربى ووضعوه فى واحدة منها، وأصبح سجينا لكن اصدقاءه الضباط يغضبون فيتقرر تحديد اقامته فى بيته وهنا فقط عرفت خالده واخوه ابراهيم أن محمود شيوعى، وكان معاش محمود ٢٨ جنيها وبها كان يتعين أن يعيش الارستقراطى، ورفض محمود بكبرياء أن يطلب عملا كما فعل ضباط كثيرون اصبحوا سفراء أو كبار موظفين ورفض بكبرياء أن يتدخل أى انسان ليطلب له ذلك،

ويأتى العدوان الثلاثى(١٩٥٦) ويتولى قيادة المتطوعين زميل قديم فى الجيش هو كمال رفعت ويرتدى محمود الكاكى من جديد، وفى طويحر أقام محمود وزملائه معسكرا ليحموا بوابة مصر أمام أى عدوان يأتى من المحتلين فى بورسعيد أو المحتلين فى سيناء. وينتهى العدوان فيخلع الكاكى ويعود ليمارس نشاطه السرى. وفى ١٩٥٩ يقبض عليه ويقدم مع عديد من الرفاق أمام محكمة عسكرية، استشعر ضباط المحكمة الحرج فهم أمام زميل لهم، شارك فى صنع الثورة وشارك فى صد عدوان ١٩٥٦ وهو يتحدى كل شىء بكبرياء وشجاعة ومع ذلك حكموا عليه بالسجن ثمانى سنوات اشغال شاقة. واستشعر عبد الناصر الحرج أمام بقية الضباط الأحرار فلم يصدق على الحكم ثم أفرج عنه بعفو صحى. هو الآن خارج السجن مرة أخرى ومرة أخرى يلتقى زملاء العمل من الضباط الاحرار كمال رفعت- الجيار- صلاح زعزوع وغيرهم، كانوا يتولون مواقع مهمة ويلحون عليه فى أن يكتب لعبد الناصر طالبا وظيفة أو على الأقل زيادة المعاش ويرفض. ويظل

يبيع ما ورثه قطعة قطعة ليعيش فى مستوى يغيظ به عبد الناصر. وعندما يؤسس خالد محيى الدين المجلس المصرى للسلام يعمل معه محمود بكفاءة وإخلاص.

وفى عام ١٩٦٤ يفرج عن الشيوعيين ويتقرر توظيفهم ويجدها كمال رفعت فرصة لإحراج عبد الناصر نحن نوظف الشيوعيين فلماذا لا نوظف زميلنا فى الضباط الأحرار؟ ويعين محمود مديراً فى شركة العبوات الدوائية.

وتمضى الأيام والفارس يسهم بإخلاص وحماس فى المجلس المصرى للسلام ويعيش على الدوام حلم الاشتراكية الجميل، وعندما يقع الزلزال الاشتراكى وتدخل الاشتراكية فى محنة انهيار الاتحاد السوفيتى يغلفه حزن عميق لم ينقطع. كان دوما مبتسما فاختفت الابتسامة، وكان قادرا على أن يتغلب على الحزن لكنه هذه المرة أراد وعن تصميم أن يهزمه الحزن. ورحل محمود المناسترلى وهو لم يزل يحلم بأن يسترد حلمه الجميل، الاشتراكية.

محمد الزعفراني

ظل رفعت السعيد يراسلني برسائل على ورق البافرة موجها الحديث إلى «عزيزتي سونيا» وبرغم دهشتي لهذا الاختيار، إلا أن حسن المصيلحي قائد البوليس السياسي الشهير قد وقف مرتبكا أمام المجلس العسكري العالي عندما أتى ذكر واحدة من هذه الرسائل ضبطت مع أحد المتهمين..

الفريق هلال سأل من هي سونيا؟ ثم فين سونيا؟ فقال المصيلحي فشلنا في العثور عليها يا أفندم.

«محمد الزعفراني - في حواره معي»

عندما التقيت محمد الزعفراني كنت قد خرجت من سجن طويل منذ يوم واحد فقط إذ اصطحبني محمد حجازي في جولة على رفاق كان من المفترض أن أتعرف عليهم وأن أتعامل معهم، مررنا على محل شحاتة النشار في شارع السد، ثم دار الغد في شارع شريف حيث التقيت إبراهيم عبدالحليم، ثم إلى شارع الأزهر حيث عمارة الأمير طلال صعدنا دورا واحدا لنجد مكتبا صغيرا مليئا بالعديد من البالات ورجل مبتسم دوما وزوجة شديدة النشاط حتى يخيل إليك أنها هي التي تدير كل شيء، الرجل هو محمد الزعفراني، هو والمكان يوحيان لك أنك أمام تاجر نصف ميسور والزوجة هي كريمة أو كما كانوا ينادونها «أم أحمد»، جلسنا، شربنا القهوة، أتى العديد من الزبائن، محمد يعقد الصفقات بسرعة ويسر وابتسامة وكريمة تنجز كل شيء، وغادرتهما، ولكنني عدت بعد عدة أيام فقط، ففي صباح أول يناير المبكر كنت على موعد في منزل مبارك عبده فضل لأحضر أول اجتماع تنظيمي لي، هو اجتماع اللجنة المركزية الذي صدر قرار بتصعيدي لها قبل خروجي من السجن، وفي البيت خرجت الزوجة النوبية وابنتها ماجدة بين أقدامها الاثنتين تبكيان، الزوجة أشارت بيديها امشي بسرعة قبضوا على مبارك، ومشيت، تمشيت على

قدمي حتى دار الفكر وفي المدخل استقبلني بواب نوبي سألني متجهما: على فين؟ قلت دار الفكر: فقال مشيرا بيديه إمشى البوليس فوق مستنى أى حد ييجي، ساعتها أدركت خطورة الأمر، تمشيت حتى شارع السد لأجد الأب حزينا وقال امشي شحاتة اتمسك، وأحسست أنني في قفص أشد قسوة من الزنزانة.. ولم يبق سوى محمد الزعفراني يكون كهمزة وصل مع الحزب،ولست أدرى لماذا كنت متعجلا لإيجاد همزة الوصل هذه، تمشيت إلى ٩٠ شارع الأزهر وهناك كانت كريمة مبتسمة ورحبت بي بحرارة.. فلم تكن تعلم شيئا، قلت لها، فقالت ننتظر محمد، وتوالت المعلومات عن عديد جرى القبض عليهم.

وحضر محمد، وبدأنا حوارا تركز حولي: ماذا أفعل؟ هل أعود للبيت حيث نظام المراقبة الليلية من الغروب حتى الفجر وحيث الصول الذي يصرخ عاليا ليجبرك على تخفيض صوته برشوة يومية «فين المراقب فلان» أم أتحدى ذلك وأترك أبي وأمي وإخوتي الذين تجمعوا كي يستقبلوني خارجا من السجن؟ ترددت، لكن محمد كان يستحثني ويلح الحزب قبض على كثير من كوادره ونحن بحاجة إليك، المهم انتصر محمد، وبدأ الحوار أين سأعيش حال هروبي، كريمة اقترحت منزل عائلتها في أبي زعبل، والمكان ملائم جدا لكنه بعيد والانتقال اليومي منه وإليه شديد الخطر، وأخيرا تقرر أن أقضي أياما في بيتهم في شارع طلعة الرفاعي بالقلعة، ومنذ الليلة الأولى بدأنا سلسلة اجتماعات محدودة لاتعرف على من بقي من القادة.. وكانت المعلومات مخيفة فالضربة البوليسية أوسع مما توقعنا، والغريب أنها تركزت على رفاق حدتو أكثر من المنظمات الأخرى، رغم أن حدتو كانت تؤيد عبدالناصر بعكس المنظمات الأخرى، ولعل هذا هو السبب فالأمن أراد قطع سبل التفاهم بين الطرفين.

وكانت أمامنا عدة مشاكل، أجهزة الطباعة سقطت في يد الأمن، وكذلك المسئولون عنها، وكثير من القطاعات فقدنا الاتصال بها.

وفيما نجهد أنفسنا في النقاش اتفقنا أن نبدأ بالقاهرة وبأجهزة الطباعة، واتفقنا على فكرة غريبة وهي أن نجمع الرفاق في ثلاث مجموعات مستقلة تماما عن بعضها البعض، وأن نقتسم الاتصال بقياداتها، وداخ محمد السبع دوخات حتى تعرف على ملامح من تبقى من كوادر. وأخيرا تأسست قيادات الثلاث مجموعات عبر نشاط مكثف وشديد الكفاءة. ولأنني لا أعرف أحدا كان محمد هو المنظم والمنسق واللاعب الأساسي، قيادة

المجموعات الثلاث كانت: الأولى قدرى شعراوى – ليلى الشال – مارى بابا دوبلو. والثانية طه دياب – سعاد زهير – مجدى نصيف – على حنيطر والثالثة: أحمد عزالدين – محمد حسن جاد(برق) – عبدالله إسماعيل، وكانت هناك مجموعة طلابية كبيرة جدا يقودها حسين عبدربه – فتحى مجاهد – سمير عبدالباقى – السيد يوسف، لكن الزعفرانى اقترح ألا نتلامس معها إلا بحرص شديد لأن الأمن يركز عليها محاذرا من مشاركتها فى مؤتمر شباب آسيا وأفريقيا الذى كان منعقدا فى جامعة القاهرة، وتجلت كفاءة التاجر الشاطر فى تصرفات محمد الزعفرانى فلديه حلول لكل شىء، سمع أن ثمة جهاز طباعة متوسط الكفاءة مخزن فى إحدى قرى الغربية فأرسل محمد حسن جاد الذى أحضره ثم أتى بمن يصلحه، ثم اختار طه دياب للتدرب عليه، ومارى باباديلو لتكون مسئولة الاتصال بالجهاز ثم شقة صغيرة فى أطراف الجيزة، وبسرعة فائقة صدرت المطبوعات الحزبية التى تحولت على الفور إلى مشكلة حقيقية فنحن لا نستطيع أن نغير الخط السياسى الذى يدعو إلى دعم معارك عبدالناصر ضد الاستعمار والصهيونية ولكن قواعد الحزب تفجرت فى وجهنا رغم أننا أضفنا عبارات شديدة اللهجة ضد مؤامرة الأمن الذى يحاول الوقيعة بين الحزب وعبدالناصر، وجاءت رسالة من كمال عبدالحليم اضطررنا إلى طباعتها وتوزيعها فهو المسئول السياسى رغم اختفائه وعدم قدرتنا على مقابلته، ويقرأ محمد الزعفرانى الرسالة ساخطا وأنا مثله وفيها أن حزبنا يعانى من وضع يشبه ثمرة بين فكى كسارة البندق أحد أطرافها نظام وطنى لكنه يطاردنا ويسجننا، والطرف الآخر هو ضغوط القاعدة الحزبية التى تطالب بالهجوم الواضح على الديكتاتورية العسكرية وبتأييد ثورة العراق التى ناصبها عبدالناصر العداء، وازدادت القاعدة التهابا إلى درجة أن محمد الزعفرانى اقترح أن نكف عن التحليلات السياسية وأن نكتفى بالنضال العملى وأخباره، وفى ظل ذلك الارتباك كان الأمن يواصل تمشيط مواقعنا ومع تواصل النشاط وتدفق المطبوعات التى كان محمد يشرف على طباعتها وتوزيعها. وفى نفس الوقت اقتحم الزعفرانى وبجسارة مجال العمل الجماهيرى فقد رشح عددا من الرفاق لعضوية لجنة قسم الاتحاد القومى بالخليفة، وربما كانت المرة الأولى فى تاريخ الانتخابات التى تشكلت فيها مجموعات من راكبى الدراجات يرتدون زيا موحدا عبارة عن تى شيرت صممه وصنعه الزعفرانى وحمل شعارات انتخابية لزملائنا كانت حرية – اشتراكية – عدالة وانزعج الأمن وشن سلسلة حملات أخرى طالت

كثيرا من رفاقنا بالخليفة ومنهم أحمد عزالدين وعبدالله إسماعيل، ثم أمسك الأمن بالخيط الرئيسى وهو محمد الزعفرانى فقبضوا عليه ليعتقل فى أسوأ سجون الناصرية وأشدها وحشية وهو ليمان أبوزعبل حيث صمد مع الصامدين الشجعان ثم إلى الواحات، حتى يفرج عنه مع الجميع ليبدأ رحلته من جديد ويبنى بكفاءة نادرة صرحا من مصانع التريكو ويظل دوما كما كان منذ عرفته على ولاء للمبدأ والالتزام بتقديم مساعدات مالية لحزب التجمع، حتى يرحل.

سيد حميدة العشرى

منذ بدايات طفولتى علمنى أبى أن أتحدى الجميع، وأن أتفوق على الجميع، ومعيار التفوق هو أن أحفظ القرآن، فى الصبح أذهب إلى الكتاب، وطوال ما بعد الظهر أجلس أمام دكان أبى ومعى شيخ أحفظ معه القرآن، وعندما بلغت الخامسة والنصف ختمت حفظ القرآن، وامتلأ أبى زهوا، أما أهل القرية فقد أسمونى وعن حق «الشيخ» سيد.
«من حواره معى»

الأب فلاح صغير، فدانان ونصف الفدان هى كل ما يمتلك، والحياة فقيرة والمال قليل لا يكفى، فتحدى الفقر وافتتح محلا لتجارة الأقمشة، لانت الحياة قليلا لكن هم الفقر لم يزل جاثما، فتجار الفقراء هم أيضا فقراء، وسكان قريته «القطورى» مركز العياط يعيشون الفقر الحقيقى الذى يجعل من شراء قطعة قماش لجلباب للرجل أو زوجته أو أولاده ترفا، لا يكون إلا فى عيد أو زواج. ويمضى الأب جادا يقضى كل وقته فى عمل مضن من الصباح الباكر فى الغيط ثم بقية اليوم فى الدكان ومع ذلك فإن الخبز يكفى الأولاد بالكاد، ويكبر سيد فى المدرسة الأولية ومنها إلى مدرسة بنباقادن الابتدائية ستين كيلو مترا يقطعها الطفل يوميا ذهابا ثم إيابا، وفجأة اكتشف الأب أن العناد لم يعد ممكنا، حسبها كأى تاجر، باق أمام الولد سيد ثلاث سنوات فى الابتدائية ثم خمس فى الثانوية ثم أربعة فى الجامعة.

وأيقن أنه لا أمل له فى إنجاز هذا المشوار، وحزم أمره وذهب إلى المدرسة سحب أوراق الولد سيد ليقدمها فى مدرسة المعلمين الأولية فى امبابة، وبهذا ضمن أن يتخرج سيد سريعا ثم يعمل سريعا كمدرس إلزامى.

لكن سيد صاحب الإرادة التى مكنته من حفظ القرآن كاملا وهو فى الخامسة والنصف لم يكن راضيا، بل إن الأب حتى لم يبلغه بشىء، فجأة قال له من الغد ستذهب إلى مدرسة

المعلمين بامبابة، كتم الولد غيظه فالأب صارم وحازم، وأمضى سيد خمس سنوات فى دراسة لم يحبها، ولم يبق سوى شهرين على تخرجه مدرسا وهنا اتخذ سيد قرارا حازما، لن يمتحن فى دبلوم المعلمين، ووضع نفسه أمام الأمر الواقع، فتوقف عن الذهاب إلى المدرسة وتوقف عن المذاكرة واكتفى بقراءة روايات وقصص وكتب رافضا ما أسماه فى حواره معى «المستقبل بلا مستقبل» وفجع الأب إذ أتاه خطاب من المدرسة يبلغه بحرمان ابنه من الامتحان بسبب الغياب، أسرع الأب ليجد الابن وقد تمسك بإصرار لا يلين.. بالثانوية ثم الجامعة ولا شىء آخر، قال له الأب إن أمامه أحد خيارين إما فلاح فى الغيط وإما مدرس إلزامى، ورفض الابن، تصادم سيفان لا أحد منهما يلين أمام الآخر، قطع عنه المصروف أما هو فقد انقطع للمذاكرة وبالفعل تأجج حماسا من ذات النوع الذى حفظ به القرآن، وعوض كل ما فاته بأنه حصل فى قفزة واحدة على الابتدائية منازل فى عام ١٩٤٩، وهنا رضخ الأب لإرادة الفتى الذى عوض كل ما فاته فى قفزة واحدة فى عام واحد ثم شهادة الثقافة منازل فى عام آخر، ثم التوجيهية فى العام التالى.. وفتحت له الجامعة أبوابها.

هنا كان الكساد المرير قد أكل تجارة الأب ولم يعد قادرا على أى إنفاق، فاكتفى سيد بالانتساب لكلية الحقوق وعمل فى نفس الوقت سكرتيرا فى مدرسة السعيدية المجاورة للجامعة، وأخذ يقضى يومه قفزا بين المدرسة والجامعة، وفى كل عام مطلوب منه ليس فقط أن ينجح، وإنما أن يتفوق لكى يحصل على مجانية كاملة، وقد كان، قفز السنوات سريعا ليتخرج متفوقا عام ١٩٥٦. خلال سنوات الجامعة توقف طويلا على سلم كلية الحقوق ليحضر مناقشات وحوارات ضارية، وتمحورت الحوارات الفكرية بين الشيوعيين والإخوان، فى البداية مال نحو الإخوان، لكن الحوارات إذ امتدت شهدت صلفا وترفعا وتشددا من الإخوان، ويقول «لاحظت أن العقول مغلقة والقفز إلى الشتائم بدلا من الحجج العقلية شائع، حاولت يوما أن أشارك فى النقاش، وقلت لأحدهم «يا أخى «وجادلهم بالتى هى أحسن» فنظر الأخ لى بسخرية ولم يجب ثم شاهدت عنفا بالأيدى والجنازير فتوجهت لهم منفردا قائلا يا جماعة القرآن يأمرنا بالعفو والصفح ألم تطالعوا الآية الكريمة إذ يخاطب عز وجل موسى وأخاه قائلا «إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا» فإذا بالأخ المستول يشخط فى قائلا «يا أخى إتلهى على عينك، إنت عامل لى فيها فقى» آلمتنى الكلمات وأيقنت أن الإيمان سطحى وأن الآيات القرآنية لا تستخدم إلا للدلالة على ما يريدون وليس على ما يفعلون.. تركتهم وأصبحت

شيوعيا، وتوزع وقتى بين أحباء ثلاثة المدرسة السعيدية وكلية الحقوق والعمل الشيوعى»، وفى السنة الثانية من دراسته تزوج صفية ثم أنجب سامى ثم أحمد ومع ذلك كان يقفز سريعا ومتفوقا وفى ١٩٥٦ حصل على الليسانس متفوقا، فقد تخرج بامتياز ورشح وكيلا للنيابة، لكن العدوان الثلاثى داهم الوطن، ارتدى الكاكى وتطوع فى الحرس الوطنى، تدرب على استخدام الكلاشنكوف وإلى الجبهة، وصفية تطوعت فى الهلال الأحمر، وينتهى العدوان، ونبدأ تصفية الحسابات تقدم للعمل فى النيابة فسبقه تقرير أمنى، ممنوع لأنه شيوعى، ثم تقدم لامتحان الملحقين بوزارة الخارجية فسبقه ذات التقرير، بل أضيف إليه عبارة تقول «وقد تطوع المذكور فى الحرس الوطنى ليبث فى صفوفه أفكاره الشيوعية» تدخل أحد الجيران لدى الأمن والإجابة أن يكف عن النشاط الشيوعى وأن يكتب تعهدا بذلك يستنكر فيه الفكر الشيوعى، ورفض وافتتح مكتبا للمحاماة فى العياط، لكن حملة ١٩٥٩ التى شملت مئات الشيوعيين داهمته وتنقل بين المعتقلات والسجون، سجن مصر، القلعة، العزب فى الفيوم، أبوزعبل حيث التعذيب الوحشى الذى تفوق على معتقلات النازى ثم انتهى المطاف فى سجن المحاريق بالواحات وهناك التقينا لأتعرف على وجه جاد شديد الجدية، صارم شديد الصرامة، سألته وأنا أحاوره «لماذا لم أرك تضحك طوال فترة السجن» فانفجر ضاحكا وقال «أنا أعرف إزاى أضحك ولكن لا أجد ما يضحكنى».

ويبقى ما يجبره على الاكتئاب وهو فى السجن، لم يشك لأحد فقط احتفظ بآلامه حتى باح بها وهو يحاورنى «مصيلحى مدير البوليس السياسى ظل يلاحقنى، أنا معتقل مش مسجون يعنى ممكن يفرج عنى فى أى وقت فذهبوا إلى الأب الذى أبى بشدة، أن يضغط على ابنه، ثم ذهبوا إلى صهرى أبوصفية، إما أن تقنعه باستنكار الشيوعية فيخرج، وإما أن تطلب الطلاق وإنما أن يطرد إبنك الضابط من القوات المسلحة. وحضر إلى السجن أحد ضباط البوليس السياسى ليقدم له هذا العرض، صمت سيد، فكرر الضابط إيه رأيك؟ وهنا انقض عليه سيد قائلا: رأيى أهه، وأوجعه ضربا قاسيا أودع فيه كل عذابات القلعة والعزب وأبوزعبل، وكل عذابات فراقه عن صفية وابنه سيد.

أما صفية فقد رفضت، وحاول أبوها أن يحمى ابنه الضابط فتبرأ منها وتوقف عن الإنفاق عليها، لكن صفية مثل زوجها تحدت الحياة واشتغلت فى منزلها خياطة، وسيد لا يعرف فيرسل لها رسائل على عنوان الأب لكنه يحتجزها، وتعيش صفية مخلصة حتى دون أن تتلقى كلمة من سيد، ويأتى عام ١٩٦٤ ليفرج عنه مع الجميع، لكنه عاد شخصا آخر،

عديد من أسنانه تكسرت تحت وطأة التعذيب الوحشى، شعره امتلأ شيبا، سامى لم يعرف أباه وأحمد الذى ولد وأباه كان معتقلا خاف منه لكن صفية بحنانها وإخلاصها كانت معه دوما وبدأت رحلة حياة جديدة، وافتتح سيد مكتبه للمحاماة.

ثم كانت كارثة حل الحزب، لكن سيد أدانه ورفضه وتحداه بأن أسهم مع آخرين فى إعادة بناء الحزب من جديد، ومنذ الأيام الأولى للتجمع أتى سيد ليبدأ معنا مسيرة جديدة، ثم لا يلبث أن يعتقل عقب أحداث يناير ١٩٧٧ فقد كان فيها ملء السمع والبصر، ثم تكون الكارثة الثانية وهى انهيار المعسكر الاشتراكى فيفقد سيد شهيته لأى شىء إلا النضال، فواصل، لكن أزمة قلبية داهمته فى ديسمبر ١٩٩١، ونصحه الأطباء بالراحة ولكن دون جدوى، وجهه العابس اكتسى بحزن لا ينتهى وإصرار على نضال جاد.

وفى اجتماعات التجمع كان يخوض معى ذات الدور، كنا هو وأنا نشن هجوما ضاريا على قوى التأسلم السياسى، والإرهاب المتأسلم على أشده والإخوان هم أيضا يمرسون نشاطا على أشده تحت حماية السادات. وعدد من الزملاء فى لجنة محافظة لجيزة يرفضون أى هجوم عليهما فهما خصمان للحكم ولا يجوز أن نواجههما، استعان سيد بمخزونه من القرآن الكريم فكان خير عون لى فى معركتى وفى كثير من اجتماعات الأمانة العامة كان الكثيرون رافضين لموقفنا والأكثر صامتين، ربما عن حيرة أو عدم يقين أو خوفا من الموج العالى، لكننا تساندنا معا وواصلنا معركتنا، وكثيرا ما كان يشكو لى من غفلة الزملاء، وكان يتكلم بانفعال شديد وأنا أطالبه بهدوء يحمى قلبه وأؤكد له أن الزمن كفيل بإقناع الزملاء، وفى أحد اجتماعات لجنة محافظة الجيزة «وكان سيد أمينا للمحافظة» اشتبك فى حوار مع أحد الزملاء وفيما يشرح سيد وجهة نظره باغته الزميل بكلمة غليظة «أنت بهذا تدافع عن السادات» انفجر سيد، وكان انفجاره الأخير، ضاق القلب بسخافة الزميل، والرجل الثائر دوما لم يحتملها وأغمض سيد عينيه حملوه إلى المستشفى لكنه كان قد رحل مللا سخافة وغفلة من عدم قدرة بعض الزملاء على اكتشاف ما يعتقد هو أنه مكتشف وواضح لأى مناضل عاقل ولا يستحق الجدل.

عزيزى سيد

ترى ماذا كنت ستقول لهم لو أنك كنت معنا الآن؟

عريان نصيف (١)

فى مفارقة غريبة وعندما تطوعت فى الحرس الوطنى واكتشفوا أننى شيوعى، اتهمونى بالعمل على تفجير المعسكر، ساقونى إلى السجن الحربى، عذبونى تعذيبا شديد القسوة، وسألنى ضابط اسمك إيه قلت عريان فقال خلاص خليك عريان، وخلعوا ملابسى تماما فى زنزانة مليئة بالماء البارد.

(عريان نصيف فى حواره معى)

الأبوان كانا يعانيان من مرارة فقد أطفالهما، يموتون وهم رضعا الواحد تلو الآخر أربعة ذكور وثلاث إناث، يموتون دون سبب واضح ودون مرض معلوم، عجز الطب ولم يبق أمام الأبوين سوى الرضوخ للأوهام باتقاء الحسد، وعندما جاءهما طفل ثامن أسمياه عريان، وفوق هذا ألبساه ثوبا من الخيش لعله يثير شفقة الجيران وليس حسدهم.

الأسرة كانت من الأثرياء، ويتداول الأبناء كيف أن الجد كان يمتلك عزبة كبيرة أسميت على اسمه «عزبة أبوموسى» والأب كان نصيبه من الميراث أربعون فدانا، إيرادها يكفى ويزيد، ولهذا أراح نفسه من أى إرهاق، فاكتفى من التعليم بالسنة الرابعة الابتدائية، ومن السياسة بتأييد أى حكومة، ومن المواقف والآراء ما تنشره الأهرام فهى بالطبع تفهم أكثر من الجميع، والطفل عريان ما أن شب عن الطوق حتى خلع الخيش وتمتع بحياة شبه مرفهة، لكن ثمة شىء كان يوخزه دائما لعله ضمير يقظ، أو أفكار مسيحية ترسخ بعضها فى وجدانه.. وتؤرقه أسئلة مثل لماذا يعيش الفقراء فى هذا البؤس بينما أحبهم المسيح وعطف عليهم؟ ولماذا هم جائعون ونحن نتمتع بكل شىء، أمه حاولت إقناعه بأن «دى حكمة ربنا» ولم يقتنع، والأب حاول إقناعه بأنه لا يظلم أحدا، وأتى له بأحد المستأجرين ليقول له «يا سى عريان إحنا عايشين فى خيركم، والفتى العنيد لا يقتنع ولا يكف عن تأنيب والديه فيأخذه الأب إلى أبونا متى راعى كنيسة بسيون الذى يقول له «يا ابنى لا تعترض على حكمة ربنا» لم يقتنع عريان وقرر أن يرد على هذا التمييز

بطريقته الخاصة، فالفقراء لا يأكلون اللحم ولهذا هو لن يأكل لحما، ولا يتعلمون فى المدرسة ولهذا هو لن يذهب إلى المدرسة ولا يلبسون ملابس جديدة فى العيد ولهذا رفض ملابس العيد الجديدة، الأب خبط كفا بكف «يعنى يا رب الولد اللى يعيش يتجنن. لكن عريان لم يكن مجنونا كان فقط رافضا للخضوع لمبدأ التمييز بين من يملكون ومن لا يملكون، وبعد محايلات من أبونا متى اقتنع بالذهاب إلى المدرسة، وإن ظل رافضا للأطعمة التى يتميز بها الأغنياء، لكن الحيرة تظل تغلف كل تصرفاته بحثا عن مخرج، وأخيرا فى يوم من أيام فبراير ١٩٥١ التقط من عند بائع الصحف جريدة تحمل عنوانا صارخا اسمها «الاشتراكية» ويقول «وجدت فيها الإجابات فالنضال ضد الفقر عمل سياسى جماعى وليس عملا فرديا، باختصار وجدت نفسى، كانت الكلمات ساخنة بل شديدة السخونة ومحشوة بطلقات سريعة مثل العدالة – الحرية – الثورة. حقوق الشعب، وأسرعت لأنضم إلى الحزب الاشتراكى»، واتسعت دائرة قراءاته لصحف الصاخبة فى هذه الفترة الساخنة بالحماس الثورى والوطنى.. مثل الجمهور المصرى – الكاتب – الملايين – روز اليوسف – الواجب ثم إلى كتابات سلامة موسى وترجمات لروايات مكسيم جودكى وبالسليقة، وربما بسبب الضمير المسيحى الحساس اكتشف أن فكرة اسمها الماركسية هى الأكثر قربا لتحقيق العدل، وبدأ يقرأ ليلتقط كلمات وعبارات أعتقد أنها هى الماركسية، وتعرف عليه عدد من الطلاب فى طنطا الثانوية الحديثة واعتقدوا أنه ممثل للشيوعيين لكنه كان شيوعيا من منازلهم.

وفى المدرسة تزامل مع حسين عبدالرازق وعندما قامت ثورة يوليو أصدرا معا مجلة أسمياها العهد الجديد لكنه تحمس ضد قادة الثورة لأنهم استبقوا ١٤ معتقلا من الشيوعيين، وتوقفت المجلة، وتنتهى مرحلة الدراسة الثانوية وإلى الإسكندرية وفى كلية الحقوق كان الضوء الماركسى المبهر فى انتظاره فهناك فاروق أبوعيسى الذى أصبح فيما بعد قياديا فى الحزب الشيوعى السودانى وأصبح رئيسا لاتحاد المحامين العرب، وهناك أيضا عبدالفتاح موافى الذى كان آتيا من المنصورة محملا بتراث نضال شيوعى عريق وفى ٥ أكتوبر ١٩٥٣ دعى إلى أول اجتماع شيوعى لم يزل يذكر هذا اليوم ويعتبره عيد ميلاده الحقيقى» تدفقت انهار من الضوء المبهر.. وأصبح عريان عضوا فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى فى فترة كانت حدتو فيها مقبلة على معركة ضارية مع حركة الجيش، ويخوض عريان معارك حدتو بالإسكندرية فى فترة بالغة الصعوبة حيث عصف

الأمن بعدد كبير من قيادات التنظيم بالمدينة فى قضية شهيرة، ويواصل عريان حتى عام ١٩٥٦ وتكون الأيام المجيدة، ومن الإسكندرية يعلن عبدالناصر تأميم قناة السويس وتنفجر كل الطاقات تأييدا ويكون العدوان الثلاثى، وتقرر لجنة كليو (الاسم السرى لجنة محافظة الإسكندرية وهو مشتق من كلمة كليوباترا) الدعوة إلى إقامة معسكر للتدريب على المقاومة الشعبية وتكوين جيش شعبى للاشتراك فى مواجهة العدوان، واختارت اللجنة ثلاثة رفاق للقيام بهذه المهمة، سعد الساعى وحمدى مرسى وعريان، وبهذا التكليف أصبح عريان شخصا آخر إتقد حماسا وثورية وتدفقت كل طاقاته لإنجاح هذه المهمة.

الثلاثة ذهبوا لمقابلة قائد المنطقة الشمالية اللواء عاطف نصار، السيد اللواء تحمس لحماسهم أو ربما تظاهر بالحماس لأنه كان يرتب أمرا آخر، وأقيم معسكر التدريب فى أرض سبورتنج، الجميع كانوا متحمسين هو كان الأكثر حماسا وتفانيا فى التدريب بما منحه الترقية إلى رتبة وكيل إمباشى فازداد حماسا، كانوا يستعدون بحماس للسفر إلى الجبهة لمواجهة العدوان، ويزداد حماسهم إذ تأتيهم أنباء رفاق تسللوا إلى بورسعيد حيث المواجهة الفعلية، وأنباء أخرى عن رفيقات ذهبن إلى خط المواجهة فى أبوصوير، اجتمعت المجموعة الحزبية وقررت أن التدريب الذى حصلوا عليه كاف تماما وأنهم مستعدون للسفر فورا، ولأنه كان الأعلى رتبة «وكيل إمباشى» كلفوه بأن يتصل بقيادة المعسكر ليعرض عليها طلبهم، لكن ثمة أشياء لم تكن معلومة لهم، فاللواء عاطف نصار الذى احتضنهم وشجعهم اتهم بالتحضير لانقلاب عسكرى ومن ثم وضع كل من تحمس لهم فى دائرة الشك ولا بأس من البحث عن أدلة اتهام إضافية باتهامه بالتعاون مع الشيوعيين فى تدبير الانقلاب، ذهب عريان ليعرض طلب اللجنة الحزبية فى الوقت غير الملائم تماما، وفوجئ بانفجار الضابط فى وجهه، وبالقبض عليه وعزله عن رتبته وإرساله إلى السجن الحربى مصحوبا بلفافة كبيرة عرف بعد ذلك أنها متفجرات وأن التهمة التى أعدت له هى أنه كان يستعد لتفجير المعسكر.. وتبدأ مرحلة جديدة وإلى لقاء.

عريان نصيف (٢)

خرجت من السجن الحربى بعد أن حكم على بالاعدام ذلك بعد اتصال الرفاق بعلى صبرى مدير مكتب الرئيس، الرئيس ألغى الحكم. أما أنا فكنت فى حيرة كئيبة هى انعكاس لحالة التحالف مع حليف يكرهك. ادهشنى بعد خروجى أن الرفيق المسئول فى لحظة مقابلته لى وبدلا من أن يهنئنى على صمودى فى وجه التعذيب الوحشى وعدم اعترافى على الرفاق، أنه سألنى سؤالا غير لائق. هل صرخت يا رفيق وهم يعذبونك ؟ فقلت ببساطة نعم. فصرخ وهو يبرم شاربه بكبرياء غلط يا رفيق فالمناضل لا يصرخ مهما عذبوه».

عريان نصيف- من رسالة خطية كتبها بناء على طلبى»

«كانت التهمة التى واجهنى بها المحقق العسكرى أننى كنت أنوى تفجير معسكر التدريب فى سبورتنج بهدف احداث فوضى يستغلها الشيوعيون ويركبون الموجة (لم يذكروا اسم عاطف نصار ومحاولته للانقلاب لأن القضية لم تكن قد أعلن عنها بعد) نفى عريان التهمة. ضربوه. عذبوه تعذيبا وحشيا. سألوه هل أنت شيوعى؟ فأجاب افتخر بأننى شيوعى. من معك؟ لا أحد. أنت متهم بمحاولة تفجير المعسكر. لم يحدث. ما دليلى؟ دليل أنى شيوعى. فزاد التعذيب». نزعوا كل ملابسه وتركوه عريانا فى زنزانة مملوءة بالماء. وأخيرا واجهوه بمجلس عسكرى أنهى سؤاله فى دقائق وأصدر الحكم «الإعدام رميا بالرصاص» فى تهمة الخيانة العظمى. أشعل هذا الحكم المجنون حماس قيادة الحزب، كثفوا اتصالاتهم. احتجوا. هددوا وأخيرا ابلغهم مدير مكتب الرئيس عبد الناصر على صبرى أن الرئيس وبصفته حاكما عسكريا ألغى الحكم. وخرج عريان من هذه المحنة وهو أكثر اصرارا وأكثر حماسا. ترك الكلية وتفرغ محترفا. وانغمس حتى هامته فى العمل الحزبى، وفى هذه الفترة الشديدة الارتباك يتحد الشيوعيون فى حزب واحد. ثم ينقسمون

وفى أول يناير ١٩٥٩. ويهرب عريان. والهروب سهل للغاية، آن تختبئ فى مكان ما، ثم تنتظر. لكن عريان هرب وواصل نضالا ملتهبا فقبض عليه، وأرسل إلى سجن أبو زعبل حيث معسكر التعذيب الناصرى الذى اقترب من معسكرات النازى. هو كان قد تدرب على احتمال التعذيب، ودهش الجميع، رفاقه والمتوحشون الذين يمارسون التعذيب من احتمال هذا الشخص النحيل كعصا رفيعة والذى لا يزيد وزنه على ٤٧ كيلو للتعذيب صامدا وأحيانا ايضا مبتسما. ويقول عريان فى حوار معى «فيما بعد وفى جلسة سمر فى سجن الواحات لقننى صلاح حافظ درسا هو واحد من أسرار الحياة، فالإنسان حين يتدرب على المقاومة نفسيا، فإن جسده- أيا كان ضعفه الجسمانى- يحترم هذه المقاومة ويفرز له كميات إضافية من الادرنالين تمكنه من المزيد من المقاومة والاحتمال. وبالفعل أدركت أن تصميمى على الاحتمال جعلنى احتمل تعذيبا لا يحتمل. ثم تقرر احالتهم إلى المحاكمة العسكرية أمام الفريق هلال عبد الله هلال قائد سلاح المدفعية لكن ضباط البوليس السياسى وبدهاء شديد وضعوه عمدا هو وسعد الساعى وخليل الآسى ضمن قضية الفريق الآخر. كانت مجموعة الحزب الشيوعى- حدتو لم تزل تتحدث عن تأييدها لمنجزات عبدا لناصر وأن طالبت بالديمقراطية بينما الفريق الآخر كان يعارض عبد الناصر بشدة. وتوقع رجال البوليس السياسى أن يتحدث عريان ورفيقيه أمام القاضى الشرس عن تأييدهم لعبد الناصر فيضعوا رفاق المجموعة الأخرى تحت مقصلة الفريق الشرس اتفقوا معا على إفساد مخطط الأمن فقد تغلب الضمير والعقل وقرروا ألا يتحدثوا عن تأييدهم لعبد الناصر ولا عن خلافاتهم مع الرفاق الآخرين، غضب رجال الأمن لإفساد مخططهم. ولعل الفريق كان شريكا فى إعداد هذا الكمين وانعكس هذا الغضب فى حكم شديد القسوة وهو عشر سنوات اشغال شاقة. ويكون الافراج الجماعى وبعدها يكون القرار الصاعق بحل الحزب هو عارض الحل. وقاوم كثيرا ثم رضخ لقرار الأغلبية، وتتوالى فترات السجن رغم ذلك وتتوالى معها كوارث عائلية.

ففى فترة السجن ٥٩-١٩٦٤ فقد شقيقته الشابة وفيما كان مسجونا بعد انتفاضة ١٩٧٧ فقد والدته وفى فترة سجن أخرى فى ١٩٨١ فقد والده. وفيما كان مسجونا عام ١٩٨٩ أتاه نبأ أن ابنه الاكبر محب فقد ساقه فى حادث بشع.

أى طاقة احتمال احتاجها عريان ليحتمل ذلك . ذات يوم وجدته حزينا قلت له حتى

الجبال تتهاوى أحيانا لكنك تحتمل أكثر من الجبال. نظر إلى صامتا ومضى صامدا. ثم تكون كارثة اكبر عندما يفقد ابنه محب. ويمضى عريان متكئا على عصاه صامدا شامخا مصمما على المضى أماما فى ذات الطريق. يقول لى فى رسالته «كان قرار الحل ضربة قاصمة لى لكنه مضى ليخترع آليات وأدوات للنضال وللالتحام بالجماهير، وغاص فى عمل جماهيرى متنوع الاتجاهات. «جبهة القوى الوطنية بالغربية» و«نادى الثلاثاء الأدبى» و«رابطة الحقوقيين بالغربية»، و«نادى الكتاب، نادى المسرح».. اعتاد دوما على الإبداع النضالى ثم فاجأنا بالإبداع الأدبى فكتب مسرحيات وحصل على شهادة فى التأليف المسرحى المتميز، وكتب قصصا وحصل على الجائزة الأول فى مسابقة القصة القصيرة. وإذ يأتى التجمع يكون أول الآتين إلينا. ويمنح عبر نضاله التجمعى العمل الفلاحى جهدا كبيرا ويتأسس اتحاد الفلاحين فى ٣٠ ابريل ١٩٨٣ ليحقق عريان واحدة من أهم إنجازاته.

وتمضى الأيام. ويبقى عريان كعصا ممشوقة القوام رافعة الرأس صامدة كسنديانة تهزأ بالريح يمضى كعصا تتكئ على عصا مثلها.. ضاربا لنا جميعا المثل والقدوة.

عزيزى عريان .. دمت لنا

عبد الله الطوخى(١)

عندما كنت طفلا ، أرادت أمى أن تصنع منى رجلا، فقالت لى يوم حصاد القمح روح يا عبد الله أحرس الغلة، وأمسك عصاية كبيرة علشان تهش بيها العصافير. ووضعت ديل الجلابية فى سنانى وجريت للجرن. كانت العصافير بالمئات تأكل فى مرح، تركتها وجلست أتأملها. ولما حضرت أمى امسكت بالعصا وضربتنى صارخة أنا نفسى تبقى رجل يا ولد»

عبد الله الطوخى فى حواره معى

إلتقيته لأول مرة فى سجن مصر. فى أول ليلة جلسنا كل منا يحكى ذكرياته عن المنصورة. وبعدها اصبحنا أكثر من اصدقاء. معه تذكرت أيام الطفولة. المنصورة الابتدائية والاستاذ البادى الطوخى (عم عبد الله) وكان سكرتير المدرسة، وتذكرت كيف كنا نمشى جماعة على كورنيش النيل حتى حديقة شجرة الدر وعلى اطرافها المبنى الارستقراطى للنادى الملكى حيث كبراء المدينة ثم نهاية شريط الاسفلت، وعدة خطوات لنجد انفسنا فى ظلال شجرة الجميز العجوز التى حكى لى عنها عبد الله عشرات الحكايات. نتسلق الجميزة كالقرود نأكل الجميز حتى يضبطنا اطفال ميت بدر خميس ويطاردوننا. نغضب منهم ونترصدهم أيام الاعياد حيث تكون متعة العيد فى التوجه إلى «سوق العيد» فى المنصورة ينفق كل منهم عيديته فى شراء خرزانة اطول منه ورغيف سوقى ملئ بالطعمية ثم قطعة من الحلاوة الطحينية، لكننا نطاردهم كما يطاردوننا نخطف الطواقى وهم لا يتجاسرون على استردادها.

الأسرة مستورة، لكنها تبدو كالاغنياء فى بلدة شديدة الفقر. مساحة قليلة من الافدنة تمكن الاسرة من تخريج عدد من الافندية. وعبد الله يقطع الطريق سيرا على الاقدام من اقصى المدينة إلى طرفها الآخر حيث المنصورة الابتدائية الأميرية. ثم إلى المنصورة

الثانوية المجاورة بشجرة الدر ويحصل على التوجيهية.. ثم تتسع ابتسامة عبد الله لتضئ الزنزانة وهو يحكى «انطلقت إلى الحرية، دخلت كلية الحقوق زملائى فى الكلية دخلوها لأنها كلية وزراء المستقبل، أما أنا فدخلتها لأنها كلية الحرية. فقد اقنعت نفسى أننى لست فى عجلة من أمرى، ولا داعى لتضييع الوقت فى مدرجات المحاضرات أو فى المذاكرة، وقررت أن اكرس كل وقتى للتعرف على معشوقتى.. القاهرة وبحثا عن حريتى فى التسكع حيث أشاء. ويمضى عبد الله فى حواره معى قائلا «ولكن كيف لك أن تستمتع بالحرية فى وطن غير حر؟ «أتيت القاهرة فى العام الدراسى ٤٥-١٩٤٦ وما هى إلا أشهر حتى تتفجر هذه المعشوقة بثورة طاغية ضد الاستعمار والرجعية والقصر الملكى، شاركت فى المظاهرات وفى معركة كوبرى عباس الشهيرة كنت هناك، الكوبرى فتح والهجانة بالكرابيج والعساكر بالشوم والرصاص يدوى . البعض القى بنفسه فى النيل والبعض مزقته الكرابيج أو اصابه الرصاص أنا اتسحبت من بين السيقان المتصارعة مستفيدا من جسدى النحيل وخرجت مسرعا ومصابا بجراح عديدة. ومع المظاهرات كانت المناقشات الساخنة، لكننى كنتى مصمما على التباعد عن السياسة، اريد حريتى الشخصية شوية هتافات فى مظاهرة آه اكتر من كده لأ. لكن بلدياتى أحمد الرفاعى وكان قد سبقنى إلى كلية الحقوق ظل يطاردنى بمناقشات لا تنتهى هو وطالب نوبى وهو زكى مراد قالا انهما شيوعيان ووجها لى دعوة إلى مائدة الشيوعية. قلت لهما بصراحة أنا متعاطف مع الفقراء ولكن تنظيم وسياسة لأ. لكن الماكر الحبيب احمد الرفاعى وقد ادرك اتجاهى إلى القصة والكتابة اطلق على قذيفة لا تقاوم فأعطانى رواية «الأم» لمكسيم جوركى الرواية سحرتنى فى عالم عشت فى ملكوته. صرت أحلم حتى وأنا اتمشى فى شوارع القاهرة بالفتى الثورى «بافل» وأمه وبالسجن، وبرومانسية خالصة تمنيت أن أصبح مثل بافل، وأن اسجن مثله وأعذب مثله، عطر «بافل» غمرنى وأوشكت أن اتقمص شخصيته. وباختصار اصطادنى احمد الرفاعى ودخلت راضيا ومتحمسا إلى قفص التنظيم الشيوعى». وشارك عبد الله بحماس محسوب فى العمل الجماهيرى واسهم فى المظاهرات الصاخبة التى اعقبت فترة سكون فى زمن الأحكام العرفية (٤٨-١٩٥٠) ثم كان الحدث المهم الذى مثل نقطة تحول فى حياته. زواجه من فتحية العسال. وعاشا معا قصة حب جميلة. شاركته فى كل شيء وتغنيا معا بشعر لكمال عبد الحليم:

وأقمنا فى تحد عشنا.. لهب انت ونيران أنا

فتنة أنت لولا ثورة.. جمعنا ما عشقنا بعضنا

إلى هنا والأمن يتعامل معه كفتى متحمس ولكن غير ضار. حتى كانت واقعة تشبه الأفلام الهندية.

وبداية القصة كانت فترة السجن المريرة التى قضاها شهدى عطية فى سجن طرة. وهناك جعل شهدى من السجن مدرسة حقيقية وبدأ فى تجنيد عشرات من السجناء ليصبحوا على يديه شيوعيين، شربوا على يديه من نهر المعرفة النظرية الدافقة والاخلاص الثورى المتفانى، ومن هؤلاء كان فتحى أبو طالب. وهو مسجون فى قضية شهيرة هزت الرأى العام لفترة طويلة حيث شكل مجموعة سرقت البنك الأهلى. وظل فتحى أبو طالب يحاول الهرب المرة إثر الأخرى وينجح فى الهروب عبر أساليب غاية فى الغرابة تحولت فيما بعد إلى أفلام سينمائية عدة. وفتحى قوى الملاحظة فقد لاحظ أن الزيارات التى تأتى لشهدى مصطحبة كالعادة بعض الطعام يكون ملفوفا دوما فى اكياس ورقية مطبوع عليها «عبد الباقى عمر قمصانجى - شارع خيرت- السيدة زينب». حفظ الاسم والعنوان بعد أن تأكد أن الحزب هو الذى يرسل الطعام لشهدى. وهرب فتحى من السجن. تمشى فى شوارع القاهرة، وفى شارع خيرت وجد المحل. دخل بهدوء وطلب اتصالا بالتنظيم راوغه عبد الباقى لكن فتحى نجح فى اقناعه. وأتى رفيق ليتسلم الهارب الجديد. وتقرر أن يختبئ فى منزل المحامى عبد الله الطوخى حتى يمكنه القول أن السجين الهارب أتى إليه طالبا تسلميه للبوليس. وفى بيت عبد الله وفتحية تمتع فتحى بقدر من الحرية سحب كرسيا وجلس فى البلكونة ليطالع المشاهد الصاخبة فى حى السيدة زينب . لكن أحداث الفيلم الهندى لم تكتمل. الجارالمواجه لبيت عبد الله هو شقيق احد السجناء فى طرة وكان يرى فتحى ابو طالب اثناء الزيارة، فزار اخاه وابلغه. الأخ السجين ابلغ المأمور قائلا أن الشيوعيين قاموا بتهريب فتحى كى يغتال الرئيس محمد نجيب (كنا فى عام ١٩٥٣ وكانت حدتو قد بدأت صراعها ضد حكومة الجيش) وفجأة دق الباب واقتحمت الشقة مجموعة كبيرة من الضباط والجنود. الضابط سأل عبد الله «فتحى ابو طالب عندك؟» فأجاب نعم. فلا جدوى من الانكار. دخلوا. فتشوا ولم يجدوا فتحى. قال لى فتحى ابو طالب فى حواره معى «فى حالات كهذه تعلمت فور دخولى أى بيت أن اكتشف طريقا للهروب. كنت

بالجلابية وحافى القدمين سمعت خبط الباب اندفعت إلى البلكونة وتسلقت المواسير من الدور الثالث إلى الشارع واندفعت نحو المكوجى المجاور قائلا فى هلع مفتعل وابور الجاز طق فى وش البنت ادينى الشبشب علشان اجرى واطلب الاسعاف. ولبست الشبشب وتمشيت بهدوء». لم يجدوا فتحى ابو طالب لكنهم ادركوا أن عبد الله الطوخى شيوعى خطير. وحفظوها له حتى كانت حملة قبض واسعة طالت أغلب كوادر «حدتو» فى منطقة القاهرة فقبضوا عليه وإلى سجن مصر..وهناك التقينا.

عبد الله الطوخى (٢)

«أقول لك سرا.. رغم إيمانى العميق بالماركسية، واصرارى العميق على الدفاع عن الفقراء وإقامة العدل. لكننى كنت أشعر فى أعماقى أننى لست رجل هذا المكان، ولا هذا المكان مكانى. فى أخطر الاجتماعات الحزبية وحيث يشتعل النقاش وتعلو أصوات تتقاطع بعضها كنت أنا أسرح بخيالى بعيدا جدا. اتساءل كيف أصف هذا الوجه الصارخ أو هذا الشارب الفخم أو هذا الرفيقة العابسة فى واحدة من قصصى المقبلة»

«عبد الله الطوخى فى حواره معى»

* * *

وباختصار طغى على الجنون وقررت أن امتلك

النهر كل النهر وحدى»

عبد الله الطوخى فى حوار آخر

عبد الله فى سجن مصر. وفتحية فى الخارج، تقوم مقامه تلتقى الرفاق، تنقل الرسائل، لكنه يريدها. لا يطيق عنها بعادا خاصة إذا كانت قد أصبحت همزة الوصل بين رفاق الخارج ورفاق السجن. تولى عبد الله كمسجون مسئولية زيارات الشيوعيين، يوميا يقف فى الصباح ينادى على اسماء من لهم زيارة، ويوزعهم مجموعات وطبعا تأتى فتحية كل يوم. كل يوم تأتيه حاملة اخبارا ورسائل ومحبة. سنوات السجن تمضى وينطلق عبد الله إلى البيت حيث فتحية ودفء الطفل ويكتب عبد الله فى كتابه «دراما الحب والثورة» «بخروجى من السجن بدأت مرحلة جديدة من حياتى، وعرفت معنى الشعور بأن يولد المرء فى حياته مرة ثانية. لقد ظللت لفترة طويلة أحس بالدهشة من أننى حر طليق، وأن بإمكانى أن انهض، وأفتح باب شقتى وأخرج إلى الشارع، بل إن تجربة السجن لم تعد تجربتى وحدى بل تجربة فتحية أيضا. وأحسست أننا نحن الاثنين

اقتربنا اكثر من بعضنا البعض وأصبحنا شريكين كاملين فى التجربة بنورها ونارها»، وكان أول قرار لعبد الله بعد الافراج عنه أن يترك المحاماة ويتفرغ للكتابة ويكتب عن هذا القرار «فاض قلبى كراهية هذه المهنة. أنا الهث كل يوم وراء عالم برجوازى قح لا تزدهر فيه أحوال المحامى إلا بازدهار المشاكل بين البشر، بينما أنا فى الأصل أحلم بيوتوبيا الاشتراكية التى اساسها المحبة والتعاطف بين البشر» ويمضى عبد الله قائلا : تركت مهنة المحاماة غير نادم ولا أسف وبدأت ارسم مستقبلى الجديد على أن أكون كاتبا وبالذات أديبا. أدبا مشحونا ومبشرا بالقيم الثورية والإنسانية» (عبد الله الطوخى- دراما الحب والثورة).

ولا حيلة لى فى محاولة اقتباس كلمات من كتاباته فهى آلاف من الصفحات الجميلة العبارة المتقنة الوصف وهو ينجح تماما فى أن يسكب على الورق كل رومانسيته. وتمضى بك الصفحات. ليحكى لك حكايات عشقه.

«عشقت الحزب والفكرة والمعتقد، لكن الخلافات والانقسامات والصراعات اشعرتنى بالمرض. المرض الحقيقى، وذات صباح تمشيت حتى حديقة الازبكية، جلست أمام البحيرة الجميلة وأعداد من البط تسبح فيها باسترخاء وراحة بال. وفيما اشرب القهوة كتبت دون قرار مسبق رسالة للرفاق ابلغهم فيها باستقالتى من الحزب. اذكر أننى قلت فيها: ها أنا اكتب رثاء لنفسى، لكننى لن أموت. سأظل دوما أحبكم وأعشق الحزب واعشق الفكرة لكننى لا احتمل هذه الصراعات. قد أكون مخطئا لكننى وبصدق لا احتمل، فاحتموا عدم احتمالى وسأحافظ دوما على الصداقة والاخلاص والمودة». ثم كتبت رسالة أخرى إلى رفاقى فى الواحات قلت فيها أنتم ابطال ليس لأنكم تحتملون السجن والتعذيب وفراق الأحبة ولكن لأنكم تمتلكون القدرة على احتمال هذه الصراعات الحزبية التى اخشى أن تكون مدمرة».

ثم يقول فى كتابة أخرى «عشقت روزاليوسف حيث عملت فيها كاتبا فى البدء، عشت فيها حلما جميلا مع رفاق أحببتهم. لكن القيود الناصرية والرقابة على كل ما يخطه القلم جعل من روزا قيدا يخنقنى خاصة بعد أن خلت روزا من الرفاق الذين احتوتهم السجون، وعشت فى روزا غريبا كرجل يعيش مع زوجة لا يحبها لكنه لا يستطيع الافتراق عنها، وعشت اطمح لشىء غير مرئى لكننى احس به واسعى نحوه.

عشقت فتحية: كانت زيتا لمصباحى. انطلقنا معا فى متعة النضال الحزبى. وفى حدائق الفن والكتابة. ثم اختلفنا فى السياسة. وبعد حل الحزب اتخذت هى منحى آخر عبر ادوات تنظيمية أخرى. اختلفنا حول الموقف من عبد الناصر والموقف من السادات والموقف من كامب ديفيد فرقتنا السياسة لكن الحب والعشرة والفن والكتابة كان اقوى من أى اختلاف».

وعندما كانت النكسة «شعرت أن روحى غادرتنى رغم انفى. كنت أنام على السرير متمنيا أن يهبط بى إلى لا رجعة.. لكننى تحديت يأسى ورفضت دعوة صافيناز كاظم إلى مقاطعة الكتابة ورفضت تهكم فؤاد نجم ياما أحلى رجعة ضباطنا من خط النار وقررت أن اكتب. وأن اكتب كثيرا جدا داعيا إلى النهوض واستعادة الكرامة».

ثم تفجر الخلاف بينه وبين رفاقه القدامى وبينه وبين فتحية حول الموقف من كامب ديفيد. كنا جميعا نناضل ضد كامب ديفيد لكنه أيد من منطق رومانسى صرف السعى نحو السلام بين البشر. كتب رواية عن جنديين مصرى وإسرائيلى وأدار بينهما حوارا يقطر انسانية ورومانسية تترفع عن المواقف السياسية وتتمسك بمحبة البشر وفيما يوشكان على الاتفاق تأتى قذيفة اسرائيلية فتقتل الاثنين معا. وتسرى فى صفوف اليسار همسات موجعة، عبد الله يؤيد كامب ديفيد ويزورنى عبد الله ليعلن ألمه من هجوم رفاق حتى لم يقرأوا الرواية ويقول : يقولون أنه لا مشاعر إنسانية فى هذا الصراع فاليهود يقتلوننا ولا يقتلون يهوديا مهما اختلف معهم..و قال «طيب أهم قتلوا رابين عندما قبل مبدأ السلام؟ وابتسم تلك الابتسامة الساخرة التى منحته محبتى منذ اليوم الأول وقال: شايف المصادفة الجندى الإسرائيلى فى روايتى كان ايضا اسمه رابين»، لكن عبد الله يتمسك دوما بالموقف والمبدأ فعندما حاصر الإسرائيليون بيروت وتدافع الكثيرون للهرب منها ذهب هو إلى هناك. قابله رفيق مصرى متسائلا «انت جاى هنا تموت، فأجاب بذات الابتسامة: أنا قررت اعيش. وفى مخبأ تحت الأرض اجرى حوارا مع عرفات وتحت القصف قال عرفات وكأنه يقرأ الغيب : اعطنى شبرا من الأرض الفلسطينية اقيم عليها دولة منها احرر الأرض والناس جميعا. وتحت القصف الإسرائيلى لبيروت تقابل مع فتحية وتصالحا.

وتمضى الحكايات بلا نهاية ... لكننى اتمسك باثنتين منها. ذات يوم وقف أمام النهر تم غمره جنون عشقه للنهر وقرر امتلاكه وقام برحلته الشهيرة ركب المركب ومضى يفحص

النهر شبرا شبرا، اقصد يمتلكه شبرا شبرا من القاهرة حتى آسوان وسجل رحلته الجنونية فى كتاب أكثر من رائع.

وفيما بعد يناير ١٩٧٧ حيث نصب نظام السادات خيمة سوداء على أرض الوطن ارهاب بلا حدود، أغلب الرفاق فى السجن، القوانين سيئة السمعة تتوالى.. كنت فى السجن وجاء عيد ميلاد عبدالله الستين وفوجئت بمقال طويل فى روزا بعنوان «جمعية هدم الهرم الأكبر»، يقول وكأنه يستشعر صعوبة الإحساس بالأمل.. «فى الستين يريد الانسان أن يفعل شيئا يتوج به حياته، فما لم ينهض ليسجل موقفا واضحا مع الوطن والشعب. فليس أمامه إذا أراد أن يفعل شيئا يتصالح به الناس سوى هدم الهرم الأكبر».

أنه عبد الله، الفلاح الماكر يستنهض الناس قوموا. ناضلوا. ارفعوا هذه الخيمة السوداء، استيعدوا للوطن حريته وكرامته. وإلا فإهدموا ما تبقى لنا ولمصر. وفهم الناس. الرفاق والاصدقاء .. وايضا فهم نظام السادات وبدأت حملة اضطهاد جديدة.

احتملها عبد الله كما اعتاد مبتسما.

شاهنده مقلد

«لن انسى ابدا ما كتبه أبى فى الاوتوجراف الخاص بى إذ قال «ابنتى العزيزة. اتقى الله فى كل كبيرة وصغيرة. لا تفعلى سرا ماتخشينه علنا ودافعى عن رأيك حتى الموت»
قائمقام عبد الحميد مقلد
شاهنده مقلد (فى حوارها معى)

كان القائمقام عبد الحميد مقلد ضابطا وطنى الاعتقاد وفدى الانتماء. والأسرة ذات ثراء يكفى لكى نصفها بأنها من أغنياء الفلاحين. فجدها لأبيها هو الشيخ على مقلد عمدة كمشيش. وجدها لأمها البكباشى محمد خالد الضابط فى سلاح الحدود. الأم متعلمة. والأب القائمقام مثقف على عادة ضباط هذا الزمان، يقرأ كثيرا، ويتحدث فى السياسة دون خوف، ولا يخفى احترامه لحزب الوفد وسياساته، وهو عاشق للموسيقى وعازف ممتاز على العود. وبسبب وفديته كان يطارد دوما فى فترات ابتعاد الوفد عن الحكم وهى فترات طويلة. وهكذا تعين على الضباط الوفدى أن ينقل من مكان سيء إلى مكان أسوأ مصطحبا معه زوجته وابناءه الستة بين أسوان - منفلوط- اسيوط- الفيوم - قنا - دير مواس- طلخا وبلدات أخرى وصل عددها إلى أربعة عشر. وكان التقرير الذى منحته حكومة الوفد للضابط العاشق للوفد أن نقلته مأمورا لمركز سمنود مسقط رأس النحاس باشا.

من المدرسة الاعدادية حصلت شاهندة على الشهادة ثم لم تكمل الدراسة. الأب مات وسنها ستة عشر عاما، وبعدها فقدت الزهو بأنها «بنت البيه المأمور». ويتفتح إدراك شاهنده على حرب فلسطين عام ١٩٤٨ (ولدت فى عام ١٩٣٨). وعندما الغى النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ شاركت فى المظاهرات بحماس . وكانت تلاحظ إنه عندما تلتهب اى مظاهرة يقوم «البيه المأمور» برفع سماعة التليفون لكى لا يتلقى اى اوامر بفض المظاهرة.

وعندما قامت ثورة ٢٣، تحرر الأب بعض الشيء من قيود الوظيفة ووجه برقية إلى محمد نجيب يقول فيها «مادام الدستور رائدكم، وصالح الأمة مقصدكم فإلى الإمام والله يرعاكم. بكباشى عبد الحميد مقلد. «مأمور مركز سمنود». وعندما خضت الثورة معركة الإصلاح الزراعى كان اول من ايدها من ضباط البوليس فنقل مأمورا لمركز طلخا حيث أعتى الأسر الاقطاعية (البدراوى باشا وسراج الدين باشا).

ويظل الضباط الثائر على علاقة بكمشيش فهى بلدته لكنها ايضا بلدة أسرة من كبار الاقطاعيين عائلة الفقى واستنادا إلى علاقة الأسرة بأنور السادات استطاعت عائلة الفقى تهريب مساحات كبيرة من الأرض من الإصلاح الزراعى عبر عقود بيع وهمية، وبدأت المعارك بين الفلاحين المتمسكين بالأرض وبين عائلة الفقى وكان «البيه المأمور» مع الفلاحين ووصل الأمر إنه كان يهرب لهم السلاح فى سيارته الحكومية لكى يردوا على ترويع عائلة الفقى لهم. وفى أحيان كثيرة كان يستخدم شاهندة فى تهريب الذخيرة والسلاح. وكالعادة لجأ الاقطاعيون إلى السادات الذى رتب نقل المأمور إلى بنى سويف وفى محاولة لتبرير النقل منحوه ترقية.

ونعود إلى شاهندة وهى تلميذه فى ثالثة اعداد بمدرسة شبين الكوم وهناك التقت بمدرسة يسارية هى «أبلة وداد مترى» والمدرسة اليسارية تفيض حماسا وحيوية. شاهندة أحبت ابلة وداد ، لكن همسات من زميلاتها تقول «ابلة وداد شيوعية» جعلت شاهندة تتعلق بها وتطاردها لتعرف ما هى الشيوعية. ابلة اعطتها كتاب «أصل العائلة» لكنها لم تفهم حرفا من الكتاب المعقد فأعطتها كتابا آخر أكثر تعقيدا. ولاحظ صلاح ذلك فاعطاها كتاب الاقتصاد السياسى من تأليف ليونيتيف. واستطاعت أن تقرأ وفتهم.

* * *

وهكذا نأتى إلى صلاح حسين ابن عمتها. هذه العمة التى كانت لها حكاية تناقلتها الأسرة جيلابعد جيل فقد سافرت إلى القاهرة مع بعض الكبار لشراء جهازها وفساتينها استعدادا للزواج. كانت القاهرة تغلى بثورة ١٩١٩. وجدت اناسا يجمعون تبرعات لتمويل رحلة سعد زغلول والوفد المصرى المرافق له لحضور مؤتمر الصلح. تبرعت بكل ما معها من نقود وعادت دون أن تشترى شيئا. وكان صلاح كأمة يفيض حماسا وثورية، سافر إلى فلسطين عام ١٩٤٨ ليحارب الصهيونية. ثم سافر إلى القنال عام ١٩٥١ ليحارب الانجليز

وفى ١٩٥٦ شكل كتيبة من فلاحى كمشيش ليحاربوا العدوان الثلاثى، وعاش مع الفلاحين ليدافع عنهم ولينشر فى صفوفهم الوعى بحقوقهم. شاهندة تعلقت بصلاح،كان يكبرها بعشر سنوات وتزوجته رغم أنف الجميع. ومع «ابلة وداد» اصبح صلاح وشاهنده ماركسيان على الطريقة الكمشيشية اى يعيشان مع فلاحى كمشيش ويناضلان معهم يوما بيوم. والتهب النضال الفلاحى ضد عائلة الفقى ودوى الرصاص وسقط ثلاثة بلطجية استأجرتهم عائلة الفقى قتلى. ومرة أخرى يظهر السادات ويقرر اعتقال ٢٧ فلاحا وأن ينفى صلاح والفقى إلى الاسكندرية. وعائلة الفقى لا تسكت.. بعد سلسلة من المعارك يسقط صلاح شهيدا. ويشعل استشهاده معركة تصفية الاقطاع، أما شاهندة فقد جعلت من كمشيش رمزا للنضال الفلاحى ومن يوم اغتيال صلاح عيدا سنويا يؤكد تواصل النضال الفلاحى. ويعلو صوت شاهنده ليجتذب الكثيرين وتقرر لجنة تصفية الاقطاع استعادة الأرض المهربة وفرضت الحراسة على أملاك عائلة الفقى وتم القبض على كبارها. الأرض وزعت على الفلاحين وقصر الفقى صودر وأصبح قصرا للثقافة ومركز اعلاميا. وسلمت شاهندة مفاتيح بيتها إلى لجنة من الفلاحين ليستخدمه الفلاحون متى شاءوا واسموه بيت الشعب. وتمتد سيرة كمشيش عابرة للقارات وفى ١٩٦٦ يزور جون بول سارتر مصر ويطلب زيارة كمشيش ويذهل من وعى الفلاحين ويصرح سارتر وهو يغادر مصر قائلا «اغادركم وقد تأثرت بفلاحى كمشيش وعمال مصنع كيما»، وتمضى شاهندة لتجعل من ذكرى استشهاد صلاح عيدا لليساريين فتمتلئ كمشيش بزائرين شعراء ومسرحيين وموسيقى وأغانى وندوات .

وفى خطاب عبد الناصر فى عيد أول مايو ١٩٦٧ قال «صلاح حسين استشهد بعد ١٤ سنة من الثورة وده معناه أن لسه فيه رجعية» وإذ تأتى النكسة تشكل شاهنده كتيبة من ٥٠ من فلاحى كمشيش وسافرت معهم إلى بورسعيد.

وبعد رحيل عبد الناصر يأتى السادات. ويقرر الانتقام من كمشيش وحوصرت القرية، وهدم النصب التذكارى لصلاح حسين، وصدر قرار من وزير الداخلية بابعاد ٢٠ شخصا منهم ثلاثة نساء وعلى رأس الجميع شاهنده إلى خارج القرية، ويبقى المبعدون مشتتين لخمس سنوات حتى صدر حكم من محكمة القضاء الإدارى بعدم دستورية قرار النفى. وفى ١٩٧٥ وعقب المظاهرات الشهيرة اعتقلت شاهندة وتتوالى مرات الاعتقال ثلاث مرات

وفى المرة الرابعة هربت شاهنده. وكرد على هروبها يعتقل ابنها الأكبر ناجى لكنها تواصل نضالها وهى هاربة.

ومع تأسيس التجمع تأتى شاهنده ومعها كمشيش . وتصبح شاهنده أول أمينة للحزب فى المنوفية. وتواصل شاهنده معارك الفلاحين فى صفوف اتحاد الفلاحين (تحت التأسيس) ومعاركها فى صفوف حزب التجمع.

محمود علام

فى المدرسة كنت عام ١٩٣٥ أصغر تلميذ اشتركت فى مظاهرة هتفنا «عاش الوفد مع النحاس والحزب الدستورى عدو الناس.
وكان الناظر ضد الوفد فأغلق المدرسة وصعدنا إلى السطح نردد ذات الهتاف وجاء الفراش يمسكنا واحدا واحدا فيضربنا الناظر بعصا غليظة.
محمود علام
«فى أوراق أعدها بناء على طلبى»

الأب كان رئيس عمال فى مصلحة الطرق والكبارى، «الولد» محمود استمر فى الدراسة حتى سنة سادسة لكنه لم يكمل فقد تشاجر مع تلميذ آخر وضربه بعصا على رأسه وانتهز الناظر الفرصة وطرده، فأخذ قريبا له ليعمل فى مصنع كاسترو للنسيج فى شبرا الخيمة، كان صغيرا ويعمل فى «البكر» أحد العمال شتمه فضربه بالقبقاب على رأسه.. وفصل من العمل وعاد إلى قريته «زنارة مركز تلا - منوفية» وبعد عام من البطالة سافر محمود إلى المحلة ليشتغل بغزل الكتان ثم عامل نسيج فى صالة ٣.. كانت المحلة ومصر كلها تغلى فى هذا الوقت (١٩٤٦) وحضر إلى صالة ٣ عامل من القاهرة هو عبدالغفار سلام يطلب التبرع لتمويل رحلة سفر العامل محمد يوسف المدرك إلى باريس لحضور مؤتمر اتحاد النقابات العالمى، ومع التبرع توقيعات من العمال لتفويض المدرك بتمثيل عمال مصر فى المؤتمر ويقول محمود: وقعت تبرع ووقعت رغم أننى كنت أصغر واحد، ثم كان الإضراب الكبير الشهير فى المحلة، واعتصمنا فى صالات المصنع، وصدرت التعليمات لرؤساء الصالات بتشغيل الماكينات وكان رئيس صالة ٣ واسمه محمد على من بركة السبع يمر لتشغيل المكن وأنا وراه أوقف المكن، ولم يمنعنى بل على العكس كان مبسوطا وفى اليوم الثالث، كنا لا نعرف أى شىء عما يجرى خارج الصالة والأمن يحاصر المصنع ويمنع أى

واحد من الخروج ولكننى لم أزل أصغر عامل طلبوا منى أن أنط من الشباك لأعرف ماذا يجرى فى الخارج وخرجت محتميا بصغر سنى ووجدت مظاهرات حاشدة فمشيت فيها وهتفت معها بسقوط الاحتلال وسقوط إدارة المصنع وفجأة أطلق البوليس الرصاص وسقط بجوارى أحد المتظاهرين، استمر العمال ٢٥ يوما وبدأ العمال فى العودة لكن تعليمات الإدارة هى أن يقف رئيس كل صالة على بابها ليمنع كل من شارك فى زعامة الإضراب، ورئيس صالتنا سمح لى بالدخول، واشتغلت حتى وباء الكوليرا، وبدأ بعض العمال فى الوفاة بسبب الإصابة ودخلت لأستلم العمل من زميلى لقيته مات، فرجعت، وبقيت فى البلد حتى عام ٤٧ ثم ذهبت إلى شبرا الخيمة لأعمل فى مصنع سباهى رقم ٢ وبعد ثمانية أشهر من العمل بدأنا إضرابا وكان عوض الباز أحد قادة الإضراب وفصل وفصل جميع المضربين وأنا منهم.

وأرسل البعض إلى المعتقل، لكننى شاركت فى المظاهرات السياسية ونطوف فى شبرا الخيمة وروض الفرج هاتفين «عبدالهادى كلب الوادى» وضد الاحتلال، فصدر قرار من أصحاب مصانع المنطقة بمنعى من العمل فى أى مصنع بشبرا الخيمة أو روض الفرج فاشتغلت بعد ذلك فى مصنع الشرق بامبابة وكنا أربعة شيوعيين فى هذا المصنع ونظمنا إضراب واحتلال المصنع ثلاثة أيام مطالبين بإعادة ٢٩ عاملا فصلوا بسبب المشاركة فى التحضير للإضراب، قسمنا العمال ورديتين وردية تحتل المصنع والأخرى تلف فى القاهرة لتوزيع منشورات بمطالبنا، ونطالب الجماهير بالتضامن معنا حتى لا نموت جوعا، الأمر الذى دفع فؤاد سراج الدين وكان وزير الداخلية فى حكومة الوفد ١٩٥٠ بأن يصرح بأن إضراب مصنع الشرق هو بروفة شيوعية للاستيلاء على السلطة، كنت فى هذه الأثناء كادرا شيوعيا فى تنظيم طليعة العمال، فقد تم تجنيدى فى ١٩٤٨ وحضرت مدرسة كادر لمدة ١٥ يوما وكان المحاضرون أبوسيف يوسف وحلمى يسن، وكنت مسئولا عن العمل على أجهزة الطباعة الحزبية ومسئولى كان أديب ديمترى، وفى أثناء حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ نظمنا مظاهرة لعمال مصنع الشرق تهتف يسقط الوالد والمولود «كان فاروق يحتفل بمولد ابنه أحد فؤاد»، وفى ٢٥ مارس ١٩٥٤ تلقيت تكليفا حزبيا بعمل مظاهرة للدفاع عن الحريات وأن نبدأ من شبرا البلد وكانت الترتيب أن نحضر سيارات من مجلس الثورة لنقل العمال إلى قلب العاصمة كى

يهتفوا «تسقط الحرية» «تسقط الديمقراطية»، وتجمع عدد من المأجورين وهتفوا «يسقط النحاس» «تسقط زينب الوكيل» «تسقط الديمقراطية» «لا حرية بعد اليوم» فأنا غامرت ودخلت المظاهرة وهتفت «عاشت الحرية» فأنزلونى ومنعونى من الهتاف وعندما وصلنا إلى نقابة المحامين «هتفوا يسقط المحامين» وحاولت جهدى دون جدوى، ونمضى مع عامل مناضل فخلال عمله فى امبابة فى مصنع الشرق، درس فى مدرسة ليلية وحصل على شهادة الابتدائية وتقدم للعمل كمسماريا فى السكة الحديد وعين فى أواخر عام ١٩٥٤، وبدأ يمارس هوايته فى تنظيم وقيادة الإضرابات، وفيما يجرى تنظيم الإضراب وقع احتكاك بين العمال ومأمور قسم الشرطة واتخذها النبوى إسماعيل وكان ضابط مباحث السكة الحديد حجة ليقبض على ٣٠٠ كمسارى وعلى كل من يرتدى زى السكة الحديد وادعى النبوى أن العمال اتفقوا على منع الرئيس من السفر بقطاره إلى بورسعيد وحكم على أربعة عمال بالسجن ثم اتضحت كذبة النبوى إسماعيل وبقى العمال فى السجن ونمضى لنطالع أوراق محمود علام «فى يناير ١٩٥٩ قبض على عدد كبير جدا من الرفاق وكان فى ذلك الحين عضوا فى احتياطى اللجنة المركزية وتحملت عبئا كبيرا فى إعادة تجميع الحزب وقمت بتصنيع روينو وطبعنا عديدا من المنشورات ونجحت فى أن أستفيد من عملى فى السكة الحديد وتنقلى يوميا من مكان لآخر لتوزيع هذه المنشورات فى كل مدينة أمر بها وكنا مجموعة صغيرة منها عبدالمحسن شاشة ورضا إسكندر.. وظللنا ننشط حتى قبض علينا فى عام ١٩٦١ فيما سمى آنذاك قضية إحياء الحزب الشيوعى، والحكاية أننى كنت فى قطار الصعيد وفى أسيوط نزلت ومعى كتاب المادية والمثالية لإسماعيل المهروس لأوصله إلى الرفيق رضا اسكندر ولكن أخبرتنى زوجته أنه قبض عليه فى نفس الليلة، عدت إلى استراحة المحطة حيث قبض على وأرسلت إلى مديرية أمن أسيوط، ووضعت فى زنزانة غاية فى السوء وكنت أخشى أن يكون مصيرى مثل مصير الرفيق محمد عثمان عندما قبضوا عليه سرا ثم قتلوه، وظللت طوال الوقت أردد بيت شعر قيل عن الرفيق فهد «العراق» واصفا إياه وهو على حبل المشنقة.

حسبوه سيساوم عندما يدنون المصير

وجدوا حرا يقاوم وهو فى النزع الأخير

وكان لهذا الشعر مفعل السحر، وفى السجن زارنى أبى وقال إن رجال المباحث أبلغوه أننى إذا كتبت وقلت إننى ضد الشيوعية سيفرجن عنى، فقلت لا نكرر هذا الطلب وإلا لأنذورنى مرة أخرى فقال خلاص خليك على مبدأك، وبقيت على مبدئى، وعندما أفرج عنى وتم حل الحزب حاولت أنا والزملاء حسن الساكت وفايز علام وأحمد سالم إعادة تأسيس الحزب.. ثم جاء منبر اليسار وانضممت إليه، ولم أزل أناضل فى صفوفه متمسكا بالحلم الجميل الذى عشت من أجله طوال حياتى، وسأبقى حتى آخر يوم من حياتى متمسكا به.

عزيزى محمود علام.. شكرا فقد قدمت لنا نموذجا جميلا وحميما لمناضل بسيط وهب كل حياته من أجل المبدأ.

جمال الشرقاوى

«فى نهايات عام ١٩٥١ زرت قريتنا مع أبى والتف الفلاحون حول الأفندى الذى هو أنا وتحدثت إليهم بحماس وقلت ثقوا أن الشعب سوف يثور ضد الملك فقابلوا حماسى بلا مبالاة، وعندما قامت ثورة يوليو أتوا إلى بيتنا وهم يسألون فى فرح شديد هو حضرتك «شيخ مكشوف عنك الحجاب؟» فقلت لا، لكن السياسة طمتنى أن أتطلع إلى المستقبل».
«جمال الشرقاوى.. من رسالته إلى»

«أبى عامل بسيط، أتى من طنطا باحثا عن رزق فى القاهرة، توسط له بلدياته البطل الأوليمبى سيد نصير فحصل على وظيفة فى مطار ألماظة، أقام هو وأسرته فى شقة صغيرة فوق سطح عمارة فخمة فى مصر الجديدة أغلب سكانها خواجات يونانيون وأرمن وأسرة واحدة مصرية قبطية، المنطقة جميلة بها مساحات خضراء كثيرة وأمامنا عمارة أكثر جمالا يسكن بها جنود إنجليز وأسرة اللواء محمود عكاشة والد د. ثروت عكاشة ود. أحمد عكاشة» (جمال الشرقاوى من رسالة خطية كتبها بناء على طلبى).

وعندما يحين موعد دخول المدرسة اصطحبته الأم الأمية، سحبته من يده إلى أقرب مدرسة وكانت مدرسة إلزامية، وبعد سنتين نقلوا كل التلاميذ إلى مدرسة فى صحراء ألماظة وكانت مدرسة مشتركة بنين وبنات وكل تلاميذها تقريبا من أبناء العاملين فى مترو مصر الجديدة، الناظر والمدرسون أعجبوا بتفوق جمال وكان دائما «الألفة» على الفصل، ونعود إلى رسالة جمال «قبل شهر ونصف الشهر من نهاية العام الدراسى الأخير فى المدرسة استدعانى حضرة الناظر وقال لى: يا جمال أنت ولد شاطر ومتفوق، فهل فكرت ماذا سنفعل بعد انتهاء دراستك هنا؟ وكان السؤال أكبر من سنى بكثير ولم أجب فقال: أنا والمدرسين بنحبك وعايزينك تتشطر وندخلك مدرسة المعلمين وبعد خمس سنين تتخرج مدرس زينا» وفى اليوم التالى حضر أبى الذى لم يتعلم سوى فترة وجيزة فى الكتاب

ووافق طبعا، فقال الناظر: مدرسة المعلمين تشترط أن يكون الطلبة قبل قبولهم قد حفظوا بعضا من القرآن والأستاذ حسبو مدرس العربى سيقوم بتحفيظك القرآن.. ولشهر ونصف الشهر وتحت وطأة مسطرة الأستاذ حسبو حفظت ربع القرآن» لكن المصادفة وحدها أنقذت جمال من مدرسة المعلمين فأحد الجيران حصل على شهادة الابتدائية فى سنة واحدة ثم شهادة الثقافة فى سنة تالية.. كانت اللغة الإنجليزية هى العقبة فأخذ درسا مقابل جنيه فى الشهر مع الأستاذ أحمد المويلحى شقيق محمد المويلحى صاحب «حديث عيسى بن هشام». ناظر المدرسة الأولية ظل يتابع خطى تلميذه فاستدعاه وأعطاه دروسا مجانية فى العربى والحساب وامتحن جمال وحصل على الابتدائية منازل عام ١٩٤٨، لكن الأب عجز عن تدبير مصروفات المدرسة الثانوية، فظل عامين بلا عمل خلالها قرأ جمال كثيرا ثم وياللدهشة ألف رواية للسينما هو وصديق له، وأخذ يطرق بروايته أبواب أهل السينما حتى ساقته قدماه إلى الفنانة القديرة بهيجة حافظ التى طلبت منه أن يلازمها لتعلمه السينما وفى صالون بهيجة حافظ التقى جمال بالكثيرين وتعلم الكثير.

وفى هذا الصالون تعرف على سامى الليثى المحرر الفنى لروزاليوسف وأطلعه على بعض ما يكتب فأخذه من يده إلى إحسان عبدالقدوس «وطلب منى إحسان أن أكتب أخبارا ونصحنى ألا آتى بأخبار بايتة، وتجولت فى الشوارع لألتقط أخبارا من هناك، لكننى وبعد فترة وجدت نفسى فى الثامنة عشرة ولا أنا صحفى ولا أنا طالب، فتركت روزا ودخلت مدرسة راغب مرجان الليلية وكانت تدرس منهج السنوات الثانوية الأربع فى سنة واحدة توظفت فى مصلحة الضرائب ودبرت احتياجاتى ومصروف المدرسة وقفزت إلى التوجيهية فى سنة واحدة» وقبل إعلان النتيجة قبض عليه أثناء تسليمه لفافة منشورات إلى رفيق آخر.

كان جمال قد أصبح شيوعيا، شارك فى أنشطة جماهيرية كثيرة مع عديد من صدقائه مصر الجديدة حتى أحضر أحدهم معه شابا نوبيا هو زكى مراد ومع زكى تفتحت أمامه آفاق وعى وجديد، وضوء جديد «وفى لقاء حزبى سألنى مسئول هناك اتجاهان فى التنظيم أحدهما ثورى والآخر انتهازى، انت مع مين؟ وطبعا قلت مع الاتجاه الثورى.. وأصبحت عضوا فى الانقسام الذى قاده الرفيق بدر السكرتير العام والذى أسمى «حدتو – التيار الثورى». إنقسم جمال مع المنقسمين واعتبرها بعد ذلك غلطة عمره، وقرر أن يهب طاقته لتوحيد الشيوعيين، وظل يحاول ويحاول ويناقش وكأنه كان المبشر الوحيد بوحدة

الشيوعيين، لكن التوحد لم يكن مجرد رغبة لأفراد وإنما قدرة على التخلص من المناكفات المتراكمة والعداوات التاريخية، أسهم جمال فى تحقيق وحدة الموحد، وتحمل عبء الدعوة لها خارج السجن وداخله، وعندما تمت الوحدة فى ٨ يناير ١٩٥٨ كان لم يزل فى السجن وإذ يفرج عنه فى يونيو ١٩٥٨ خرج وهو يحلم بانطلاقة كل الشيوعيين الموحدين فى حزب واحدة، لكنه صدم فقد كانت الوحدة شكلية.. توحدوا لكنهم كانوا يكيدون لبعضهم البعض وامتلأت الاجتماعات والجلسات الفردية بالنميمة، وحاول جمال عبثا.. لكن المشكلة لم تكن كبيرة فى البداية فقد تم تنظيمه عضوا فى لجنة قسم الزيتون وتضم الزيتون ومصر الجديدة والمطرية وكان كل أعضاء لجنة القسم من رفاق الحزب الشيوعى الموحد أى من تيار حدتو ولهذا لم تظهر مشاكل كبيرة باستثناء داء النميمة ثم كان إشهار الانقسام. هو وجد نفسه فى حيرة رفاقه القدامى انقسموا وهو عاهد نفسه على عدم الانقسام فبقى مع مجموعة كانت تتشكك فيه وتلوك شعارات شديدة التطرف وتتهم كل رفاقه القدامى بأنهم انتهازيون وأحيانا يقولون إنهم عملاء، ونمضى معه فى محضر نقاش «تواترت أنباء عن أن مجموعة ع. ف قد أخفت عددا من أعضائها ولم تسلمهم للحزب وبدأ الحديث عن مجموعة الشبح وكذلك فعلت منظمة الراية، كنت دوما ألح على الوحدة الحقيقية دون جدوى ثم كانت حملة القبض فى يناير ١٩٥٩، أنا هربت وواصلت العمل فى ظروف شديدة القسوة وجرى تصعيدى إلى سكرتارية منطقة القاهرة حتى قبض على فى نهاية ١٩٥٩، وعشت مرغما مع مجموعة تقتات الجمود العقائدى والعداء لكل ما له علاقة بحدتو، وعندما استشهد شهدى كنت فى سجن القناطر فهذا الذى يصفونه بأنه يمينى وعميل للسلطة يموت شامخا تحت وطأة التعذيب وهو يقول أنا شيوعى»، (محضر نقاش أجريته معه فى ١٦ يناير ١٩٨٥)، وبقيت مؤرقا وسط مجموعة لا أحبها ولا تحبنى، وعندما خرجنا من السجن لم أشعر أن هناك رغبة حقيقية فى إقامة تنظيم فعلى، ثم كان أن أعد تقرير أعتقد أن كاتبه كان أبوسيف يوسف جاء فيه بعد تحية كفاح الشيوعيين التأكيد على وحدة القوى الاشتراكية ثم قال بحل التنظيم المستقل كمساهمة فى إقناع النظام بأهمية خلق هذه الوحدة، أنا طبعت هذا التقرير على جهاز رونيو بدائى جدا، طبعت عدد محدود جدا من النسخ وزعت على عدد محدود من الرفاق وعقد كونفرنس حضره فقط ١٩ رفيقا وصوتوا برفع الأيدى على حل الحزب» (محضر النقاش).

وبعدها كان جمال الشرقاوى فى جريدة الأخبار عندما أصبح خالد محيى الدين رئيسا لمجلس إدارتها، ولمع اسمه كصحفى قادر على شن حملات صحفية من أجل موضوع مهم، ولمع أكثر فى حملته حول زراعة القمح لتحقيق الاكتفاء الذاتى، ثم لمع اسمه أكثر وأكثر عندما أصدر أهم كتاب موسوعى عن حريق القاهرة، ثم مزيدا من التألق إذ يصبح مديرا لتحرير جريدة «الأهالى» فى أوج مجدها، ثم مسئولا مع محمود أمين العام وماجدة رفاعة فى إصدار واحدة من أهم المصادر الفكرية الماركسية وهى سلسلة قضايا فكرية، وهكذا وبدأب هادئ، وإصرار لا ضجيج فيه عاش جمال على الدوام وهو يتنفس النضال الاشتراكى.. ولكن

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

مرض جمال ولم يزل، لكنه يظل مقاتلا بقلمه.. على صفحات الأخبار وعلى صفحات «الأهالى»، ولم يزل قادرا على الإبداع وعلى طرح قضايا الوطن لعل الناس تفيق.

عزيزى جمال سلامتك ألف سلامة، ودمت لنا.

محمد رشدى خليل

إن رشدى لم يمت.
سجنوه أمرضوه اعدموه فى الليمان
ثم عادوا وجدوه يحتوى كل مكان
ان رشدى لم يمت.
فهو فى صدرى وصدرك
هو فى قلبى وقلبك
(من قصيدة رثاء كتبها أحد رفاقه فى السجن)

البداية كانت على يد شقيقه د. فتحى خليل. وفيما كان فتحى فى معتقل هايكستب (١٩٤٨-١٩٤٩) كان رشدى طالبا فى المدرسة الثانوية. وكان قد بدأ نضالا واسعا وسط زملائه الطلاب فى شبرا. وفى عام ١٩٥٢ التحق بكلية الهندسة جامعة عين شمس. وهناك التقينا. كنت أنا طالبا فى حقوق عين شمس فى الدور الثانى من ذات المبنى وكنت مسئولا عن رابطة الطلبة الشيوعيين (حدتو) فى الكليتين. وأتانى جمال عبد الحميد وكان طالبا فى الهندسة ليبلغنى أن طالبا بالهندسة من تنظيم طليعة العمال يريد مقابلتى. والتقينا. قال فى بساطة جميلة أعرف أن قيادتك سترفض، وأن قيادتى سترفض أن نعمل معا عملا مشتركا، لكننى معجب بنشاطكم فى كلية الحقوق واقترح أن نعمل معا. وعملنا معاً. وفى هذه الفترة التهب المبنى حقوق وهندسة بأعمال ثورية شاركنا فيها الوفديون ومصر الفتاة وتشكلت الجبهة الوطنية الديمقراطية لطلاب حقوق وهندسة عين شمس. أنا اعتقلت فى أواخر ١٩٥٣ وهو اعتقل فى ١٩٥٤ عقب الاعتصام الشهير لطلاب الكليتين مطالبين بالديمقراطية وعودة الجيش إلى ثكناته. ويفرج عنه بعد فترة ليواصل دراسته ويواصل معها نضاله. وتألق رشدى خلال فترة العدوان الثلاثى (١٩٥٦) فقد أصبح أحد قادة حركة

المقاومة الشعبية فى شبرا ثم فى القاهرة، وأسهم فى تأسيس «الجبهة الوطنية المعادية للاستعمار». وفى ١٩٥٨ وعندما اتحدت كل المنظمات الشيوعية فى حزب واحد لعب دورا قياديا فى تثبيت هذه الوحدة. وأصبح أحد قادة منظمة الحزب فى القاهرة. ثم كانت حملة القبض الشرسة فى أول يناير ١٩٥٩ وأفلت رشدى ليواصل معركة تجميع الرفاق واعادة تنظيمهم لمواجهة هذه الهجمة الشرسة. حتى قبض عليه ليرسل إلى معتقل العزب بالفيوم. ومن الفيوم إلى أسوأ سجون التعذيب الناصرى فى أسوأ فترات وحشيته. الضرب مستمر فى الجبل حيث يقوم المعتقلون بتكسير البازلت تحت وطأة العصى ثم الضرب عند استلام الطعام ثم الضرب فى الزنزانة.. ونستمع إلى شهادة أحد المعتقلين «كان رشدى صلبا فى الجبل مثل البازلت الذى يقوم بتكسيره لكنه لم ينكسر وكان صلبا فى الزنزانة فما أن يغلق الباب حتى يبدأ فى إدارة حوارات حول المستقبل، وحول أهمية صيانة الوحدة» وذات يوم خطر ببال الضابط حسن منير وسيلة منحطة لإذلال السجناء. اختار عشرين منهم وأوقفهم صفين كل صف عشرة وطلب من أفراد الصف الخلفى أن يضرب كل منهم زميله الذى يقف أمامه. وفيما الجميع يرفضون صامتين صاح رشدى بأعلى صوت «لا يمكن أن اضرب زميلى» وأنهال حسن منير عليه ضرباً ثم ساق العشرين ليحشرهم فى زنزانة واحدة. ويقول زميل هذه الزنزانة محمد سعده «كانت الزنزانة مترين فى متر ونصف ولا تكفى لنا ونحن مرصوصين وقوفا. واقترح رشدى أن يجلس اثنان ليرتاحا بينما يقف الباقون، وكان يختار الاكبر سنا والأقل احتمالا ليعطيه أولوية الجلوس أما هو فلم يجلس محاولا أن يحتمل من أجل راحة الرفاق الأكبر سنا أو المتعبين. زملاؤه فى هذه الزنزانة النازية يتحدثون. نجاتى عبد الحميد يقول : «كان رشدى خليل متماسكا يدعو الجميع للتماسك ويحشر نفسه على الحائط ليفسح سنتيمترات لزميل متعب». ومحمد سعده يقول «كانت الزنزانة رهيبة وبشعة واستمر رشدى واقفا أربعة أيام.. التبرز كان مشكلة مستعصية ورائحة البول تملأ الزنزانة».

اكرام محارب «قال عندما فتحوا باب الزنزانة خرج رشدى مثنى القامة ولم يفرد ظهره بعدها». وبعدها اشتد المرض برشدى، لكن الطبيب النازى هو ايضا واسمه أحمد كمال كتب تأشيرة تقول أنه متمارض يتظاهر بالمرض فعوقب بالضرب وهو مريض وعندما ارتفعت درجة حرارته إلى ما يقرب من ٣٩ درجة نقلوه إلى زنزانة الملاحظة. ومرة آخرى

يقرر الطبيب أحمد كمال أنه مصاب بالانفلونزا والعلاج نوفالجين، ولكن الحالة ازدادت سوءاً. وبالمصادفة مر على زنزانة الملاحظة طبيب آخر هو الدكتور أدمون فشخص الحالة بأنها تيفود وكتب له علاجا. لكن أحمد كمال عاد ليلغى علاج التيفود ويكتفى بالنوفالجين. وكأنه مصمم على تنفيذ أوامر بالحكم عليه بالإعدام. ويستمر الحال ثلاثة أيام حتى انهار الجسد الشاب والفتى، وارتفعت حرارته إلى ٤٠. ومع صراخ المسجونين حضرت يوم الجمعة سيارة بيك آب من سيارات الشرطة لتنقله إلى المستشفى. ألقوا به ممدا على أرضية السيارة زاعمين أنهم سيرسلونه إلى المستشفى.

ويحكى نبيل زكى أنه أفلت من الطابور ودخل عليه زنزانة الملاحظة ليودعه لكن رشدى وحتى وطأه الحمى قال له «أرجوك يا نبيل شوف الرفاق لو عايزين يبلغوا أى شىء للخارج يبلغونى وأنا سأبذل جهدى لايصال الرسالة. وحملت سيارة البوكس الفتى الشجاع ممدا على أرضية من الحديد. وأسرعت. والطريق من أبو زعبل ملئ بالمطبات ومع كل مطب يرتفع رأس الفتى ليعود فيرتطم بالحديد، مرة، مرات، عشرات المرات، وربما مئات المرات.. والسيارة لم تذهب إلى المستشفى ربما خوفا من تقرير طبى يصف الحالة، ولهذا ذهبوا به إلى سجن مصر. وألقوا به فى زنزانة وليس حتى فى مستشفى السجن. اغلقوا باب الزنزانة وتركوه هكذا حتى فارق الحياة. وهنا فقط عرضت الجثة على الطب الشرعى. ويقول تقرير الطبيب الشرعى الدكتور محمد نجيب فهمى والمؤرخ فى ٢٤-٧-١٩٦٠ «السجين محمد رشدى خليل توفى بسبب هبوط فى القلب سبقته حمى تيفوئيدية وكسر بعظام الجمجمة ونزيف على سطح المخ». وفى أعلى التقرير تأشيرة تقول «تخطر النيابة» بما يعنى الوفاة جنائية. لكن النيابة لم تخطر.

ويصل نبأ الاستشهاد إلى رفاقه فى السجن ويقف أحد الرفاق ليرثيه..

أن رشدى لم يمت
هو فى كل الملايين التى
حولى وحولك
فى المصانع فى المزارع
فى الشوارع
الملايين التى تزحف

قدما لا تنثنى.. لا تتوقف
هى كالامواج .. صف بعد صف
كلما ماتت على الصخرة موجة
عاجلتها الف موجة
نحن لن نبكى الشهيد
ليت من يبكى عليه ويواسى النائحين..
وللحزب يديه:. لنبيد الغاصبين

خـالد محيـى الديـن (١)

" تعلمت من دراويش تكية النقشبندية أن
التدين هو خدمة البشر ، وأن الدين
يعنى السماحة وأن التعبد الحقيقى هو أن تهب
نفسك للتفانى فى خدمة الناس"
خالد محيى الدين فى كتابه الآن أتكلم

كتب إميل لودفيج كتباً عظيمة .. عن رجال عظماء كنابليون وعن أشياء عظيمة ، فكتابه عن نهر النيل يبقى على مر الزمن ملهماً لكل من عرف النهر وأحبه ، وتبقى صورته أجمل وأكثر دقة حتى من صور الأقمار الصناعية .

لكن لودفيج حذرنا "لا تصف الجبل" هو من بعيد مهيب ، فإن اقتحمت شعابه أو حاولت ، أكتشف أن كل مساحة من مساحاته مهما صغرت أكثر مهابة .. من أن توصف . فهل نصف الجبل ؟. أو نحاول ؟

فى بيت إسلامى الطراز ، وإسلامى الرحيق ، ساحة واسعة تتدفق مياه نافورتها الرخامية محاطة بورود وأشجار وتمر حنة .. فى ظلال قبر الجد الأكبر لوالدته الشيخ الخليفة "محمد عاشق" .. القبر والمسجد والدراويش .. الآذان يرفع فى مواقيته والصلاة أيضاً .. إنها تكية الطريقة النقشبندية .

الطفل يقفز من حجر جده "الشيخ عثمان خالد" شيخ الطريقة وناظر الوقف الى رحاب المسجد .. إلى الحديقة إلى غرف الدراويش .. ومن هؤلاء الدراويش تعلم .. تعلم أن التدين هو خدمة البشر وأن الدين يعنى السماحة ، وأن التعبد الحقيقى هو أن تهب نفسك للتفانى فى حب الناس . ذهنى أفندى ، أيوب أفندى ، عثمان أفندى أسماء لدراويش لا تنسى أبداً فى ذاكرته أحدهم يعلم سكان الحى ، آخر يخيط الثياب ، وثالث يصلح الساعات لكل وافد

.. وكل ذلك مجاناً . ألم نقل إنهم يتعبدون عبر خدمة البشر .. ومنهم تعلم الفتى ، وعلى نهجهم سار ، ويظل حتى الآن .

باب التكية مفتوح أمام كل عابر ، ولا يغلق إلا مساءً . فالدراويش لا يغلقون بابهم أمام الناس ، وهو حتى الآن .. لا يغلق بابه أمام الناس . ونقرأ مع الفتى عندما كتب بعد زمان طويل "كان الآذان هادئاً وديعاً ، وكأنه دعوة حانية إلى لقاء حميم .. هذه العلاقة الحانية مع الدين ظلت تتملكنى حتى الآن ، ولم يزل طيف عثمان أفندى يمنحنى الكثير من السكينة عندما أتذكره ، وهو يعطى للناس كل وقته كى يعلمهم القراءة والكتابة ، ويبدو طوال وقته معهم سعيداً وممتناً لأنهم يقدمون له صنيعاً ، إذ يتيحون له فرصة كى يتقرب أكثر إلى صحيح الدين" .

.. هل عرفتموه ؟ أنه هذا الذى يواصل خدمة الوطن والشعب ، يواصل خدمتهم ممتناً لأنهم يتيحون له الفرصة كى يصبح الى الله أقرب ، والى الوطن والشعب أقرب .

هو والأم يعيشان عطر التكية ، بينما الأب يعيش نفس فى الوقت فى كفر شكر حيث أرض الأسرة ، وبيت الأسرة (الجد محيى الدين تاجر فى القطن وامتلك مئات الأفدنة .. وهو الذى أدخل إلى منطقة كفر شكر زراعة البرتقال والعنب ، والمانجو ، ومن هنا ارتبط أسم "محيى الدين" باسم كفر شكر) .

وتأتى الأجازة الصيفية ليسرع الفتى إلى كفر شكر حيث الانطلاق والكرة الشراب والاندماج مع أبناء الفلاحين .. وبين كفر شكر والتكية تمضى الحياة لتنسج معها . فتى من نسيج خاص .

.. من المدرسة الابتدائية ، إلى الإبراهيمية الثانوية ثم مدرسة فؤاد الأول (فى ذات الفترة كان معه فى ذات المدرسة أنو السادات وزكريا محيى الدين) .

وفى هذه المدرسة الصاخبة بالعمل السياسى يندمج الفتى مع مناخها المحموم .. مظاهرات حوارات يدور أكثرها حول الاحتلال .. الدستور .. القصر .. ثم يأتى عام ١٩٣٦ ليدور الحديث عن المعاهدة .

ويتعلق إعجابه هذه الأيام بمصر الفتاة وأحمد حسين .

وفى عام ١٩٣٨ يصبح طالباً فى الكلية الحربية .. "كان أبى يؤمل أن يرسلنى إلى أمريكا لأدرس الزراعة الحديثة حتى أحصل على الدكتوراه ، لكننى كنت أندفع بإتجاه آخر

، كانت الروح الوطنية تلهب مشاعرنا نحن الشباب فى هذه الفترة ، وكنا نشعر أن مصر بحاجة إلى جيش حقيقى قادر على حمايتها ، جيش وطنى يعمل من أجل الوطن .. وهكذا تعلقت بفكرة الانضمام الى الكلية الحربية " .

* * *

عمره الآن ستة عشر عاماً وثلاثة أشهر .. الفتى يصطف مفتوح الصدر فى أول طابور عسكرى فى الكلية الحربية . هناك يخط التاريخ بدايات صفحة جديدة فقد تراكمت فى هذه الأيام بالذات ، وفى هذا المكان بالذات ذات الأسماء التى غيرت تاريخ مصر ، معه فى دفعته : مجدى حسنين – لطفى واكد – صلاح هدايت – ثروت عكاشة – حسن إبراهيم (كان امباشى) – صلاح سالم (امباشى) – كمال الدين حسين (شاويش) – عبد اللطيف بغدادى ثم زكريا محيى الدين ، يوسف صديق ، أحمد عبد العزيز مدرسين .

تقاليد الدراويش النقشبندية تستضيف الى جوارها وفى رحابه صدر من روح وطنية دافقة ، وحوارات هامسة عن الوطن . الانجليز . الحرب . القصر .. الحرية .

.. "وذات يوم همس مجدى حسنين فى أذنى : "شايف اليافطة دى" كانت لافتة من الورق مثبته على باب غرفة المستشار العسكرى الانجليزى بالكلية ، تهامساً . تركز عداؤهما للافتة مكتوبة بالانجليزية . كتباً بديلاً لها باللغة العربية .. وفى المساء صححا الوضع . وكانت هذه خطوته الأولى فى التمرد الفعلى .. إدارة الكلية أبتلعت اللطمة .. ولم تتحرك .

يتخرج الفتى وهو فى الثامنة عشر . ويصبح "الملازم ثان بالآلاى الأول دبابات" . ضباط الفرسان يزهون دوماً بلباسهم المميز . وباسم " الفرسان " وهو فى الحقيقة سلاح المدرعات لكنه ما إن يتخرج حتى يكتشف أن الانجليز قد أخذوا (بسبب خسائرهم فى الحرب) دبابات ثلاث آليات – ولم يبق لمصر سوى آلاى واحد من الدبابات .. ويقول "لأول مرة أشعر من موقعى كضابط فى جيش مصر ، أننى أكره الاحتلال، وأننى ضد الاحتلال .. وزاد من عمق هذه المشاعر أننى اصطدمت بوجود ضباط انجليز فى الجيش المصرى كانوا مترفعين ويحصلون على مرتبات عالية جداً بالنسبة لنا ، بما أشعرنا أننا فى وطننا وفى جيشنا ضباط من الدرجة الثانية .

ويكون حادث ٤ فبراير ، ويحتشد مع زملائه الضباط فى اجتماع صاخب فى ناديهم ليحتجوا على وقاحة الانجليز .

ثم يقبض على الضابط حسن عزت ، ويودع فى ميس الفرسان ، ويستمع "خالد" فى انبهار إلى إصرار صاخب للدفاع عن الوطن وحريته .. ولأول مرة يشعر أن واجبه كضابط مصرى يحتم عليه أن يفعل شيئاً .. (بعد الثورة غضب منه عبد الناصر لأنه كتب مقدمة لكتاب لحسن عزت قال فيها عنه "أنه أستاذى فى الوطنية" عبد الناصر قال أن هذا لا يليق فحسن عزت ليس معنا ، خالد قال إن هذا هو الحق .. والحقيقة يجب أن تقال) .

"أن يفعل شيئاً" تلك هى المشكلة التى كانت تسيطر على مئات من الضباط مثله ، لكن البعض سأل نفسه ، ثم نسى السؤال ، ونسى نفسه فى دوامة الحياة ، والبعض الآخر ومنهم " خالد " بقى دوماً معلقاً أماله بأن "يفعل شيئاً لمصر وشعبها" وفى هذه الأثناء أصبح صديقاً لضابط مثقف شغوف بالقراءة.. ماركسى الاتجاه هو ضابط الفرسان عثمان فوزى .

وحول عثمان فوزى ألتفت مجموعة من الضباط عودهم على القراءة المنظمة "القراءة التى تتطلع بحثاً عن إجابات محددة" .

* * *

وفى عام ١٩٤٤ وفيما يفكر فى كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ يتحتم عليه أن يفعل شيئاً ، إصطحبه الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف ليعرفه بجمال عبد الناصر . ثم أخذه عبد المنعم عبد الرؤوف ليقابل ضابطاً آخر هو محمود لبيب (الإخوان) . وكان أول لقاء بينهما فى جزيرة الشاى فى حديقة الحيوان .

وفى بيت الضابط مجدى حسنين والضابط أحمد مظهر (الفنان) بدأت اجتماعات مجموعة من الضباط الشبان ذوى علاقة ما بجماعة الإخوان .

أسئلته التى تؤرقه عن مصير الوطن ، وحالة الشعب ظلت بلا إجابة ، قابلوه مع حسن البنا لعله يمنحه هدوءاً ، لكن المرشد العام لم ينجح فى إسكات صوت الوطنية الصاخب ، والغلاف الدينى المتشدد ، لا يستطيع أن يخترق ما منحه دراويش التكية من حصانة وديعة تؤمن بإيمان هادئ وديع .

وبرغم أنه بايع هو وجمال عبد الناصر مرشد الجماعة .. بيعه عضو الجهاز السرى على المصحف والمسدس .. وفى "المنشط والمكره" فقد تباعدا ، رويداً رويداً ، لم يجدا فى فكر الجماعة ما يقنع ، ولا فى طريقها ما يغرى أى ضابط يريد الحرية لوطنه وشعبه .. بأن يبقى على بيعته .

ونسرع سريعاً نتجاوز عديداً من المسالك الزاهية الألوان .. لأن التوقف أمامها يحتاج إلى مجلدات .. ألم يحذرنا أميل لودفيج من قبل .

× التقى به صديق قديم "أحمد فؤاد" ، هو وعلى شلقانى عرضاً عليه الانضمام إلى منظمة شيوعية (ايسكرا) .. وافق . كان لم يزل يبحث عن طريق .

× لم يستمر طويلاً ، مسئولة فى مجموعة كان قادراً على "تطفيش" الجدد كان متحمساً متشدداً صاخباً ، نجح بتشدده فى تطفيش الكثيرين ، وبعدها نسى المسئول كل شئ و .. "طفش" .

ويقول خالد "تلقيت واحدة من أهم دروس حياتى .. وهو أن التطرف الشديد والحماس المبالغ فيه والتشنج، ليست دليلاً على قدرة المناضل اليسارى على الاستمرار فى المعركة بل لعلها إيحاء بالعكس" .

ونواصل رحلتنا مع فارسنا المهيب الجميل .

خالد محيى الدين (٢)

ونعود إلى فارسنا وهو يحاول أن ينهض بمعارفه وأن يعد نفسه لكل الاحتمالات انتسب إلى كلية التجارة .. وعمل فى إدارة التدريب الجامعى .. ليدرب الطلاب الجامعيين على الخدمة العسكرية ليتخرجوا كضباط احتياط .. ومع تصاعد الأحداث الفلسطينية أخذوا فى تدريب آلاف المتطوعين العرب الذين كانوا يستعدون للمشاركة فى القتال .. وفى هذه المرحلة التقيت بياسر عرفات ، كان يحضر طوابير التدريب ، وكان آنذاك طالباً بكلية الهندسة . كان عرفات نموذجاً للجندى الجاد الملتزم ، الراغب فى التعرف وبأسرع ما يمكن على مختلف الفنون العسكرية فتقاربنا .. وأذكر أننى أركبته معى فى السيارة لأوصله إلى مكان ما وتحادثنا .. فجأة قال لى : تعرف ياحضرة الضابط إنك بتتكلم زى التقدميين .. واستوعبت الدرس ، وعرفت كيف يمكن أن أدير حواراً دون أن أكشف اتجاهى ".

.. قليلون هم الذين يشاهدون لقاء خالد بعرفات ، وحتى بعد أن أصبح عرفات رئيساً يشد الرئيس عرفات قامته ويحيى ضابطه القديم مقدماً التحية العسكرية .

× فى النصف الثانى من عام ١٩٤٩ ، وفى بيت جمال عبد الناصر .. التقت مجموعة من الضباط فى غرفة الصالون : جمال ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، كمال الدين حسين ، حسن إبراهيم ، خالد محيى الدين .

قال جمال : أنا معايا عبد الحكيم عامر لكنه معتذر اليوم ،وقال إنها الخلية الأولى لتنظيم الأحرار.

وفى عام ١٩٥٠ التقى خالد من جديد بأحمد فؤاد وكان قد أصبح قاضياً ، ورتب لقاء بين أحمد فؤاد وبين عبد الناصر قال عنه عبد الناصر : " راجل كويس ومعقول ".

وهكذا بدأ التعاون بين الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ويمثلها أحمد فؤاد وبين جمال عبد الناصر.

الخلية الأولى كانت موزعة على الأسلحة المختلفة مشاة ، مدفعية ، طيران .. " وخالد فرسان " وهكذا أصبح ضابط الفرسان الشاب هو الأب الروحى للحركة الوطنية والثورية فى سلاح الفرسان .

بعد فترة كان التنظيم يضم ٣٠ ضابطاً أو أكثر قليلاً منهم ١٣ أو ١٤ من الفرسان تحت قيادة خالد ، وبدأوا فى إصدار منشوراتهم ، يحتاجون الآن إلى رونيو ، وآلة كاتبة ، ووسيلة للتوزيع .. فعلوها مرة أو مرتين ، ثم اكتشفوا حاجتهم إلى خبرة العمل السرى .. جمال وخالد اتفقا مع أحمد فؤاد أن تقوم " حدتو " بطباعة المنشورات وأن يقوم ضباطها بتوزيعها .

وفى سبتمبر ١٩٥١ أعد خالد أول وثيقة أساسية لثورة يوليو " أهداف الضباط الأحرار " كتبها بخطه ، عرضها على لجنة القيادة ، ترددت القيادة ، ثم اتفقوا أن تظل النسخة الوحيدة بخطه محفوظة لديه تمر ليقرأها أعضاء التنظيم الجدد ثم تعود إليه .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر ٢٢ يوليو التقت " لجنة القيادة " لتعقد اجتماعها الأخير . إنها تعد الآن خطة التحرك . تم اللقاء فى بيت خالد . عرض زكريا محيى الدين خطة السيطرة على القوات المسلحة والسيطرة على الوطن .. الثالثة والنصف انتهى الاجتماع .. واتفق على كلمة السر " نصر ".

سألته : " هل كنت خائفاً وأجاب " ولا قطرة واحدة من الخوف .. الحماس لفنا جميعاً ونسينا كل خوف ".

هو غير خائف فماذا عن مدام سميرة ؟ وكانت تحمل معها وثيقة " أهداف الضباط الأحرار " وتتحمل المخاطرة ، تعرف دون أن تسأل ودون أن تلح بالسؤال عن أية تفاصيل، أو أن تشعره بالحرج تقبلت الوضع حباً فى خالد .. وحباً فى الوطن .

كانت ابنتهما سميحة مريضة ، لابد أن يراها الطبيب . لكن لا وقت لديه . وحتى هذا تحملته مدام سميرة .. بعد الغذاء وبلا مقدمات قال لها : " سأخرج فى الثامنة ، وإذا لم أعد فى الصباح يكون شيئاً خطيراً قد حدث .. إما أن أموت أو سأعود منتصراً " .

حتى كلمات مثل :" شئ خطير " " أموت " .. انتصر " لم تدفعها للخوف أو التردد .. إجابتها كانت " إن شاء الله حترجع بالسلامة " .

.. وهكذا تكمن البطولات لتختفى فى طيات أحداث كبيرة .. فتنسينا مواقف صعبة .. وصلبة .

سيطر خالد بقواته على الموقع الحاكم فى شارع الخليفة المأمون .. هناك تساقط فى يده عديد من قيادات الجيش ، كانوا يسرعون بعد أن تم استدعاؤهم لمواجهة الحركة .. فوقعوا ببساطة فى يد الحركة .

" مازلت أذكر أن واحداً منهم إندفع نحوى قائلاً : ياحضرة الضابط من فضلك عربية توصلنى للسلاح لأن هناك تمرد . فقلت باسماً : " آسف أصل إحنا التمرد "

.. ويأتى الصباح .. ليشهد فجر انتصار مصر ..

فجأة تذكر مدام سميرة وسميحة .. دق التليفون رفعت السماعة ، الاثنان نطقا فى صوت واحد "مبروك " فقد سمعت البيان من الاذاعة .

لم يعد بعد مجرد ضابط ، أصبح واحداً من الحكام .

.. ووقع الخلاف مع رفاق الأمس .

خالد وضباط القيادة أصبحوا حكاماً كل ما طرأ عليه " سيارة جيب "

ولكن .. كيف يحكمون ؟ اختلفوا ، البعض كان نهماً للسلطة والنفوذ ، والبعض كان يرى أنه الأولى والأجدر بالحكم ، والبعض أدارت تعقيدات الموقف رأسه لكنهم جميعا ظلوا فى قارب الوطن .

صوت واحد ظل منسجماً مع ضميره .. وفكره .. ومع ماعاهد نفسه عليه .. خالد ورجال سلاح الفرسان صمموا على أن الديمقراطية .. هى مفتاح انطلاق الوطن .

بدا صوتهم نشازاً وسط صخب " العسكرة " ، لكنه كان متماشياً ومنسجماً مع تطلعات الشعب .

اختلف بشرف مع رفاق المعركة .. وعندما تهدد الوضع باحتمال التصادم ، وانقسام الجيش آثر التراجع . وأبعدوه . وتقبل النفى بعيداً عن الوطن . دفع ثمن تمسكه بالمبدأ .. والديمقراطية . ترى ماذا لو أن رفاقه وافقوا على التمسك بالديمقراطية .. هل كنا سنشهد ما آلت إليه ثورة يوليو فى نهاية الأمر ؟

* * *

لا يعرف التاريخ ولا يعترف بكلمة " لو أن " .

لو أن نابليون لم يهزم فى ووتر لو.

لو أن محمد على لم يخضع لضغوط أوروبا .

لو أن عرابى ..

لو أن سعد زغلول ..

ولكن " لو أن " محددة تظل تلح على . رغم أننى أحذر تلاميذى فى فصول التاريخ من استخدامها ." ماذا لو أن " خالد تهاون قليلا ، سكت قليلا عن التجاوزات ، وعن تشدده فى المطالبة بالديمقراطية .. وبقى .. فى مجموعة الحكام .. وبقى حتى نال السلطة كلها ثمناً لصمته .

ولكن .. من يتصور أنه كان بإمكان خالد محيى الدين أن يفعلها ويتناسى عطر دراويش النقشبندية واعتبارهم أن التقرب إلى الشعب هو تقرب من الله .. وأن خدمة البشر هى أرقى أشكال التعبد ، من يتصور أنه كان بإمكانه أن يفعلها ويخذل مدام سميرة .. التى وقفت إلى جواره فى هدوء شجاع .. بل ويخذل ابنته سميحة بعد أن تركها مريضة ليذهب كى يصنع لمصر ثورة .

من يتصور أنه كان بامكانه أن يفعلها ويخذل كل ما آمن به من فكر .. ومعتقد .. " ماذا لو أن " ليس لها مكان فى خريطة خالد محيى الدين .

ويبقى أن نسأل أنفسنا " من الذى انتصر "؟ الذى نسى أو تناسى حقوق الشعب فى الديمقراطية ، وقبل منصباً أو شبه منصب ، متنازلاً فى مقابلة عن ضميره أو أكثره ، تاريخه أو أكثره .. أم هذا الذى تمسك بالحق والعدل والضمير والديمقراطية .. وكل المنصب واكتفى بالمنفى ؟

من الذى انتصر ؟

هذا الذى امتلك ولم يزل محبة الشعب وإحترام الوطن ..أم الذين ...

فكم يبدو المنصب تافها أمام محبة الشعب واحترام الوطن .

* * *

عزيزى خالد محيى الدين

هل تقبل اعتذارى إذ تجاسرت بالكتابة عنك ؟ إذ مهما كتبت .. ومهما أفضت .. ومهما قلت .. فأنت تستحق أكثر . وسوف تبقى يا فارسنا الرائع رمزاً لنا وقائداً وملهماً . وسنبقى دوماً مريدين فى ساحة عشقك للشعب والوطن . دمت لنا ومتعك الله بالصحة.

ومهما كتبنا لن نوفيهم حقهم

فالحقيقة أن الكلمات ومهما تم صقلها أو تأكيدها لا يمكنها أن تفى بالغرض.

فأن أكتب وأن تقرأ أنت ثلاث كلمات «وسجن عشر سنوات» أو ثلاث أخرى «وعذب تعذيبا وحشيا» لا يمكن أن تعبر عن حقيقة ما كان. ولا كم المعاناة التى عاناها. ومهما التهبت الكلمات فإنها لا تقول حقيقة ما كان. فمهما كتبت واستخدمت أشد المفردات قسوة لا يمكنك أن تصف لحظة ألم، ضربة عصى، هكذا اللغة دوما لا تستطيع أن تصف عديداً من المفردات.. ناضل. سجن. عانى من التعذيب.. جاع. وحتى فى أفراح المناضلين. لحظة الإفراج من السجن كيف تصفها الكلمات. اكتب ما شئت لكنك لا يمكن أن تصف العذابات ولا المعاناة ولا الاشتياق للأسرة. للزوجة، للأولاد، حاولنا. ونحاول وسوف نستمر فى المحاولة، لكننا سنظل دوما عاجزين عن وصف الألم أوالمشاعر أو الاشتياق أو التعب.

ومع ذلك فلا حيلة أمامنا غير ما نفعل.

الكاتب يبذل جهده، يفنى وقته وكثيرا من عمره فى استقصاء المعلومات وتعقبها ويكتب. أما أنت عزيزى القارئ فحذار من أن تقرأ متعجلا. فالدقيقة التى تقرأ فيها اسطراً تعنى بالنسبة للسجن سنوات من العذاب. ولست أطلب منك بكاءً على لحظات العذاب وإنما فقط أن تحاول تذوق الكلمات لتكتشف كم ما تحتويه من شجن وإصرار وعذاب.

ويبقى بعد ذلك أننا ومهما كتبنا فإننا لن نوف هؤلاء المناضلين حقهم.. كما أننا بحثنا وفتشنا سيبقى بالقطع مئات من المناضلين اليساريين افنوا عمرهم وبذلوا جهدهم دفاعا عن المبدأ وعن الشعب والوطن. اسماء عديدة لم تزل تستحق الكتابة عنها وعما قدمت. وهى بالقطع ليست لحظة تمجيد لعطائهم وإنما ضرورة لاستكمال الحقيقة التاريخية ففى كل كتابه عن مناضل معلومات بدونها يظل تاريخ اليسار المصرى ناقصا.

ومن ثم فإن كل ما كتبت أنا وكل ما كتبه غيرى عن سيرة ومسيرة اليسار المصرى هو جهد المقل. ويتطلب الأمر كتابة بل كتابات أخرى وكثيرة لعلنا نمنح هؤلاء الرجال والنساء

بعضاً مما يستحقون، ولعلنا نقدم حركة اليسار المصرى بما تستحق ونحفظ لأجيالنا القادمة ما تستحقه من حق التعرف على تاريخ مجيد لليسار المصرى. فبدون مطالعة هذا التاريخ ودراسته ستظل مطالعتنا ومعرفتنا بتاريخ مصر ناقصة.

فلنواصل. وكل من يستطيع الكتابة والبحث فليكتب، فالعبء أكبر من أن يقوم به شخص واحد.

لنواصل فالمناضلون اليساريون يستحقون أكثر.

وما من خاتمة

(١)

.. كيف أن الرجال مضوا
دون أن يتركوا لنا قشة نفترشها
دون أن يتركوا حتى صبيا للحراسة
أو قلما للكتابة..
أو فحما يدفئ هذا البقاء المخيف
دون أن يتركوا
سلة نلم فيها ما يمنحنا الزاد
أو قبعة كى تخبئ شيب الهموم
أو يداً تصافح
أو حكمة نستعين بها
فى قلب هذا الضباب المخيف

(٢)

يا وطنى
ماذا يمكننى أن أقول لك؟
سوى أن حبك يطغى على كل ما عداه
حبك ينمو كما تنمو الاشجار فى الربيع
بل هو ينمو فى كل الأوقات
هو ينمو حتى فى برد الشتاء
فأنت الماضى.. والحاضر والمستقبل
لا أحد غيرك
لا شىء غيرك
فأنت كل شىء

المحتوى

- مرة أخرى 9
- يوسف صديق 15
- محمد يوسف الجندى 23
- جابر المعايرجى 31
- أحمد مصطفى 35
- حسين عبد ربه 39
- عيد صالح مبروك 43
- أحمد الرفاعى (مذكرات) 51
- على طلخان 99
- عطية الصيرفى 107
- الشيخ محمد العراقى 115
- محمد حسن جاد (برق) 119
- محمد على عامر 127
- الشيخ عبد السلام الخشان 131
- محمد طه 135
- عبد الله الزغبى 139
- طاهر عبد الحكيم 143
- الدكتور مختار السيد 147

- سعد الساعى 153
- محمود مراد 157
- مصطفى طيبة 161
- سعد زهران 165
- وليم افرايم طانيوس 173
- محمد رشدى خليل 177
- لويس إسحق 181
- أنور إبراهيم 185
- د. فخرى لبيب 189
- بهيج نصار 193
- مهدى الحسينى 201
- أحمد على خضر 205
- رزق مكارى 209
- شحاتة النشار 213
- سعد رحمى 221
- محمود مرسى خلف 225
- د. لويس عوض 229
- عبد الرحمن الخميسى 233
- صلاح حافظ 241
- محمود المناسترلى 249
- محمد الزعفرانى 253
- سيد حميدة العشرى 257
- عريان نصيف 216
- عبد الله الطوخى 269

- شاهندة مقلد 277
- محمود علام 281
- جمال الشرقاوى 285
- رشدى خليل 289
- خالد محيى الدين 293
- ومهما كتبنا لن نوفيهم حقهم 303
- وما من خاتمة 305

رقم الإيداع: ٩٥٨٠/ ٢٠١٢
الترقيم الدولى: 978-977-5047-07-6